تاريخ الأنبياء

دكتور

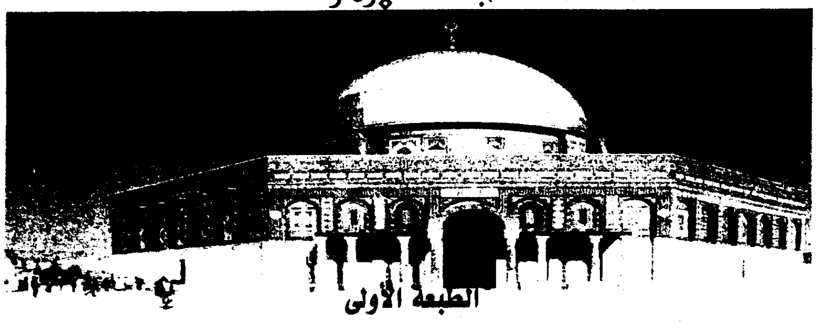
السيد محمد يونس

أستاذ ورئيس قسم

التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية اللغة العربية بالزقازيق

جامعة الأزهر



الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

مقـــدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، سيدنا محمد - ﷺ - وعلى آله وصحبه وإخوانه النبيين والمرسلين.

وبعد...

فإن الحديث عن تاريخ الأنبياء من الموضوعات الشاقة ، الصعبة التي يكتنفها الغموض ، وذلك لوجود فترات هؤلاء الرسل في أزمان مُغلة في القدم ولم تُدّون أخبارها ، وتكشف أسرارها ، الأمر الذي يجعل الباحث يسلك هذه الأغوار ويدقق في قراءتها ، ويحاول استخلاص الحقائق الثابتة الصحيحة ، بعيدة عن الأساطير والروايات الزائفة وما أكثرها في أحاديث أحقاب تاريخية بعيدة المدى . الكل يُحاول أن يُفسرها حسبما يتراءى له .

وإن الكتب السماوية السابقة التي أنزلت على الرسل مثل صحف آدم ، وشيث ، ونوح ، وإبراهيم - عليهم السلام - قد ضاع أكثرها ، وحُرِّف الباقي بيد أتباعها .

والكتب التي أنزلت على موسى وعيسى كالتوراة والإنجيل ، قد حرفها أتباعها ، فمن وجدوه فيها يُوافق هواهم تركوه ، ومن وجدوه مخالفاً غَيَّرُوهُ وحَرَّفُوهُ .

ولذلك لم يكن الاطمئنان إلى ما فيها من معلومات عن حياة الرسل وأممهم وأتباعهم .

وأصدق كتاب مُنزل هو القرآن الكريم الذي نزل على أشرف المرسلين سيدنا محمد – ﷺ – ، فيه كثير من الآيات والسور التي تتحدث عن الأنبياء والمرسلين السابقين ، وبيان منهجهم في الدعوة ، وماذا لقوه من عنت وانصراف الناس عنهم . وتحمل الرسل الإيذاء والصبر على قومهم حتى يشرح الله صدورهم للهداية فيؤمنوا .

وهذا الكتاب قد تعهده الله – تعالى – بالحفظ من كل سوء ومكروه، فلم تناله يد المبدلين والمحرفين عملاً بقول الله – تعالى – " **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** " (١) .

ولذا فقد كان اعتمادنا الأول على القرآن الكريم في الحديث عن الرسل والأنبياء السابقين على رسالة الإسلام .

ثم كان اعتمادنا على السنة النبوية الشريفة ، وما فيها من أحاديث الرسول – ﷺ – عن إخوانه الرسل والنبيين من قبله ، إذ هي المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم ، وهي أوثق المصادر بعده .

ثم كان للطبري ، وابن الأثير ، وابن كثير، وابن قتيبة، واليعقوبي . وغيرهم دور في رسم صورة الأحداث الماضية ، كل حسب وجهة

---

(١) آية ٩ / الحجر .

نظره ، وما هداه إليه الله – تعالى – من البحث والدرس .

وكان للمراجع الحديثة دور رائد في توجيه الباحث إلى المصادر والمراجع ، ولكل منها جهد مشكور بذله أصحابها في كتابة قصص الأنبياء وتاريخ حياتهم . غير أنه يعتري الكثير منها عدم الدقة في كتابة الحوادث ، والتأثر بالإسرائيليات .

ودراسة تاريخ الأنبياء من أهم الدراسات التي يجب أن تُدرس بعناية ، وفهم حتى نعرف حياة هؤلاء مع قومهم ، وماذا فعلوه معهم ، وكيف واجهوا انصرافهم عن الدعوة ، وما السُبل التي سلكوها لترغيبهم في الإقبال على الدعوة ، واعتناق الإيمان .

وقد أيَّدَ اللهُ – سبحانه – كل نبي بمعجزات تدل على صدق رسالته، وأنه نبي مرسل من قبل الله – تعالى – ليخرج قومه من ضلالهم وغيهم إلى نور التوحيد والإيمان .

وكانت لهذه الآيات والمعجزات الأثر الكبير في إقبال كثير من الناس على قبول الدعوة ، والدخول فيها حين رأوها رأي العين .

ومن الناس من كابر وعاند ، واتخذ إلهه هواه ، واستحوذ عليه الشيطان فأضله وأغواه ، وجعله يتنكب طريق الشر والخسران . فحق عليهم العذاب في الآخرة والخزي في الحياة الدنيا .

ورسالة الأنبياء واحدة من لدن آدم – عليه السلام – ، حتى سيدنا محمد – ﷺ – ، كل رسالة كانت تمهد وتدعو للتي تأتي بعدها . ففي عصر سيدنا آدم وبنيه أنزل الله عليهم مجموعة من الشرائع والتعاليم السماوية تناسب عقل وطبيعة الإنسان – في ذلك الوقت – ، ثم حين تطور الزمن ، ونضج العقل البشري بعض الشيء كانت الرسالات من بعد آدم حتى جاء موسى – عليه السلام – فزادت التكاليف والشرائع زيادة تناسب التطور العقلي والفكري للإنسان ، ولما جاء عيسى – عليه السلام – نزلت عليه مجموعة من التشريعات الإلهية تناسب عقول الناس ، وتنظم حياتهم ، وتهديهم إلى خيري الدنيا والآخرة .

وحين علم بدنو أجله أوصى الحواريين أن يؤمنوا برسالة الإسلام قائلاً لهم : " وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ " (١) .

وهكذا فكل رسالة تدعو للتي بعدها وتبشر بها ، وجميعها تدعو للإسلام قال الله – تعالى – : " مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (٢) .

ولذا لم يكن هناك فرق بين رسالة وأخرى فكل رسالة جاءت بمجموعة من الشرائع للناس ، حتى تكاملت في رسالة سيدنا محمد – ﷺ –، فشملت كل محاسن ومميزات الرسالات السابقة ، وصارت الدين

---

(١) من آية ٦ / الصف .

(٢) آية ٦٧ / آل عمران .

الحق الذي ارتضاه الله لعباده قال – سبحانه – : " إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ " (١) . وقال – تعالى – : " وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ " (٢).

وجاءت هذه الدراسة في مقدمة وخمسة فصول ، كل منها يتحدث عن نبي من الأنبياء ، وكان الفصل الأول عن النبوة والرسالة . وإليك تفصيل ذلك :

أما المقدمة : فهي لبيان أهمية الكتابة في تاريخ الأنبياء ، ومعرفة حياتهم وأعمالهم ، ومنهج دعوتهم ، وكيف صبروا على الصعاب والمتاعب في سبيل تبليغ الدعوة وإرادة الخير للناس .

وذلك ليكون لنا القدوة والمثل الأعلى ، والتخلق بأخلاق هؤلاء الصفوة المختارة من البشر ، الذين أختارهم الله – سبحانه – ، ليكونوا سفراء بينه وبين خلقه ، يبلغوا أوامره وشرعه ونواهيه للناس .

وألمحت في تلك المقدمة عن مدى صعوبة الكتابة في تاريخ الأنبياء، لقلة المصادر الموثوق بها ، وأما الموجود منها والمعتمد فقد أخذ اللاحق من السابق ، دون إضافات تُذكر ، أو رأي يُوضح .

كذلك كان التحريف والتبديل والتصحيف تناول الكتب السماوية السابقة على الإسلام .

---

(١) من آية ١٩ / آل عمران .
(٢) آية ٨٥ / آل عمران .

والفصل الأول : عُقد للحديث عن النبوة والرسالة ، والفرق بينهما ، ومهمة الرسل ، وحاجة الناس إلى الرسالة ، لقصور عقولهم عن إدراك حقائق الدين . كما أن الإنسان يستحسن الشيء في وقت ويستقبحه في وقت آخر . لذا كان لا بد من إرسال الرسل لهداية الناس إلى الطريق المستقيم .

ثم ذكر عدد الرسل والأنبياء ، ووجوب الإيمان بهم جميعاً ، ولا يجوز الإيمان بالبعض وترك البعض الآخر ، لأن ذلك معلوم من الدين بالضرورة .

ووضحنا الصفات والشروط الواجب توافرها في رسل الله وأنبيائه. وأوردنا بعض الشبه التي تحوم حول عصمة الأنبياء والرد عليها .

وخُصص الفصل الثاني : لأبي البشر آدم – عليه السلام – وتناول الكلام خلق السموات والأرض ، ثم عمران الكون قبل آدم بالجن والملائكة ، ثم خلق آدم من تراب الأرض ، ونفخ فيه الروح ، وسجود الملائكة له. وتعليم الأسماء كلها وعرضها على الملائكة .

ووضحنا أن أساس الجنس البشري هو آدم – عليه السلام – ، فكل البشر منه ، وأبطلنا نظرية دارون اليهودي الملحد ، ومن سار في فلكه من إن الإنسان أصله قرد ، ثم تمدن فصار إنساناً ، وذكرنا العديد من الأدلة الدامغة ، التي تؤيد ما نقول .

وألقينا الضوء على خلق حواء ، وزواجها من آدم ، وشهد الله وملائكته على العقد وكفى بالله شهيداً . وعاش آدم وحواء في الجنة يأكلان من خيراتها وثمارها ، وينعمان بفضل وكرم الله لهما .

ورأى إبليس هذا التكريم لآدم وزوجه ، فحقد عليهما ، ووسوس لهما بالأكل من شجرة قد نهاهما الله عن الأكل منها . وكان قبل ذلك تكبر ابليس وطغى وعصا أمر الله – تعالى – ، حين أمره بالسجود لآدم ، سجود التكريم والتحية ، فتكبر وتعلل بعلل واهية " **قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** " . ظن اللعين أن النار أعظم من الطين مع أن ذلك بالنسبة للخالق يستويان . وبين العلماء أن عنصر الطين خير من النار . فالنار فيها الطيش ، والخفة ، والسرعة والإحراق ، أما الطين ففيه الرزانة ، والحلم ، والأناة ، والنمو .

فطرد إبليس من الجنة لعصيانه أمر الله ، واقسم أن يغوى آدم وذريته . وبينا كيف وصل لهما ووسوس لهما بالأكل من الشجرة ، وماذا فعل حتى صدقوه ، وقد حذرهما الله منه بقول " **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** " [١] .

ووضحنا هل إبليس من الملائكة أم من الجن ؟ ، وذكرنا أراء العلماء في موقع الجنة ، هل هي جنة عدن التي وُعد المتقون ، أم أنها جنة أخرى ؟ .

---

(١) آية ٦ / فاطر .

والمحنا إلى خروج آدم وزوجه من الجنة ، وفي أي مكان نــزلا ، وهل نزل كل منهما في مكان ، ثم التقيا ، وما المكان الذي التقيا فيه .. كل ذلك بدقة وتفصيل .

وبينا كيف عاش آدم وزوجه على الأرض ، وبداية عمران الكون. وغمرتها وأولادهما سعادة وهناء ، حتى كانت أول جريمة قتل ارتكبها قابيل في حق أخيه هابيل . ثم كانت وفاة آدم – عليه السلام – ، وحمل رسالته ولده شيث .

والفصل الثالث : كان عن نوح – عليه السلام – وجهاده في قومه ، وبــدأ الحديث بنسب نوح ونشأته وبيان أنه كان في قــوم أول مــن عبــدوا الأصنام والأوثان ، وكانت البداية تماثيل لرجال صالحين ماتوا ، فحزن عليهم الناس ، فاستغل الشيطان ذلك الحزن ، وتصــور فــي صــورة إنسان، وقال لهم : أنا أصور لكم على هيئتهم صوراً ، غير أني لا اقدر أن أبث فيها الروح ، فصنع لهم ، فوضعوها في مجالسهم . فلما ماتوا، ومات أبناؤهم نسى الجيل الجديد حقيقتهم فقال لهم إبليس : مــا وضــع السابقون هؤلاء إلا بمنزلهم وقدرتهم ، وكانوا يعبدونهم ، فعبدوهم .

فحاول نوح – عليه السلام – أن يثنهم عن تلك العبادة الفاســدة . ولكــن قومه أصروا واستكبروا وعاندوه وآذوه ، فصبر ابتغاء أن يهديهم الله – تعالى – .

وبينا منهج نوح في الدعوة إلى الله – تعالى – ، والطرق التي سلكها في الدعوة ، وما تعرض له من إيذاء وعناد .

وقد هدى الله بدعوته عدد قليل . فآمنوا ، وظل نوح ، – عليه السلام – يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، سراً وعلانية ، وهم يضعون أصابعهم في آذانهم ، حتى لا يسمعوا دعوة الحق ، ويضعوا ثيابهم على وجوههم ، حتى لا يروه وهو يدعوهم إلى الله والفوز والنجاة في الدنيا والآخرة .

وأمام إصرار هؤلاء على الكفر والطغيان ، أوحى الله إلى نوح " **إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون**" [١] . فدعا عليهم نوح بأن لا يذر أحداً منهم على الأرض ، لأنهم يضلوا العباد ، ولا يخرج من أصلابهم إلا فاجراً كفارا .

فأمره الله – سبحانه وتعالى – أن يصنع السفينة ، فجاء بالأخشاب والمسامير ، وبدأ العمل إما بإلهام من الله ، أو بوحي عن طريق جبريل – عليه السلام – ، فسخر منه قومه ، فكلما مر عليه ملأ منهم تهكموا به ، فكان يقول لهم سوف نسخر منكم كما تسخرون ، حين يحل عليكم عقاب الله في الدنيا وأما في الآخرة فلكم سوء المصير .

وحين اشتد إيذاؤهم له وللمؤمنين توجه إلى الله قائلاً :

" **رب إني مغلوب فانتصر** " [٢]، فاستجاب الله دعوته ، وأمر السماء

(١) آية ٣٦ / هود .

(٢) من آية ١٠ / القمر .

فكانت أبواباً ينهمر منها المطر ، وأصدر أمره إلى الأرض ، فصارت عيوناً ، يتفجر منها الماء . فالتقى ماء السماء بماء الأرض على أمـــر قدره الله – تعالى – ، وهو هلاك قوم نوح الظالمين .

وأعطى الله لنوح علامة تدله على هلاك الظالمين ، بـــأن يفـــور الماء من الفرن الذي يخبز فيه . فلما رأى نـــوح ذلـــك أمـــر أتباعـــه بالركوب في السفينة ، وحمل معه من كل زوجين اثنين من الحيوانات، والطير ، والوحش ، ليعمروا الأرض بعد هلاك الظالمين .

وتحركت السفينة تجري في أمواج كالجبال من كثرتهـــا وشـــدتها وعلوا ارتفاعها . نادى نوح على ابنه كنعان ليركب معه ، وليكون من المؤمنين ، فعصا الولد أباه ، وتملكه الشيطان واتخذ طريق الهـــالكين . فحاول الأب أن يقنعه بالركوب في السفينة ، فأبي وسار إلى أعلى قمة جبل ، يحتمي بها من الماء .

ثم حال بينهما الموج فكان الولد من المغرقين ، فتوجه نوح إلى الله يدعوه أني يهدي ولده وينجيه من الهلاك ، لأن الله وعده أنه ســـينجيه وأهله ومن معه من المؤمنين . فلما سأل الله – تعالى – قال له يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح .

ومن هنا فالأهلية تكون للإيمان " إنما المؤمنون إخوة " [١] ، ولـــيس لأهلية النسب ، ما دام الولد اتخذ طريق الكفر .

---

(١) من آية ١٣ / الحجرات .

واستغفر نوح على تلك المسألة ، فغفر الله له إنــه هــو الغفــور الرحيم .

وظلت سفينة النجاة سائرة في أمواج تعلو وتضطرب حتى رســت على جبل الجودي بالقرب من مدينة الموصل في العراق .

فأمر الله نوحاً أن يهبط منها ومن معه بسلام وبركات مــن الله – تعالى – وعاش نوح بعد ذلك على أرض قد تطهرت من الظـالمين ، ومن رجس الكافرين ، ونشر دعوته وآمن به الناس .

ثم كانت وفاته – عليه السلام – . وقد أوصى ولده سام بالقيام بالدعوة من بعده . فقام بها خير قيام .

وكان الفصل الرابع : لخليل الرحمن إبراهيم – عليه السلام – ، وضم نسبه ونشأته والبيئة التي وُلد وعاش فيها ، وزواجه من سارة ، ثــم نــزول عليه الرسالة . ودعوة أبيه بالحسنى والموعظة الحسنة ، والترفق به . غير أن الأب تمسك بعبادة الأصنام والأوثان وأصر عليهــا ، وتوعــد إبراهيم وهدده بأن يكف عن دعوته وعن سبّ الآلهة وإلا سيكون مــن المرجومين .

وسوف لا ينال منه شيئاً من الأموال .

فلما رأى سيدنا إبراهيم - عليه السلام - تمسك أباه بعبادته ، شركه ، واستغفر الله له ، حتى يهديه سبيل الرشاد ، ولما علم أنه من الكافرين تبرأ منه .

ثم اتجه إلى دعوة قومه وبدأ بهم سبيل العقل والحكمة ، فوجدهم يعبدون النجوم والكواكب . فأخذهم حين جن الليل ، وخيم الظلام على الكون ورأى نجماً ساطعاً نوره في السماء ، فقال لهم أنتم تعبدون هذا النجم ، لأنه يضيء الكون ويهدي السائرين . وانتظر معهم حتى غاب. فقال لهم يا قوم إن الإله حاضر لا يغيب عن عباده . وهذا الإله قد غاب فلا يصح أن يكون إلهاً .

ثم رأى القمر نوره أوضح وأكثر ضياء من الكوكب . فقال أتعبدون هذا ، هذا ضياؤه أكبر ، ونوره أوضح . فلما أفل وغاب عن الظهور . عاب عليهم أن يعبدوا إلهاً يظهر ويغيب .

ثم رأى الشمس بنورها الوضاح ، وأشعتها الذهبية ، التي تلف الكون بجمالها وبهائها ، وتملأ الكون دفئاً وحرارة وضياء . فقال لهم : انتم تزعمون أن الشمس إله ، فلما غابت ، تبرأ من هذه العبادة . وقال لهم : يا قوم هذا إشراك وإلحاد وإني لا أعبد إلا الله وحده لا شريك له، خالق الكون وما به من نجوم وكواكب .

وأراد أن يبين لهم بالدليل العلمي أن التماثيل التي صنعوها بأيديهم من حجارة ، أو أخشاب ، أو معادن ، ما هي إلا أصنام ، لا تسمع

دعاءهم ، ولا تجيب رجاءهم ، ولا تجلب لهم الخير ، وتــدفع عــنهم الضر كما يظنون . وأنها عاجزة عن حماية نفسها ، ودفع عنها الضر.

فانتهز فرصة ذهاب القوم إلى عيد لهم ، ووضعوا أطعمتهم أمــام الأصنام في معبد لهم ، لتباركها لهم .

والمكان قد خلا من الحراس والرقباء . فــدخل علــيهم المعبــد ، ووجد الأكل أصناماً مرصوصة ، أمامهم . فقال لهم مستهزئاً بهم : ما لكم لا تأكلون ؟!. وبالطبع لم يردوا . فزاد في سخريته لهم قائلاً : مــا لكم لا تنطقون . ثم هوى بفاس عليها فحطمها جميعاً ، وجعلها جذاذاً ، قطعاً صغيرة متناثرة في المعبد ، وترك صنماً كبيراً علق فــي عنقــه الفأس ، ليكون ذلك دليلاً على قلة عقولهم ، وضعف تفكيرهم .

فلما حضروا ووجدوا آلهتهم على تلك الصورة أُصيبوا بفزع شديد، وهول عجيب . وتساءلوا فيما بينهم : مَنْ الذي فعل هذا بالآلهة ، إنــه إنسان ظالم .

فسمعوا صوتاً مدوياً من جنبات المعبد : سمعنا فتاً يذكرهم بالسوء يقال له إبراهيم ، فأتوا به على أعين الناس ، لعلهم يشهدون محاكمته .

فلما حضر إبراهيم وسألوه فقال لهم : اسألوا كبيرهم هذا الذي علق في رقبته الفأس ، لعله يخبركم ، أو اسألوا الأصنام لعلها تجيب .

وتمت المحاكمة الظالمة بـإحراق إبـراهيم ، وجمعـوا الحطـب وأشعلوا فيها النار حتى تأججت ، ولمتد لهيبها إلـى السـماء ، فـألقوا إبراهيم فيها ، وظنوا أنهم قد تخلصوا منه ، ولكـن عنايـة الـرحمن بخليله، تحفظه وترعاه من كل سوء ومكروه ، فأصدر الله أمره للنار ، أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم .

وخرج خليل الرحمن من النار بعد ما يقرب من خمسـين يومـاً ، ولم تصبه النار بسوء ، وأن الذي فعلته أنها أحرقت الحبال التي أوثقوه بها .

ولما رآه الناس وعلى رأسهم الملك الجبار : النمرود بن كنعـان ، اسلم كثير منهم سراً ، خوفاً من بطش الملك .

ثم اتجه إبراهيم إلى مناظرة النمرود ودعاه إلى عبادة الله ، وحـده لا شريك ، والتخلي عما ادعاه زوراً وبهتاناً من إنه إله ، وسخر قومـه أن يعبدوه . فطغى وتجبر ، ولن تنفع معـه الآيـات والنـذر . فقـال لإبراهيم : هل هناك من إله غيري . قال : نعم . رب وربك الله . وهو الذي يحيي ويميت . فقال النمرود : أنا أحي وأميت ، وجاء برجلين قد استحقا القتل ، فأطلق سراح واحد ، وقتل الآخر .

وقال بذلك أكون أحييت وأمت .

فقال له : إبراهيم إن الله يجعل الشمس تشرق من جهة الشـرق ، فاجعلها أنت تشرق من جهة الغرب إن كنت إلهاً حقاً .

فلم يستطع أن يجب . وقامت عليه الحجة .

ولما قامت الحجة على النمرود ، وعجز عن دفعها ، آمن كثير من أتباعه ، فدبر مؤامرة للتخلص من إبراهيم ، فأوحى الله إليه أن يهاجر، فهاجر إلى فلسطين ، ودعا أهلها إلى الإسلام ، ثم هاجر إلى مصر . وفيها حفظه الله وزوجه من كيد فرعونها ، وَمن نفسه الأمارة بالسوء . حين سولت له نفسه أن يمس سارة . فعلم فرعون أن سارة مؤيدة بقوة من عند الله ، فأخدمها هاجر ، وتركها .

وقضى إبراهيم وزوجه في مصر حيناً من الزمن ، ثم عاد إلى فلسطين .

ولما بلغ السادسة والثمانين من عمره ، انحنى ظهره ، وابيض شعره ، واشتد حنينه للإنجاب ، فوهبت له سارة جاريتها هاجر ، فتزوجها ، ثم رزقه الله منها بإسماعيل أبو العرب جميعاً .

وضاقت سارة زرعا بالطفل وأمه ، فصارحت إبراهيم بذلك . فتحير في الأمر ، فأوحى الله إليه أن نفذ طلب سارة . فأخذ ولده وزوجه ووضعهما في مكان قريب عند بيت الله الحرام ، وأقام لهما عريشاً وترك لهما بعض الزاد والماء.

نفذ الماء وعطش الصبي ، فبحثت له أمه عن ماء على جبلي الصفا والمزوة ، فلا جدوى ، ثم عادت إلى ولدها فوجدت الماء نبع من بين أصابعه ، ففرحت وسرت وشرب الولد وشربت . ثم سكن القوم

الوادي ، ودبت الحياة ، وانتشر العمران ، وتزوج إسماعيل من قبيلة جُرْهم ، وتعلم منهم العربية .

وذهب إبراهيم لزيارة ولده ، ولم يجده ، ووجد في زوجة ولده صفات لا تؤهلها لكي تكون زوجة صالحة ، فطلب منه أن يطلقها ، فتزوج غيرها ، وكانت صالحة ، أسرت والده عندما ذهب لزيارته ، فطلب منها أن تبلغ زوجها قد استقامت عتبة دارك .

وقد رزقه الله منها باثني عشر ولدا ذكراً .

ثم بنى إبراهيم البيت الحرام ورفع قواعده وشيده ، وأذن للناس في الحج ، وجعل الله القلوب تهوى هذا المكان .

وابتلى الله إبراهيم بكلمات وضُحت وشرحت ، ثم ابتلاه بذبح ولده إسماعيل ، فامتثل لأمر الله ، وحاول الشيطان أن يصرفه عن أمر الله ، فنهره وزجره ورماه بحصيات . ثم فدى الله الولد بذبح عظيم ، وصارت من يومها سنة .

وتطرق الحديث بعد ذلك عن صحف إبراهيم ، وكانت فيها أوامره ونواهيه التي يبلغها للناس .

وفي النهاية كانت الوفاة ، وهي نهاية كل كائن حي . وأوصى إبراهيم ولده إسماعيل قبل الوفاة بأن يقوم بالدعوة من بعده . فقام بها على أكمل وجه . وكان من نسله سيدنا محمد - ﷺ - .

وجاء الفصل الخامس : والأخير عن كليم الله موسى – عليه السلام – وتناول نسبه وصفاته الجسدية ، وسبب تعذيب فرعون لبني إسرائيل ، ووصف مولده وخبره مع أمه ماذا تفعل وقد أصدر فرعون أمره بذبح المواليد الذكور في العام الذي وضعت فيه موسى ، فأوحى الله إليها أن تضعه في صندوق ، وتلقيه في النيل ، فرسي في أعشاب أمام قصر فرعون ، فأخذته جواري القصر وصعدن به وفتحنه أمام آسية امرأة فرعون ، فألقى الله عليها محبته ، فخلصته من يد الذباحين ، وطلبت من فرعون أن يهبه لها فوافق . وأحضرت المرضعات لإرضاعه ، ولم يرضع إلا من ثدي أمه ، وعادت به إلى بيتها . ولما تم رضاعته عاد إلى قصر فرعون .

وهناك أحضروا أمره المعلمين والمربين ، فتعلم علم الحساب ، والهندسة ، والكيمياء ، والفلك .. وغيرها من العلوم .

وصار موسى شاباً قوياً ، ملأ السمع والبصر ، وصارت له كلمة مسموعة بين رجال القصر ، وقواد فرعون ، فمال إلى بني إسرائيل ، وشعر بما هم فيه من ذل وهوان ، فمالت نفسه إلى إنصافهم ، فكان يتدخل لنصرة قضاياهم .

ومرة دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد رجلين أحدهما مصري والآخر إسرائيلي ، والمصري يريد أن يبطش بالإسرائيلي ، فاستغاث بموسى ، فتقدم لنصرته . وفض الاشتباك بضربة يد قوية ،

سددها إلى المصري فمات من ساعته . فحزن موسى على فعلته ونـدم واستغفر وأناب .

وفي اليوم التالي رأى نفس الإسرائيلي يتشاجر مع مصري ، فاستغاث الإسرائيلي بموسى ، فتقدم لنصرته ، فخاف الإسرائيلي أن يكون قاصده هو فقال له " **يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس** " . سمع المصري ذلك فأخبر قومه وفرعون فأصدر أمراً بالقبض عليه وقتله قصاصاً .

كان موسى خائفاً يترقب الأخبار ، وإذا برجل مؤمن من آل فرعون يأتيه من أقصى المدينة يسعى يخبره بقرار فرعون ، ويطلب منه ترك مصر ، والفرار منها نجاة لنفسه .

فخرج موسى بدون استعداد متوجهاً إلى أرض مدين . وهناك وجد الأمن والأمان ، وتزوج من إحدى بنات شعيب ، وعاش معه سنين عددا ، ثم عاد إلى مصر .

وعلى جبل الطور بسيناء أوحى الله إليه وكلفه بالرسالة ، وأمره أن يدعو فرعون وقومه إلى عبادة الله – تعالى – . فطلب موسى من الله أن يشرك معه أخاه هارون في الرسالة ، ليعينه ويساعده ، ولاسيما وأنه يملك فصاحة الكلمة وقوة الحجة . فجعله الله نبياً مع موسى إلى بني إسرائيل .

وتوجها موسى وهارون – عليهما السلام – إلى فرعون ، ودعوه إلى توحيد الله ، وأن يترك بني إسرائيل يدخلون في الدعوة ، وأراد موسى معجزة العصا واليد ، لعله يتعظ ويعتبر ويصدق أن ما جاء به حق من عند الله – تعالى – .

لكنه أضله هواه ، فجمع السحرة من مدائن مصر ، ليبطلوا سحر موسى – كما زعم – ، ولكنهم أمام جلال الحق وسلطانه ، خروا لله سجداً ، ودخلوا في الدين . ولم يهتموا بتهديد ووعيد فرعون . وآمن معهم عدد من آل فرعون سرا .

وأمام هذا النصر العظيم الذي حققه الله لموسى والمؤمنين ، رأى فرعون أن يقتل موسى حفاظاً على ملكه وسلطانه .

فأوحى الله إلى موسى أن يخرج ومعه قومه المؤمنين ، فخرج ليلا، وجد في السير ، ولما أصبح الصباح ووجد فرعون المدينة خالية منهم . أمر بخروج الجيش في أثرهم ، وسار وراءهم سريعاً حتى يعود بهم .

ووصل فرعون وجنده في اليوم الثاني فوجدوا موسى وقومه أمام شاطئ البحر الأحمر ، وتراءى الجمعان وشعر قوم موسى بالخوف ، فالبحر من أمامهم والعدو من خلفهم . فطمأنهم بأن الله معه يهديه إلى طريق النجاة .

فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بالعصا ، فأنفلق المــاء نصــفين وصار بينهما طريقاً يبسا ، سلكه موسى وقومه إلى أرض سيناء .

ولما كانوا في الشاطئ الآخر ، والطريق ما زال على حاله . قال فرعون لقومه : إن البحر انفلق طرِيقاً لي ، لأحضر أعدائي المــارقين إلى سلطاني .

وأراد موسى أن يضرب البحر ليعود كما كــان ، فــأمره الله أن يتركه على حاله ، فسار فرعون عليه وتبعه جنده ، وعندما كانوا فــي وسط الماء ، أمر الله موسى أن يضرب البحر بالِعصا ، فصار الطريق بحراً ، وأغرق فرعون وجنده .

وهذه نهاية كل ظالم جبار ، يبغي في الأرض الفساد .

وسار موسى بقومه متجهاً إلى الأرض المقدسة إلى بيت المقــدس بفلسطين ، فرأى قومه أناساً يعبدون العجل . فقالوا يا موسى أجعل لنــا إلهاً كما لهم آلهة ، فوبخهم موسى وذكرهم بنعم الله عليهم .

وأوحى الله إلى موسى أن يذهب إلى ميقات ربه على جبل الطور وحده ، ويمكث هناك ثلاثين ليله ، لتصفوا نفسه ، وتكون مؤهلة لنزول التوراة عليه .

فقضى موسى المدة صائماً ، وأخذ عودا من شجرة فمدغه ، ليغير رائحة فمه من أثر الصيام . فأمره الله أن لا يفعل لأن رائحة فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك الفواح ، وأمره أن يعود بعشرة أيام .

وحين بلغ الميقات أربعين ليلة ، أنزل الله عليه التوراة ، فيها هدى ونورا وتفصيل كل شيء . وأمره أن ينفذ ما فيها هو وقومه .

وفي أثناء غياب موسى عن قومه عبدوا العجل ، وضلوا العبادة ، وحاول هارون أن يبعدهم عن ذلك فلم يسمعوا كلامه ولم يقدر عليهم .

وأخبر الله موسى وهو يكلمه أن قومه قد ضلوا وأن الذي أضلهم رجل منهم يسمى موسى السامري ، فصنع لهم عجلاً من ذهب ، أو سرق ذهبهم وأتى لهم بعجل حيوان وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى الذي ذهب إليه ونسى وتركه هنا . فعبدوه .

فرجع موسى غضبان آسفاً على ما أصاب قومه من تدهور في العبادة ، ووجه اللوم إلى هارون ، ثم أحرق العجل وزر رماده في ماء البحر ، وندم بنو إسرائيل على ذلك فأمرهم حتى يتوب الله عليهم أن يقتلوا أنفسهم ، فقتلوا منهم ٧٠ ألفاً ، ثم تاب الله عليهم .

ووقعت جريمة قتل في بني إسرائيل ولم يُعرف الجاني ، ذهبوا إلى موسى ، ليسأل ربه ، فأمرهم أن يذبحوا بقرة – أي بقرة ، ويضربوا بعض أجزائها ببعض ، فيقوم القتيل ويخبر عن قاتله . فلم يصدقوا موسى وحسبوا أنه يهزأ بهم . فلما أخبرهم بصدق ما يقول .

طلبوا منه أن يسأل ربه عن مواصفات ولون وتحديد سن البقرة ، واللون أهو زاهي أم باهت ؟. كل ذلك مراراً وتكراراً ، فتشددوا فشدد الله عليهم .

ثم كان الحديث عن قارون رجل الأموال والثروات العظيمة ، ومع ذلك بخل أن يعطي الفقراء منها ويخرج زكاته في مصايفها ، ونصحه الناصحون ، فلم يستمع إليهم ، وبغى وتكبر على الناس وقال إنما حصلت على المال بعلمي وخبرتي .

فكان جزاؤه أن خسف الله به وبداره وبأمواله الأرض ، وصار عبرة لأصحاب الثروات الذي يمنعون حق الفقراء منها ويتكبرون على الناس بما أتاهم الله من فضله .

ولما كان موسى – عليه السلام – يظن أنه العالم الوحيد في زمانه ، وعبر هو عن ذلك صراحة حين سأله سائل بعد إلقائه موعظة مؤثرة في بني إسرائيل .

هل يوجد من هو أعلم منك ؟.

فقال موسى : لا . فعاتبه الله – تعالى – لأنه لم يرجع العلم لله وحده . وأمره أن يذهب إلى مجمع البحرين (الأحمر ، والأبيض المتوسط) عند السويس ، ليرى الخضر – عليه السلام – ويصاحبه ليتعلم منه العلم . فيصحبه موسى ويرى منه العجب العجاب .

وبذلك فمهما أوتي العالم من علم ، فهناك من هو أعلم منه " **وفوق كل ذي علم عليم** " [١] " **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** " [٢] .

ثم كانت وفاة موسى وهارون – عليهما السلام – بعد جهاد طويل، وكفاح مرير مع بني إسرائيل .

وبهذا ينتهي الجزء الأول من تاريخ الأنبيـاء – علـيهم الصـلاة والسلام – ويليه إن شاء الله – تعالى – وبعونه وقوته باقي الأجزاء .

أدعو الله – تعالى – أن يمنحني القوة والجد والمثابرة والصـبر ، وطول البال على مواصلة الكتابة ، وأن يجنبنا الـذلل والخطـأ ، وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجازيني به خيراً ، إنـه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

وأرجوا من القارئ الكريم إسداء النصح والتوجيه فيما يكون قـد وقعت فيه من خطأ أو نسيان والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ... وعلى الله قصد السبيل . والحمد لله أولاً وأخيراً . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ديرب نجم شرقية في | رمضان المعظم ١٤٢٥هـ / نوفمبر ٢٠٠٤م | **دكتور / السيد محمد يونس**

---

(١) من آية ٧٦ / يوسف .

(٢) من آية ٨٥ / الإسراء .

الفصل الأول

النبوة والرسالة

- النبوة والرسالة منحة من الله .
- حاجة الناس إلى الرسالة .
- عدد الأنبياء والرسل وحكم الإيمان بهم .
- الفرق بين النبي والرسول .
- التفاضل بين الأنبياء .
- مهمة الرسل .
- صفات الرسل .
- شبهات حول عصمة الأنبياء .

الفصل الأول

النبوة والرسالة

النبوة هي منحة وعطية من الله – سبحانه وتعالى – إلى بعض الناس ، يصطفيهم من خلقه ، ليكونوا سفراء بينه وبينهم ، ويبلغوا أوامره لهم ، ويبشرونهم بالنعيم المقيم إن اتبعوا منهج الله ، وسلكوا الطريق المستقيم ، وينذرونهم بالعذاب الشديد ، إن خالفوه ، وضلوا أنفسهم ، وأضلوا غيرهم .

فالنبوة إذن هي فضل إلهي ، وهبة ربانية ، يهبها الله لمن يشاء من عباده ، ويختص لها من يريد من خلقه . وهي لا تدرك بالجد والتعب ، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة ، بل هي بمحض الفضل الإلهي [١].

يقول الشيخ البيجوري : " فالذي ذهب إليه المسلمون أن النبوة خصوصية من الله – تعالى – لا يبلغ العبد أن يكتسبها " [٢] . إذن النبوة هي هبة من الله ونعمة يختص بها من يشاء من عباده " **يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** " [٣] .

ويختار الله – عز وجل – المرسلين من أفضل خلقه ، وصفوة عباده ، ليحملوا رسالته للناس ، ويبلغوها لهم ، قال – تعالى – : " **اللهُ يصطفي من الملائكةِ رُسُلاً وَمِنَ الناس إن الله سميع بصير** " [٤]. وقوله – جل شأنه –:" **إن اللهَ اصطفى آدمَ ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمرانَ على العالمينَ ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** " [٥] .

---

(١) الشيخ إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري على الجوهرة ، ص:١٤٧، ١٤٨طبعة المطابع الأميرية القاهرة سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

(٢) السابق ، ص:١٤٧ .

(٣) آية ١٠٥ / البقرة .

(٤) آية ٧٥ / الحج .

(٥) آية ٣٣، ٣٤ / آل عمران .

حاجة الناس إلى الرسل :

الناس محتاجون إلى الرسل ، ليبلغوهم أوامر الله – سبحانه – ونهيه ، ووعده ووعيده لهم ، ويبينوا لهم ما يحتاجون إليه من أمور الدين . وذلك حتى لا يكون لهم عذر ولا حجة يحتجون بها عند الله . قال – تعالى – : " رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ " (١) . وقال – جل شأنه : " وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى "(٢) وقال – جل في علاه – :" إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ " (٣) . وقول الحق – تبارك اسمه –:" وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وهم لا يظلمون " (٤) .

كما أن العقل البشري قاصر عن إدراك الحقائق ولا يستطيع أن يعرف أمور دينه بنفسه ، وأنه قد يستحسن الشيء في وقت ، ثم يستقبحه في وقت آخر . لذا كان لابد من إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم إلى الطريق المستقيم ، والأخذ بأيديهم إلى النجاة والفلاح .

عدد الرسل = عليهم الصلاة والسلام :ـ

عدد الأنبياء لا يحصيه إلا الله – تعالى – وقد روي الإمام أحمد عن أبي ذري الغفاري – ﷺ – أن رسول الله – ﷺ – حين سُئل عن عدد الأنبياء : فقال : هم مائة وعشرون ألفاً ، منهم ثلثمائة وخمسة عشر من الرسل (٥) .

---

(١) آية ١٦٥/ النساء .
(٢) آية ١٣٤ / طه .
(٣) آية ٢٤ / فاطر .
(٤) آية ٤٨/ يونس .
(٥) الإمام أحمد : في مسنده .

وذكر القرآن الكريم منهم خمسة وعشرين رسولاً ، ثمانية عشر مذكورين في سورة الأنعام في آية "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ " (١) .

وأما السبعة الباقين فهم مذكورين في الآيات الآتية :-

قال – تعالى- : " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ " (٢) وقوله – سبحانه -: " وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا "(٣). "وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا "(٤). "وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا"(٥). وقول الحق – تبارك اسمه-: "وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ، وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ "(٦). " مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ "(٧).

وقد نظمهم بعض العلماء شعراً فقال :

حتم على كل ذي التكليف معرفة ... بأنبياء على التفصيل قد علموا

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

---

(١) آية ٨٣-٨٦ / الأنعام .
(٢) آية ٣٣/آل عمران .
(٣) آية ٦٥ / الأعراف .
(٤) آية ٨٤ / هود .
(٥) آية ٦١ / هود .
(٦) آية ٨٥ ، ٨٦ / الأنبياء .
(٧) آية ٤٠ / الأحزاب .

ويجب على كل مسلم الإيمان بأنبياء الله ورسله إجمالا وتفصيلاً . "وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ " [١] . وكذلك يجب الإيمان بكتبهم ، وأنها منزلة من عند الله – تعالى – أما الكتب التي ورد إلينا ذكرها هي : الزابور الذي نزل على نبي الله داود – عليه السلام – ، والتوراه الذي نزل على سيدنا موسى – عليه السلام – ، والإنجيل الذي نزل على سيدنا عيسى – عليه السلام – ، والقرآن الكريم الذي نزل على سيدنا محمد – ﷺ .

قال الله – تعالى – :" آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ " [٢].

ومن الأنبياء خمسة عُرفوا بأولى العزم وهم : سيدنا محمد وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ونوح . وسموا بذلك لأنهم صبروا على أذى قومهم ، وتحملوا المشاق والمتاعب وتكذيب قومهم . قال الله – تعالى – : لنبيه وحبيبه ومصطفاه محمد – ﷺ – :"فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ"[٣].

ولذا وجب الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله ، لأنه ركن من الدين ، فمن أنكر رسالة واحد منهم فقد كفر – والعياذ بالله – .

الفرق بين النبي والرسول :

قال العلماء إن النبي هو من أوحى الله إليه بشرع سواء أمر بتبليغه أم لا . والرسول هو من أوحى الله إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فالنبي أعم .

والرسول هو من له كتاب بشريعة جديدة ، أو نسخ بعض من شريعة من قبله . والنبي من أيد شريعة من كان قبله .

---

(١) آية ١٦٤ / النساء .
(٢) آية ٢٨٥ / البقرة .
(٣) آية ٣٥ / الأحقاف .

والوحي للرسول بواسطة جبريل – عليه السلام – ، أما الوحي للنبـــي فهـــو بسماع صوت ، أو رؤية في المنام .

التفاضل بين الأنبياء :

أنبياء الله – تعالى – ليسوا في درجة واحدة من الفضل والمكانة ، بل فضل بعضهم على بعض ، وجعلهم الله – تعالى – درجات . يقـــول الله – تعـــالى– :" تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّـــمَ اللهُ وَرَفَـــعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ " [١]. ويقول – تبارك اسمه– :"وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً "[٢] .

وأفضل أنبياء الله ورسله سيدنا محمد – ﷺ – ، فهو خـــاتم النبيـــين ، وأفضلهم في المنزلة والمرتبة . كما أيده الله – تعالى – بالقرآن الكـــريم ، وجعله آخر الكتب السماوية المنزلة ، وهو أشرفها وأفضلها .

وقد وضح رسول الله – ﷺ – علو منزلته التي أعطاها الله له في الدنيا والآخرة بقوله :" أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمـــد ولا فخر ، وما من بني ، آدم ، فمن سواه ، إلا تحت لوائي ولا فخر ، وأنا أول شافع وأفضل مشفع ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة ، فيـــدخلنيها الله ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على ربي ولا فخر "[٣] .

وبين القاضي عياض أفضلية الرسول – ﷺ – على ســـائر الرســـل – رضوان الله عليهم – ، إلى أنه أشرفهم وأفضلهم ، وذلك لأن الله – تعالى – قد خاطب الرسل وناداهم بأسمائهم في القرآن الكريم . فقال : " يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ

(١) آية ٢٥٣ / البقرة .

(٢) آية ٥٥ / الإسراء .

(٣) رواه الترمذي .

صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " [١]. و " يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ " [٢]. و " يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ " [٣] " وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ . قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ " [٤] .

وهكذا مع بقية الأنبياء . أما حين يخاطب سيدنا محمد – ﷺ – فإنه ناداه بوصف النبوة أو الرسالة ، إظهاراً لعظيم قدره ، وجلال فضله . فقال تبارك اسمه : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً " [٥]. و" يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " [٦]. " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ " [٧] .و" يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ " [٨].

وإننا لا نجد آية في كتاب الله – عز وجل – فيها خطاب للرسول – ﷺ – باسمه الصريح ، وإنما كل الآيات الكريمة تخاطبه بلفظ النبوة أو الرسالة . وهذا من ألطف الإشارات إلى عظم قدره – ﷺ – ، وإلى أنه أفضل الرسل على الإطلاق [٩] .

---

(١) آية ١٠٥ / الصافات .
(٢) آية ٤٨ / هود .
(٣) آية ١٤٤/ الأعراف .
(٤) آية ١١٦ / المائدة .
(٥) آية ٤٥ – ٤٦ / الأحزاب .
(٦) آية ٦٤ / الأنفال .
(٧) آية ٦٧ / المائدة .
(٨) آية ٤١ / المائدة .
(٩) القاضي عياض : الشفا في حقوق المصطفى ج١/٦٢ تحقيق علي محمد البجاوي طبعة الحلبي – القاهرة .

ومن ذلك وضح أفضلية سيد الخلق، وحبيب الحق سيدنا محمد - ﷺ - على جميع الرسل . أما الآية الكريمة التي تقول " لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ "(١). أن المراد بالتفريق بين الرسل ، هو أن يؤمن الإنسان ببعض الرسل ويكفر ببعض ، كما فعل اليهود والنصارى آمنوا برسالة بعض الأنبياء ، وكفروا برسالة الآخرين . ففرقوا بين الرسل (٢) . قال الله - تعالى-:" إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا "(٣).

مهمة الرسل :

١- دعوة قومهم إلى توحيد الله ، والانفراد بعبادته وحده ، وترك ما يعبدون سواه . وهي مهمة أساسية بُعث من أجلها الرسل .

٢- الإيمان بالأنبياء والرسل من غير تفريق بين أحدهم ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر وجزاء وجنة ونار .

٣- الترغيب في طاعة الله - عز وجل - والترهيب من عصيانه .

٤- الحث على التحلي بالفضائل ، وترك الرذائل .

٥- هداية الناس وإرشادهم إلى الطريق المستقيم ، وإقامة العدل بينهم .

٦- وضع القوانين والضوابط التي تنظم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان وبالمجتمع الذي يعيش فيه ، وبين الإنسان ونفسه.

٧- تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية .

(١) من آية ٢٨٥ / البقرة .

(٢) القرطبي : في تفسيره ج١٣٤٦/٢.

(٣) آية ١٥٠ ، ١٥١ / النساء .

صفات الرسل :

الرسل هم سفراء الله – تعالى – إلى خلقه ، ليبلغوهم أوامره ونواهيه ، ويرشدونهم إلى الطريق المستقيم ، ولهذا فقد اختارهم الله – تعالى – من أكمل البشر خلقاً ، وأفضلهم علماً ، وأشرفهم نسباً ، وأعظمهم أمانة ، وأن يحفظهم بعنايته ، ويكلأهم برعايته ، ويربيهم على عينه . مبرئين من كل عيب ونقص أو مرض يَنفر الناس منهم . لأنهم مأمورين بمقابلة الناس ودعوتهم إلى طريق الهدى والرشاد ، فلو كان بهم عيب أو مرض منفر ، لانصرف الناس عنهم ، ولم يستمعوا لقولهم .

ولذا فقد كانوا متصفين بصفات خَلْقيّة (جسدية) ، وهي كل كمال بشري يليق بهم ، وصفات خُلقية ومن أهمها :

١ـ **الصدق** : وهو مطابقة الخبر للواقع [1] . وصفه الصدق ملازمة للنبوة ، فلا يمكن لنبي أن يصدر منه ما يخل بالمروءة كالكذب ، والخيانة ، وأكل أموال الناس بالباطل ... وغيرها . لأن هذه الصفات لا تليق برجل عادي ، فكيف بنبي مقرب ، أو رسول مكرم ؟! . فلو جاز وقوع الكذب من الأنبياء ، لانعدمت الثقة بينهم وبين قومهم ، ولما صدقوهم فيما يروونه عن الله ، أو ينقلونه من أخبار الوحي .

فالله – سبحانه وتعالى – قد حفظ جميع أنبيائه من الكذب ، وأجرى الصدق على ألسنتهم ، فكانوا صادقين في أقوالهم ، وأفعالهم ، والكذب في حقهم نقص ، وهو محال في حقهم .

٢ـ **الأمانة** : وهي حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه ، ولو نهى كراهة . فأنبياء الله – تعالى – محفوظون ظاهراً من كل ما يغضب الله من شرب الخمر ، والزنا والكذب .. ونحو ذلك من منهيات الظاهر.

(1) الشيخ إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري على الجوهرة ، ص:١٣٨ .

ومحفوظون باطناً من الحسد ، والكبر ، والرياء .. وغير ذلك من منهيات الباطن [١] .

ولذا وجب أن يكون النبي أميناً فيما يبلغه عن ربه من أوامر ونواهي دون زيادة أو نقصان . وجميع الأنبياء مؤتمنون على الوحي يبلغون أوامر الله كما نزلت عليهم ، لا يمكن أن يخونوا أو يخفوا ما أمرهم الله به لأن خيانة الأمانة نقص ، وهم مبرأون من كل نقص . يقول الله – تعالى – : " الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً " [٢] .

٣- **التبليغ** : ويقصد بها تبليغ الرسل جميع ما أمرهم الله – تعالى – بتبليغه للعباد من غير زيادة أو نقصان أو تبديل .

وقد وجبت هذه الصفة لجميع الأنبياء ، فقد بلغوا جميع ما نزل عليهم من الوحي للناس ، دون زيادة حرف أو نقصان حرف . ومن لم يفعل ذلك منهم ، يكون قد خالف أمر الله ، وخان الأمانة التي عهدت إليه .

والغرض من التبليغ أن يقطع الله الحجة على الناس ، ولئلا يبقى لأحد عذر يوم القيامة ، فإن الله – تعالى – أكرم من أن يعذب إنساناً قبل أن يبلغه الرسالة ، وارحم من أن يعذبه بدون ذنب . يقول الله – تعالى – :" وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً " [٣] وقوله – تعالى – :" وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ " [٤] .

٤- **الفطانة** : وهي الذكاء ، ورجاحة العقل ، وحسن البديهة . وهي من الصفات الواجبة للرسل ، حتى يمكنهم أن يدافعوا عن دعوتهم ، بإقامة

(١) الشيخ إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري على الجوهرة ، ص:١٣٨ .
(٢) آية ٣٩ / الأحزاب .
(٣) آية ١٥ / الإسراء .
(٤) من آية ٥٩ / القصص .

الحجج والبراهين عليها ، ورد شبه الخصوم بما يقنعهم ويردهم إلى الصواب [١] . يقول الله – سبحانه وتعالى – : " وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ "[٢] . وقال – تعالى –: "يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا " [٣] . وقال – سبحانه – :" وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "[٤].

وقد كان جميع الأنبياء والرسل على درجة عالية من الذكاء الخارق ، والعقل الراشد ، والفطنة والنباهة .

٥- **العصمة** : وهي حفظ الله لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي، وارتكاب المنكرات والمحرمات [٥]. وسميت بذلك لأنها تمنع من ارتكاب المعصية .

وقد وجبت العصمة لأنبياء الله ورسله ، لأنهم القدوة والمثل الأعلى الذي يحتذى في كل شيء . فلوجاز وقوعهم في المعصية ، لأصبحت مشروعة ، لأننا مأمورين بالتأسي والإقتداء بهم . وهذا أمر مستحيل . ولذا فقد عصمهم الله من الوقوع في المعاصي والذنوب ، صغيرها وكبيرها . وقد أكرمهم الله بالعصمة ، وميزهم بها عن سائر البشر ، وجعلهم أئمة الدين والدنيا ، وحملهم لواء الدعوة والهداية للعالمين ، يقول الله – تعالى –: " وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ "[٦] .

---

(١) الباجوري : في شرحه على الجوهرة ، ص:١٤٠ .

(٢) آية ٨٣/ الأنعام .

(٣) آية ٣٢ / هود .

(٤) من آية ١٢٥ / النحل .

(٥) الشيخ إبراهيم الباجوري : شرح البيجوري على الجوهرة ، ص:١٥٦ ، محمد على الصابوني : النبوة والأنبياء ، ص:٥٠ .

(٦) آية ٧٣ / الأنبياء .

وقد دلت الآيات القرآنية الكريمة على عصمة الأنبياء ، وأقـر بـذلك المنطق السليم ، إذ كيف يأمر الله – عز وجل – البشر بأتباعهم والإقتـداء بهم ، والسير على نهجهم إن لم يكونوا مثلاً للكمال ، ونموذجـاً للفضـل ، والنبل ، والطهر . ولو لم تكن العصمة من صفاتهم لما كنا مكلفين بإتباعهم في جميع الأفعال والأعمال .

شبهات حول عصمة الأنبياء :

جاء في بعض آيات الذكر الحكيم ما يـدل ظاهرهـا علـى وقـوع المعاصي والمخالفات من بعض الأنبياء – عليهم الصلاة والسـلام – مثـل قول الله – تعالى – : " **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** " (١) . وقول الله – سبحانه – في حق نوح – عليه السلام – : " **إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** "(٢) . وقـول الحق – جل في علاه – لسيدنا محمد – ﷺ –: "**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** "(٣) .

فهذه الآيات ورد فيها الوقوع في المعصية ، لكنها محمولة على أنهـا ليست معصية ، وأنها وقعت عن طريق الخطأ في الاجتهاد ، أو النسـيان ، أو كانت قبل النبوة .

ومعصية أبينا آدم – عليه السلام – أنه أكلا من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها . فأكل ناسياً بدليل قوله الله – تعالى – :" **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً** " (٤) . والنسيان يرفع الإثم عن الفاعل لقول الرسول – ﷺ – : " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه "(٥) .

وقيل : إن آدم – عليه السلام – لما نهى عن الأكل من الشجرة بقـول الله – تعالى –: " **وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** " (٦) . ظن أن المراد عين الشجرة نفسها،

(١) آية ١٢١ / طه .
(٢) من آية ٤٦ / هود .
(٣) من آية ٢/الفتح .
(٤) آية ١١٥/ طه .
(٥) حديث شريف .
(٦) آية ٣٥ / البقرة .

لا جنسها ، فأكل من شجرة أخرى من جنسها ، فخالف الأمر ، لا عن سابق تعمد وإصرار على المخالفة [١] .

وتاب آدم من عصيانه واستغفر ربه ، فتاب عليه ثم اجتباه ، اصطفاه نبياً ورسولاً للبشر ، وهداه إلى الطريق المستقيم . يقول الله – سبحانه وتعالى – :" ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ "[٢] .

وأما بالنسبة إلى سيدنا نوح – عليه السلام – ، فإنه لم يرتكب معصية أو إثماً، وإنما دعا الله أن ينجي ولده ، وأخذته عاطفة الأبوية بكونه بشراً وأباً رحيماً، فطلب من الله أن يلهم ولده الإيمان ، لينجو من الغرق . فأخبره الله – سبحانه – بأنه قد سبقت له الشقاوة ، وأنه من الهالكين . قال – تعالى –: " وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ "[٣] .

أي يا نوح إن ولدك هذا الذي ترجو نجاته ، ليس من أهلك الذين وعدت لهم النجاة ، لأنه ليس من المؤمنين .

عند ذلك تبرأ نوح من ولده ، وتاب واستغفر أن يسأل الله ما ليس له به علم .

وأما بالنسبة لسيدنا رسول الله – ﷺ – من حدوث ذنب في قوله – تعالى– :" إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ "[٤] . المراد بالفتح هنا هو صلح الحديبية ، الذي كان بين الرسول – ﷺ – وبين مشركي مكة في سنة ٦هـ /٦٢٧م ، (فإنه حصل بسببه خير كثير ، فقد

(١) القرطبي : في تفسيره ج١/٣٤٨ .
(٢) آية ١٢٢/ طه .
(٣) آية ٤٥ ، ٤٦ / هود .
(٤) آية ١، ٢ / الفتح .

أمن الناس بعضهم بعضاً ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان)[١] ، ولهذا سماه الله فتحاً .

وأما الذنب في الآية فالمراد منه ترك الأفضل والأولى . قال أبو السعود في تفسيره قوله – تعالى – (**ما تقدم ذنبك وما تأخر**)[٢] في جميع ما فرط منك من ترك الأولى . وسميته ذنباً بالنسبة إلى منصبه الجليل – ﷺ– وجاء في التفسير الواضح : والمراد بما تقدم من الذنب وما تأخر ، هو ما فرط من النبي – ﷺ – وهو المعصوم عن معصية ربه – من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه فهو من قبيل (حسنات الأبرار سيئات المقربين) . وقيل المراد ما هو ذنب في نظره العالي ، وإن لم يكن في الواقع كذلك ، ولعل الإضافة في قوله (ذنبك) تشير إلى هذا المعنى [٣].

وغير ذلك من الآيات التي عاتب الله – سبحانه – سيدنا رسول الله – ﷺ – مثل أسرى بدر ، وقوله لزيد أمسك عليك زوجك . وفي قول الله – تعالى – " **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ** "[٤] . إلى جانب كثير من الآيات التي تتحدث عن الأنبياء ، يوسف ، وموسى ، وعيسى ، وأيوب ... وغيرهم ممن لا يتسع المجال للحديث عن بيان العصمة لهم ، وأنهم لم يرتكبوا مخالفة لأمر الله – تعالى – وما اشرنا إليه فيه الكفاية . وسوف نعرض إلى ذلك عند الحديث عن كل نبي – إن شاء الله تعالى – في دراسات قادمة ، لنكمل مسيرة تاريخ الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) ابن كثير : في تفسيره ج١٨٣/٤. وأنظر تفصيل هذا الصلح وبنوده والمكاسب التي حصل عليها المسلمون منه في كتاب الدولة الإسلامية في المدينة المنورة للباحث ، ص:٢٢٣-٢٤٩ .

(٢) د. محمد محمود حجازي : التفسير الواضح ج١٩/٢٦ ، نقلاً عن الشيخ محمد علي الصابوني .

(٣) النبوة والأنبياء ، ص: ٩٤ .

(٤) آية ١ ،٢ / عبس .

الفصل الثاني

(آدم - عليه السلام -)

- خلق الأرض والسموات .
- الجن يعمرون الأرض قبل آدم .
- خلق آدم .
- آدم أبو البشر وفساد نظرية دارون .
- سجود الملائكة لآدم .
- نفخ الروح في آدم .
- خلق حواء .
- موضع الجنة .
- كيف وسوس الشيطان لآدم .
- أكل آدم وحواء من الشجرة .
- خروج آدم من الجنة .
- آدم وحواء يعيشان على الأرض .
- نبوة آدم .
- وفاة آدم .

الفصل الثاني

آدم ـ عليه السلام ـ

خلق الأرض والسماوات :

المعروف أن الأرض كرة معلقة في الفضاء ، ضمن مجموعة أخرى من الكواكب ، تمسكهم قدرة الله – عز وجل – . وهذه الكواكب تدور حول الشمس بقانون الجاذبية . فالأرض مثلاً تدور مرة حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة ، فينتج عن ذلك تعاقب الليل والنهار . ومرة حول الشمس ، كل عام ، فيتعاقب الفصول الأربعة (الصيف ، والخريف ، والشتاء ، والربيع) .

ولما أراد الله – سبحانه وتعالى – أن يخلق الكون ، ويعمر الأرض بالجنس البشري فخلقه في ستة أيام . قال – تعالى – " إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ " (١) ، مع قدرته على خلقه في لمح البصر ، لأنه إذا قال للشيء كُنْ ، فيكون كما أراده في الحال . ليعطينا درساً عملياً على التروي ، والتمهل في أعمالنا ، وعدم التسرع فيها ، حتى نُتقنها ، ونُخرجها على الوجه المرضي .

فخلق الله – تبارك اسمه – الأرض في يومين ، وخلق ما عليها من أقوات ، وأرزاق ، وبحار ، وأنهار ، وحيوان .. وغير ذلك مما تتطلبه الحياة في يومين ، فكانت أربعة أيام . ثم خلق السموات السبع وما فيهن في يومين . يقول المولى – جل في علاه – : " قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ،

(١) من آية ٣ / يونس .

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنيا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ "(١).

وذكر العلماء أن الأرض خلقت في يومي : الأحد والاثنين ، وخلق ما عليها من الأقوات وما تحتاجه طبيعة الحياة عليها في يومي : الثلاثاء والأربعاء . وخلق السموات وما فيهن في يومي الخميس والجمعة . وفي آخر ساعة من يوم الجمعة خلق آدم – عليه السلام – (٢).

والمقصود باليوم : المدة الزمنية التي تساوى من طلوع الشمس إلى طلوعها مرة أخرى في اليوم الثاني ، وهو ما يساوي (٢٤) ساعة الآن . وليس كما قال بعض العلماء من أن مقدار اليوم ألف سنة (٣) لأن الله – تعالى – خاطبنا بالأيام وهي معروفة لنا أنها تساوي أربعا وعشرين ساعة . كما أننا لا نعرف أيام الآخرة ، التي طول اليوم فيها ألف سنة . قال الله – تعالى – :" **في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** "(٤) .

الجن يعمرون الأرض قبل آدم وبنيه :

بعد أن خلق الله الأرض وشق فيها أنهارها ، وأخرج زرعها ، وقدر فيها أقواتها وما يحتاج إليه طبيعة العمران البشري عليها ، عَمَّرَهَا بالجن . فعاشوا في الأرض سنين عددا . قدرها العلماء بألفي سنة (٥). فأكثروا في الأرض فساداً ، وارتكبوا الجرائم والمعاصي ، وسفكوا الدماء . فأنزل الله عليهم وفداً من الملائكة حاربوهم وطاردوهم وألجأوهم إلى الفرار ، إلى البحار ، وإلى رؤوس الجبال (٦) .

(١) آيات ٩ – ١٢ / فصلت .

(٢) القرطبي: في تفسيره ج٩/٦٠٠٩ نشر دار الغد العربي – القاهرة سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٥٨، ٥٩. طبعة دار المعارف – مصر .

(٤) من آية ٥/ السجدة .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٨٣ نشر دار الغد العربي – القاهرة سنة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

(٦) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج١/٧٥ نشر دار التراث العربي – القاهرة .

خلق آدم ـ عليه السلام ـ :

وردت قصة سيدنا آدم – عليه السلام – في القرآن الكريم في سور ومواضع كثيرة منها : البقرة ، الأعراف ، الإسراء ، طه ، الحجر ، فصلت ، الرعد.

ولما أراد الله – عز وجل – أن يخلق آدم – عليه السلام – أمر جبريل – عليه السلام – أن ينزل إلى الأرض فيأخذ قبضة من طين الأرض ، من جميع زواياها الأربع . فلما هَمَّ أن يفعل قالت الأرض مستغيثة به : أعوذ بالله منك أن تأخذ مني شيئاً . فرجع ولم يأخذ منها . وقال لربه – تبارك اسمه – : " يا رب إنها استعاذت فأعذتها " . فبعث الله – تعالى – ميكائيل ، فعاذت منه فأعاذها ، فرجع وسأله الله لماذا رجعت . قال : إنها عاذت بك فأعذتها . فبعث الله عزرائيل – ملك الموت – فعاذت منه . فقال لها . وأنا أعوذ بالله أن ارجع ولم أنفذ أمر الله – تعالى – وأخذ من وجه الأرض وخلط ، ولم يأخذ من موضع واحد . وصعد عزرائيل بما أخذه من الأرض إلى الله – تعالى – فقال له : " أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك " . فقال : رأيت أمرك أوجب من تضرعها [1] .

ولذا فالتراب الذي قبضه عزرائيل – عليه السلام – من الأرض ليس من موضع واحد ، بل من كل الأماكن ، فجاء بنو آدم على صور مختلفة ، وعلى طباع متباينة ، فمنهم الأبيض ، ومنهم الأحمر ، ومنهم الأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك [2] .

ولهذا سمي آدم باسمه ، نسبة إلى أديم الأرض أي وجهها ، وكُني بأبي البشر في الدنيا ، وفي الجنة بأبي محمد – ﷺ – [3] .

---

(١) القرطبي : في تفسير ج١/٣٢٣ .

(٢) ابن كثير : قصص الأنبياء ، ص:٤٦ نشر دار المعرفة – مصر سنة ١٩٩٣م .

(٣) القرطبي : في تفسيره ج١/٣٢٣ .

وأمر الله – سبحانه وتعالى – بالتراب الذي قبضه عزرائيل من الأرض فأنزل عليه الماء ، فَبُلَ حتى صار طيناً لازباً يلتصق بعضه ببعض، ثم خلق الله منه آدم بيده ، وسواه وجعله في أتم صورة ، حتى صار جسداً من طين حقيقي ، ثم نفخ فيه الروح . وهي سر إلهي أودعه الله – تعالى- في جسد الإنسان ، يبقى به مع الأحياء حتى يأذن الله للروح بالخروج فتفارق الجسد فيصير جثة هامدة ، لا حراك فيها " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً " (١) .

فلما غمرت الروح جسد آدم – عليه السلام – صار بشراً سوياً ، له عقل ، وسمع ، وبصر ، وإدراك " فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ " (٢) .

وخلق من آدم جميع ذريته ، فهو أبو البشر على الإطلاق ، وأصل هذا العالم ، وإليه ينتهي جميع سكان الأرض ، وليس قبله مخلوق من النوع البشري . أما من غير البشر ، فقد كان هناك ملائكة قبله ، وكذلك من الجن مخلوقات قبله .

صفات آدم ـ عليه السلام ـ :

كان آدم – عليه السلام – طويلاً ، كثير شعر الرأس والجسد ، أمرد ، أجمل البرية (٣) .

العبرة من خلق آدم :

خلق آدم من تراب ، ثم من طين لازب ، دليل على قدرة الله – عز وجل – ، فهو القادر الذي لا تعجزه قدرة في الأرض ولا في السماء . فخلق آدم بدون أب وأم ، وخلق حواء من أب دون أم ، وخلق عيسى من أم دون أب . فهذا دليل عملي واضح على تمام قدرة القوى القادر – جل في علاه – .

---

(١) آية ٨٥/ الإسراء .

(٢) من آية ١٤ / المؤمنون .

(٣) ابن قتيبة : المعارف ، ص:١٧ تحقيق د. ثروت عكاشة – طبعة دار المعارف – مصر .

وقد أودع الله – تعالى – في آدم وذريته من الأسباب التـــي تجعلهـــم يعمرون الأرض ، ويستخرجون كنوزها وأسرارها ، وهم في عمل دؤوب ، وسعى متصل من أجل رقيهم وتقدمهم ، وخلافة الله في أرضـــه ، ونشـــر الهدي ، والرحمة ، والعدل بين الناس .

آدم أبو البشر وإليه ينتسبون :

خلق الله – تعالى – آدم عليه السلام – فكان أول مخلوق مـــن البشـــر ، ومنـــه انتشر ذريته ، فعمروا الأرض ، منذ أن خلقه الله ، وإلى أن يقـــوم النـــاس لرب العالمين .

وعلى الرغم من وضوح حقيقة آدم – عليه السلام – أبو البشر ، إلا أنه قامت بعض الأصوات المشككة المضللة معلنة أن أصل الإنسان ليس آدم ، وإنما من سلالات أخرى ، وانحدروا من اصل يختلف عن أصـــل آدم . وعلـــى رأس هؤلاء (دارون) – الكاتب اليهودي – الذي جـــاء بنظريـــة عرفـــت بنظرية دارون ، ويهدف من ورائها إلى إنكار وجود الخالق البارئ – جـــل في علاه – ، ويرجع الكون إلى الطبيعة . وأطلـــق علـــى تلـــك النظريـــة (نظرية النشوء والتطور) . وليس غريباً أن يأتي ذلك من هذا اليهودي ، فهذه سجية اليهود في كل زمان ومكان ، فكل دعـــوة للإلحـــاد أو للإفســـاد وراءها يداً يهودية خبيثة .

فهو يعتقد أن اصل الإنسان بدأت حياته بجرثومة صغيرة ، ظهرت على سطح الماء ، ثم تحولت إلى حيوان صغير ، ثم تدرج هذا الحيوان فأصـــبح ضفدعاً ، فسمكة ، فقرداً ، ثم ارتقى القرد وتحدن ، فصار إنســـاناً . وقـــد

استطاع ذلك القرد بعبقريته ونبوغه أن يتطور ويتغير ، فيصبح إنساناً ذكياً ، بعد أن كان قرداً غبياً . فالإنسان في نظر (دارون) قرد متمدن [١].

وهذه النظرية لا أساس لها من الصحة ، ولا يقبلها عقل ، ولا يقرها شرع ، وبعيدة عن المنطق السليم . فالحيوانات بأنواعها المختلفة تعيش على ظهر الأرض ، ويحتفظ كل منها بخواصه المميزة دون أن يطغى نوع على آخر ، أو يسلبه مميزاته .

والقردة التي اكتشف الجيولوجيون هياكلها قبل العصور التاريخية ، هي القردة التي تعيش إلى يومنا هذا . كما أن الهياكل البشرية التي عثر عليها مطمورة في الثلوج ، وأرجعوها إلى مئات السنين ، لا تختلف أبداً عن هياكل البشر في كل العصور والأزمنة .

ومن ذلك نرى أن نظرية دارون ، ومن سار في فلكه من أن أصل الإنسان قرد ، تمدن وارتقى عبر القرون . وَهْمٌ باطل ، وزيف واضح ، لا يمت إلى الحقيقة بصلة . وهي تناقض صريح القرآن الكريم ، وتخالف ما جاء في الكتب السماوية غيره .

وقد انبرى لهذه النظرية كثير من علماء الغرب ، فأبطلوها ، وأرجعوا نشأة الكون إلى الله القوى القادر ، المدبر ، الذي أحاط بكل شيء علماً . وأكدوا أن اصل الإنسان هو آدم – عليه السلام – ، وليس قرداً كما يزعم دارون ورفاقه . ومن ضمن هؤلاء : عالم خالف دارون في نظريته فيقول : (إن القرد إنسان متقهقر ، وليس الإنسان قرداً مترقياً)[٢] .

---

(١) الشيخ محمد علي الصابوني : النبوة والأنبياء ، ص:١١٤ .

(٢) الشيخ عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، ص:٢٩ نشر مكتبة دار التراث – القاهرة .

وكريس موريسون – رئيس المجمع العلمي في أمريكا – قـام بـالرد على دارون بحجج قوية ، فأبطل نظريته في كتاب أسماه : (العالم يـدعو للإيمان)[١] .

وقام مجموعة من كبار علماء الغرب في الطبيعة بالتصـدي للنظريـة السابقة وإبطالها وأودعوا بحوثهم في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية [٢] .

وقد كتب الأستاذ محمد أحمد باشميل كتاباً للرد على دارون وأمثالـه ، أطلق عليه اسم (الإسلام ونظرية دارون) . ضمنه العديد من أراء علمـاء الغرب ونقص النظرية السابقة [٣] .

وقد ناقش الشيخ عبد الوهاب النجار هذا الموضوع مناقشة علمية فقال: (هبوا أن الطبيعة قد غضبت على هذه الأرض فهزتها هزاً عنيفـاً بغيـر شفقه، وزلزلتها زلزالاً شديداً ، فدكت فيها كل بناء شامخ ، وأنهار فيها كل صريح باذخ ، وألحقت القصور بالألواح ، وأزالت معالم الـدنيا ، دورهـا ومصانعها، وقصورها ، وعادت الأرض كما كانت قبل أن يسـكنها هـذا الجيل من بني الإنسان . فهل يتصور أن الغـوريلا والشـمبانزي وسـائر الفصيلة القردية تهب لعمران الأرض ، كما عمرها الإنسان . ويكون فيهـا المصلحون الدينيون ، والمخترعون والمبدعون ، ويقوم فيها أمثال سقراط ، وأفلاطون ، وابن سيناء ، والفارابي ، وابن رشد ... ويقوم بينهم العلمـاء فيرسمون الكرة الأرضية، ويخترعون الآلات الهندسية، ويأتون بالعجـائب

(١) الشيخ محمد علي الصابوني : النبوة والأنبياء ، ص:١١٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص:١١٦ .
(٣) السابق ، ص:١١٦ .

فيوجـــدون الراديو، والتليفزيون ، والطائرات ، والغواصات . ويكشـــفون القارات .. إنني كلما فكرت في ذلك جزمت بأن ذلك محال ، وقطعت بـــأن القرد سيبقى قرداً على مدى الدهر ، وأن القردة لا تلد إلا قردة) [١].

سجود الملائكة لآدم ـ عليه السلام ـ :

عندما أراد الله جلت قدرته ، وتعالت مشيئته خلق آدم ، ليعمر الـــدنيا بالجنس البشري ، أخبر الملائكة بذلك ، فسألوا عن الحكمة في خلقه ، وقـــد خلق الله قبله الجن ، فأثاروا في الأرض الفساد ، وعصوا . فقالوا : أتجعل في الأرض خلقاً يفسد فيها ، ويسفك الدماء . كما فعل الجن من قبـــل . ولا يُخيل لإنسان أن سؤال الملائكة اعتراض على خلق آدم ، بل علـــى ســـبيل الاستفسار فقط ، لأنهم معصومون من مثل ذلك . إذ كيف بهم يعترضـــون على إرادة الله ، وهـــم " **عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ،لاَ يَسْـبِقُونَهُ بِـالْقَوْلِ وَهُـم بِـأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** "[٢]. و " **لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** " [٣] . فما كان من الحق – تبارك اسمه – إلا أن وضح لهم الحكمة في خلق آدم ، ليعمـــر الأرض ، ويخلف الله في إقامة الحق ، والعدل ، وتطبيق شرع الله ، ونشر الهدى ، والرحمة بين الناس .

وهناك كثير من الحكم البالغة التي تغيب عـــن ذهـــن الملائكـــة فـــي استخلاف الله لآدم منها : إن في ذريته خلق عظيم فيهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين . قال تعالى : " **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَـةِ إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَـا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ**

(١) قصص الأنبياء ، ص:٢٩ ، ٣٠ .

(٢) آية ٢٦ ، ٢٧ / الأنبياء .

(٣) آية ٦ / التحريم .

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ " [١] .

ويبين الله – عز وجل – أن آدم جدير بخلافته في الأرض ، وتعميرها، فكرمه بتعليمه مسميات الأشياء . قال عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – : (هي الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض، وسهل ، وبحر ، وجبل ... ونحو ذلك من الأمم) [٢] أي ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . ثم عرضهم على الملائكة بقوله : " **أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين** " ، فلم يستطيعوا لها جواباً ، فردوا العلم لله بقولهم : " **سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** " [٣] فأشار الله على آدم أن يخبرهم بمسميات تلك الأشياء .

فلما أنبأهم بأسمائهم . قال الله لهم : إني أعلم غيب السموات والأرض، أي ما غاب عنكم . قال الله – تعالى – : " وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ " [٤] .

نفخ الروح في آدم :

يقول عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – : (أمر الله – تبارك وتعالى – بتربة آدم فرفعت ، فخلق آدم من طين لازب من حمأ مسنون –

(١) آية ٣٠ / البقرة .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٩٧ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج١/٧٣ ، والبداية والنهاية ج١/٨٣.

(٣) آية ٣٢ / البقرة .

(٤) آيات ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ / البقرة .

أي منتن - ، فمكث أربعين ليلة جسداً مُلْقى . فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله ، فيُصلصل أي يحدث صوتاً - ، ثم يدخل في فمه ويخرج من دبره، ويدخل من دبره ، ويخرج من فمه . ثم يقول : لست شيئاً للصلصلة ، أو لشيء ما خلقت . ولئن سلطت عليك لأهلكنك ، ولئن سلطت عليَّ لأعصينك) [١] .

وعن سلمان الفارسي - ﷺ - أنه قال : (خَمَّرَ الله طينة آدم - ﷺ - أربعين يوماً ، ثم جمعه بيديه ، فخرج طيبة بيمينه ، وخبيثة بشماله ، ثم مسح يديه إحداهما على الأخرى ، فخلط بعضه ببعض . فمن ثم يخرج الطيب من الخبيث ، والخبيث من الطيب) [٢] .

وقال بن إسحاق : عندما خلق الله آدم من الطين ، فلما مضى له من المدة ما مضى وهو طين ، وأراد الله - عز وجل - أن ينفخ فيه الروح تقدم إلى الملائكة فقال لهم : إذا نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين [٣] .

يقول عبد الله بن مسعود - ﷺ - : (فلما نفخ فيه الروح ، فدخل الروح في رأسه فعطس . فقالت الملائكة : قل الحمد لله . فقال : الحمد لله . فقال الله - عز وجل - له : رحمك ربك . فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه متعجلاً إلى ثمار الجنة [٤] . فلذلك قال الله - تعالى - : " خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ " [٥] .

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج١/٧٥ .
(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٩٣ .
(٣) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٩٤ .
(٤) القرطبي : تفسير القرطبي ج١/٣٢٤ .
(٥) آية ٣٧ / الأنبياء .

ويقول عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – : لما نفخ الله الروح في آدم ، فأتت النفخة من قبل رأسه ، فعجل لا يجري شيء منها في جسده إلا صار لحماً ودماً . فلما انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من حسنه . فذهب لينهض فلم يقدر ، فهو قول الله – تعالى – : " **خلق الإنسان من عجل** " . فلما تمت النفخة في جسده عطس . فألهمه الله أن يقول : الحمد لله . فقال رب العزة له : يرحمك ربك يا آدم . ثم قال للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات : اسجدوا لآدم ، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر وقال : " أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ " [١] . وإن النار أقوى من الطين [٢] .

كرم الله – سبحانه وتعالى – آدم بأنه خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وعلمه الأسماء كلها . فهذه أربع كرامات [٣] .

والسجود هنا ، سجود التحية والتكريم ، وليس سجود العبادة ، لأنه لا يعبد إلا الله في الأرض وفي السماء . وقد أطاع الملائكة أمر الله – تعالى – فسجدوا لآدم حين أمرهم بقوله : " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ "[٤] .

تكبر إبليس أن يسجد لآدم كما أمره الله مع الملائكة ، وظن في نفسه

---

(١) آية ٧٦ / ص .
(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٩٥ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٨٤ .
(٤) آيات : ٢٨ – ٣١ / الحجر .

أنه خير من آدم ، لأنه خُلِقَ من نار ، وهي – في زعمه – عنصر أفضل من العنصر الذي خُلِقَ منه آدم وهو الطين . وعلى فرض ذلك فالعنصران بالنسبة للصانع يستويان في الأهمية . فكيف به يعصي أمر الخالق – جل في علاه – . وقد ذكر ابن كثير : (أن الطين أنفع وخير من النار ، ففيه الرزانة ، والحلم ، والأناة ، والنمو ، والنار فيها الطيش ، والخفة ، والسرعة والإحراق) [١] .

وقال الحسن البصري : (إن إبليس هو أول من قاس ، نظر بينه وبين آدم على طريق المقايسة . فرأى نفسه اشرف من آدم ، فامتنع من السجود له) [٢] .

طرد إبليس من الجنة :

بسبب عصيان إبليس لأمر ربه ، ومخالفته له ، بعدم السجود لآدم ، تكبراً وحسداً عليه . أن طرده الله – سبحانه – من الجنة ، مذموماً مدحوراً، فطلب من الله أن يُؤخر قضائه إلى يوم القيامة . فأمهله الله إلى ذلك ، فتوعد آدم وذريته بأن يغويه ويغويهم بالوقوع في الفساد والمعاصي . فحذره الله – تعالى – أن يقترب من غواية عباده قائلاً : " إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ " [٣] .

وحذر الله – سبحانه – بني آدم من إتباع الشيطان في كثير من آيات الذكر الحكيم منها : " يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ

(١) البداية والنهاية : ج١/٨٤ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٨٤ .
(٣) من آية ٦٥ / الإسراء .

الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ " [١]. وقوله – جل شأنه –: " إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ " [٢] . وقوله – تبارك وتعالى – : " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ . فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى "[٣] .

وقوله – سبحانه –: " وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً " [٤] .

وقول الله – تعالى – : " الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" [٥] .

هل إبليس من الملائكة أم الجن ؟ :

كان إبليس من الجن ، ولم يكن من الملائكة ، لأنه لو كان منهم ما عصى أمر الله قط ، لأن الله قال عنهم " لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ " [٦] . فهو من الجن الذين عمروا الأرض قبل آدم ، فأفسدوا فيها ، فبعث الله عليهم جنداً من الملائكة فقاتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار والجبال ، ووقع إبليس في أسر الملائكة ، فأخذوه معهم إلى السماء ، فكان

(١) آية ٢٧ / الأعراف .
(٢) آية ٦ / فاطر .
(٣) آية ١١٦ ، ١١٧ / طه .
(٤) آية ٥٣ / الإسراء .
(٥) آية ٢٦٨ / البقرة .
(٦) آية ٦ / التحريم .

هناك ، وتشبه بهم ، ونافسهم في الطاعة . وكان من أشدهم اجتهاداً ، وأكثرهم علماً . وجعله الله – تعالى – خازناً على الجنان ، وله سلطان على السماء الدنيا ، وسلطان الأرض ، فدخله الغرور ، والتكبر وظن أنه أفضل من الملائكة بما أعطاه الله له (١) .

وذكر بعض العلماء عدة أدلة على أن إبليس لم يكن من الملائكة هي:

١- إنه لم يكن من الملائكة ، لأنهم عباد مكرمون (لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ " (٢) .

٢- إن إبليس خُلِقَ من نار . وقد صرَّحَ ذلك عن نفسه بقوله : " خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ " (٣) . وقال الله عنه : " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ " (٤) .

وروت السيدة عائشة – رضي الله عنها – عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : " خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم " (٥) .

٣- إن إبليس ليس ملكاً ، لأن الملائكة لا تتزوج ولا تتناسل ، ولا يوصفون بذكورة أو أنوثة. أما إبليس فله ذرية، لأنه متزوج. قال الله – تعالى –: " أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ " (٦) . فلو كان من

(١) القرطبي : في تفسيره ج١/٣٣٧ -٣٤٠ ، ابن كثير : في تفسيره ج١/٧٧ .
(٢) آية ٦ / التحريم .
(٣) آية ١٢ / الأعراف .
(٤) آية ٥٠ / الكهف .
(٥) الإمام مسلم : صحيح مسلم . كتاب الزهد . باب في أحاديث متفرقة .
(٦) آية ٥٠ / الكهف .

الملائكة لما كان له ذرية ونسل [١] قال الحسن البصري : (لم يكن إبليس من الملائكة قط ، بل كان من الجن) [٢] .

خلق حواء وإسكانها مع آدم الجنة :

لما صار آدم – عليه السلام – بشراً سوياً ، يمشي ويتحرك ، وتسرى في جميع جسده روح الله – عز وجل – كان يتنقل في الجنة ، ويمر بين أزهارها ورياضها ، وحيداً فريداً ، لا أنيس له ولا جليس . فألقى الله على عينيه النوم فقام . فخلق الله من ضلعه الأيسر حواء [٣] ولذا يقول عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – : (إن حواء خلقت من أحد أضلاع آدم وهو نائم ، دون أن يحس بألم) . واستدل على ذلك بقول الله – تعالى – : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... " [٤] . فلما استيقظ آدم وجد حواء جالسة عند رأسه . فسألها من أنت ؟ . فقالت : امرأة. ولم خُلقْتِ؟ . قالت : لتسكن إليّ . فقالت الملائكة ما اسمها يا آدم ؟ . فقال : حواء . فقالوا : ولم سُميت بهذا الاسم ؟ . قال : لأنها خُلقت من شيء حي [٥] .

ويقول ابن قتيبة : (إن الضلع الذي خُلقت منه حواء : امرأة ، لأنها من المرء أُخذت) [٦] .

---

(١) الشيخ محمد علي الصابوني : النبوة والأنبياء ، ص : ١٢٠ ، الشيخ عبد الحميد كشك : في رحاب التفسير ج١/ص١٤١ ، ١٤٢ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٨٥ .
(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج١/٤٤٨ .
(٤) آية ١/ النساء .
(٥) القرطبي : في تفسيره ج١/٣٤٤ ، الطبري : في تاريخه ج١/١٠٤ ، ابن كثير : البداية ج١/٨٧ .
(٦) المعارف ، ص:١١ .

وفي خلق حواء من أب دون أم دليل على كمال قـدرة الله – سـبحانه وتعالى – وأنه أحاط بكل شيء علما .

وزوج الله – تبارك وتعالى – آدم وحواء ، وشهد الله وملائكته علـى العقد ، وكفى بالله شهيدا .

وقال الله – تعالى – : لآدم – عليه السلام – : " يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ "(١).

أمر الله – تعالى – آدم – عليه السلام – أن يسكن هو وزوجه في فسيح جنته، يغدوان في جنباتها ويروحان ، ويتمتعان بكل ما فيها مـن نعـيم ، وروح وريحان ، وأباح لهما كل شيء في هذه الجنة الواسعة ، إلا شجرة واحـدة عينها لهما .

وقد اختلف المفسرون والمؤرخون في تحديد هذه الشجرة ، فمنهم مـن قال : إنها شجرة العنب . ومنهم من قال : إنها شجرة التين . وفريق ثالث . قال : إنها شجرة الزيتون . وفريق رابع : ذكر أنها شـجرة الحنطـة (٢)، والحبة فيها ألين من الزبد ، وأحلى من العسل (٣) .

وقد اقتضت حكمة الباري – جل في علاه – في عـدم تعيـين هـذه الشـجرة ، لأنه لا فائدة من ذلك ، وحتى لا يتشاءم الناس من الأكل منها ،

---

(١) آية ٣٥ / البقرة .

(٢) ابن كثير : في تفسيره ج٧٩/١ ، والبداية والنهاية ج٨٧/١ .

(٣) القرطبي : في تفسيره ج٣٤٨/١ .

فالشجرة لا ذنب لها ولا حيلة ، إنما كانت أداة اختبار . ولو كان في ذكرها فائدة لصرح الله باسمها . يقول ابن كثير : (وقد أبهم الله ذكر الشجرة وتعيينها ، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا)[١] .

موضع الجنة :

كما اختلف العلماء في تحديد الشجرة التي نهى الله آدم وحواء عن الأكل منها . فقد اختلفوا – كذلك – في موضع الجنة . فرأى الجمهور من أهل السنة : أنها جنة الخلد التي وعد المتقون ، واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

١- إن الله – تبارك وتعالى – قد عرف الجنة بأداة التعريف (أل) فقال : " **وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة** "[٢] والمعروف أن ذلك ينصرف إلى جنة الخلد التي في السماء [٣] .

٢- إن الله – تعالى – أمر آدم بالهبوط في قوله تعالى : " **وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** " [٤] . والهبوط لا يكون إلا من العلو والارتفاع ، مما يجعلنا نوقن أن الجنة في السماء .

٣- وصف الله الجنة بأوصاف تدل على أنها جنة الخلد منها قوله – تعالى – " **إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى۝وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى** "[٥] .

وقال القرطبي : (إن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم – عليه السلام –) [٦] .

(١) البداية والنهاية ج١/٨٧ .
(٢) آية ٣٥ / البقرة .
(٣) القرطبي : في تفسيره ج١/٣٤٥ .
(٤) آية ٣٦ / البقرة .
(٥) آية ١١٨ / طه .
(٦) تفسير القرطبي ج١/٣٤٤ .

٤- ما ورد في حديث الشفاعة من أن الناس يأتون آدم ، فيقولـون : (يـا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم مـن الجنـة إلا خطيئـة أبيكم ..) دلالة قوية على أنها جنة الخلد [1] .

ورأى المعتزلة والقدرية : أن الجنة ليست جنة الخلد ، وإنما هي جنـة في الأرض (في أرض عدن) ، واستدلوا بذلك على أنها كانت جنة الخلـد لما وصل إليها إبليس ، ولما وقعت فيها معصية آدم ، لأنها جنة القدس [2] .

وسواء أكانت جنة الخلد ، أم جنة خلقها الله لآدم في الدنيا ، فـإن الله – تعالى – أراد أن يُرى آدم وزوجه – عليهما السلام – النعيم المقيم ، والحياة الهانئة ، التي لا نصب فيها ولا تعب في الجنة . قبل نزولهما إلى الأرض ، وما فيه من عناء وشقاء وتعب ، ليكون ذلك دافعاً لهما وذريتهما إلى العمل الصالح ، وإعمار الأرض ، والقيام بالخلافة كما ينبغي ، ليصلوا إلى مكانهم الرفيع في جنة الخلد وملك لا يبلى .

كيف وسوس الشيطان لآدم وزوجه ؟:

قال فريق من العلماء : إن إبليس حين عصى أمر ربه وامتنـع عـن السجود لآدم ، متزرعاً بحجج واهية ، طرده الله – تعالى – مـن الجنـة ، فأقسم أنه لن يترك آدم وذريته ، بل يزين لهم المعاصي والشرور ، حتى لا يشكر أكثرهم نعماء الله عليهم . فوسوس لآدم وزوجه بالأكل من الشجرة ، التي نهاهما الله عن الأكل منها .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٨٨ .

(٢) القرطبي : في تفسيره ج١/٣٤٥ .

يقول بعض العلماء إنه عرض نفسه على جميع الدواب لتدخله الجنة . فأبت ما عدا الحية ، وكانت لها قوائم أربع تشبه الجمل ، فحملته في فمها وأدخلته الجنة . وهناك أغرى آدم وزوجه من الأكل من الشجرة ، وأقسم لهما أنه من الناصحين . ودلهما بغرور ، أنهما إن أكلا منها ، لصار ملكين أو من الخالدين ، فلا يموتان ، بل سيبقيا في هذا النعيم مخلدين [١] .

وفريق آخر : يرى أن الشيطان وسوس لأدم وزوجه من خارج الجنة، وبدأ بحواء فأكلت من الشجرة أمام آدم ، ولما لم يُصبها أذى ، أكل هو [٢].

ونميل إلى رأي الفريق الثاني لأن إبليس طرد من الجنة . فكيف يدخلها، وكيف للحية أن تحمله في فمها ، وهي تعلم أنه مطرود وممنوع من دخول الجنة . قال الله – تعالى – : " وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ • وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ " [٣] .

ونتساءل : كيف يسمع آدم – عليه السلام – لإغراء الشيطان ، وقد حذره الله منه ، ويعلم أنه عدو مبين ، وأن عليه اللعنة إلى يوم الدين ؟ . وكيف يُرجى نصحه وهو رجيم ، ويُصدق قسمه له ولزوجه إنه لهما لمن الناصحين؟!.

(١) القرطبي : في تفسيره ج١/٣٥٥ .
(٢) نفس المصدر السابق .
(٣) آيات ١٩-٢٢ / الأعراف .

ولعل يكون سماع آدم لإغواء الشيطان ، يرجع إلى سمة من سمات الضعف البشري ، الذي جعله الله في الإنسان [١] . أو يرجع إلى نسيان آدم نهى الله له ولزوجه من الأكل من الشجرة . ويؤيد ذلك قول الله – تعالى -: " وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً " [٢] .

أكل آدم وحواء من الشجرة :

صَدَّقَ آدمُ وحواء كلام إبليس اللعين في أن يأكلا من الشجرة ، فقد جاء بثمار من ثمارها ، وعرضه على حواء قائلاً : " أنظري إلى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها " . فما زال يغويها حتى أخذتها فأكلتها ، ثم أغوى آدم . وقالت له حواء : كل فإني قد أكلت فلم يضرني . فأكل منها . فانكشفت عوراتها . فلما رآها آدم دخل في الشجرة حياءً . فناداه الله – سبحانه وتعالى – : أفراراً مني يا آدم . فقال بل استحياء منك[٣] .

وبحث آدم عن ورق من أوراق شجر الجنة ، ليصنع منه لباساً يواري به سوءاتهما – عوراتهما – ، فلم تُسْعِفْهُ الأشجار ، بل زجرته على خطيئته وزوجه ، وكانت تتساقط عنهما . ويقال : إن شجرة التين ، قد مدته بأوراقها العريضة ، فصنع منها لباساً لهما [٤] .

ونادى المولى – سبحانه – على آدم وحواء قائلاً : " أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ "[٥] .

---

(١) د. محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء ، ص:٥٧ .

(٢) آية ١١٥ / طه .

(٣) القرطبي : في تفسيره ج١/٣٥٥ ، الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٠٧ ، ١٠٨ .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ، ص:١٣ .

(٥) آية ٢١، ٢٢ / الأعراف .

فاعتذر آدم عما وقع فيه وزوجه نسياناً لأمر الله لهما بقولــه : " رَبَّنَــا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ " (١) . وتفضــل الله – تبارك اسمه – وتكرم على آدم بأن علمه كلمات فقالها . فقبل الله توبتــه على معصيته . وقد قال المفسرون أن هذه الكلمات هي : " ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين " (٢) .

فقال عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – (قال آدم يــا رب ألــم تخلقني بيدك ؟ . قيل له بلى . ونفخت فيّ من روحك ؟ . قيل بلى . عطست فقلت يرحمك الله ، وسبقت رحمتك غضبك ؟. قيل له بلى . وكتبت علي أن أعمل هذا ؟. قيل له بلى . قال أرأيت أن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة . قال بلى)(٣) .

وقال بعض العلماء هذه الكلمات هي : " سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، عملت سوءاً ، وظلمت نفسي فاغفر لي ، إنك خيــر الغــافرين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي ، فارحمني إنك خير الراحمين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فَتُبْ عليّ إنك أنت التواب الرحيم " (٤) .

وقد قال آدم وزوجه هذه الكلمات ، فتاب الله عليهما. وقبل توبتهما .

وكانت هذه المعصية التي ذكرها الله بقوله: "وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى"(٥) .

(١) آية ٢٣ / الأعراف .
(٢) القرطبي : في تفسيره ج١/٣٦٥ .
(٣) ابن كثير : البداية ج١/٩٥ ، وتفسر القرآن العظيم ج١/٨١ .
(٤) القرطبي : في تفسيره ج١/٣٦٦ ، ابن كثير : في تفسيره ١/٨١ ، الثعــالبي : قصــص الأنبياء ، ص:٥٤ .
(٥) آية ١٢١/ طه .

كانت قبل النبوة ، بدليل قول الله – تعالى – : " ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى " (١) أي اصطفاه نبيا ورسولا .

ومعصية آدم لم تكن بقصد أو عزم على المعصية ، بل وقعت عن طريق النسيان ، وهو لا يؤاخذ عليه الإنسان . قال – تعالى – : " رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا " (٢) . وقول الرسول – ﷺ – : " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " .

وسمي نسيان آدم – عليه السلام – معصية ، نظراً لعلو مكانته وفضله ، فحسنات الأبرار سيئات المقربين (٣) .

وقد بلغ من مكانة آدم عند الله – تعالى – أن جعل اليوم الذي ولد فيه ، – وهو يوم الجمعة – أن ينال الكرامات ، إعظاماً لشأن آدم – عليه السلام – يروي أبو هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : " خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة.فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها "(٤).

خروج آدم من الجنة :

أهبط الله آدم – عليه السلام – إلى الأرض ، فنزل بأرض الهند ، فكانت أطيب موضع في الأرض ريحاً . يقول علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – :

---

(١) آية ١٢٢ / طه .

(٢) آية ٢٨٦ / البقرة .

(٣) الشيخ إبراهيم الباجوري : شرح البيجوري على الجوهرة ، ص:١٣٩ .

(٤) مسلم في صحيحة .

" أطيب أرض في الأرض ريحاً ، أرض الهند ، أهبط بها آدم ، فعلق شجرها من ريح الجنة "(١) .

ويقول عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – : " أُهْبط آدم بالهند ، وحواء بجدة ، فجاء في طلبها حتى اجتمعا . فأزدلفت إليه حواء ، فلذلك سميت المزدلفة ، وتعارفا بعرفات . فلذلك سميت عرفات ، واجتمعا بجمع فذلك سميت جمعا "(٢).

وقال أبو موسى الأشعري – ﷺ – : " إن الله – تبارك وتعالى – لما أخرج آدم من الجنة ، زوده من ثمارها ، وعلمه صنعة كل شيء . فثماركم هذه من ثمار الجنة ، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير " (٣) .

وقيل : إن آدم عندما أهبط إلى الأرض رأى سعتها ، ولم ير فيها أحداً غيره . قال : يا رب أما لأرض كهذه عامر ، يسبح بحمدك ، ويقدس لك غيري . قال الله : إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدي ويقدسني ، سأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكرى ، ويسبح فيها خلقي ، ويذكر فيها باسمي . وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أحصه بكرامتي ، وأوثره باسمي ، وأسميه بيتي . أنطقه بعظمتي ، وعليه وضعت جلالي . أجعل البيت حراماً آمنا ، يحرم بحرمته من حوله ، ومن تحته ، ومن فوقه . فمن حَرَّمَهُ بحرمتي استوجب بذلك كرامتي ، ومن أخاف أهله فيه ، فقد اخفر ذمتي ، وأباح حرمتي . أجعله أول بيت وضع للناس ببطن مكة مباركاً ، يأتونه شعثاً غبراً، على كل ضامر من كل فج عميق ، يرجون بالتلبية رجيجاً ، ويثجون

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٢١ .
(٢) المصدر السابق ج١/١٢١ ، ١٢٢ .
(٣) ابن كثير : في تفسيره ج١/٨١ .

بالبكاء ثجيجا ، ويعجون بالتكبير عجيجاً . فمن اعتمره ولا يريد غيره ، فقد وفد إليّ ، وزارني وضافني ، وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن يسعف كلاً بحاجته . تعمره يا آدم ما دمت حيا ، ثم تعمره الأمم والقـــرون والأنبياء من ولدك ، أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن .

ثم أمر آدم – عليه السلام – أن يأتي البيت الحرام ، الذي أهـبط لـه إلـى الأرض ، فيطوف به ، كما كان الملائكة تطوف حول العرش .

وقيل: إن البيت كان ياقوته واحدة ، أو دره واحدة ، حتى إذا أغرق الله قوم نوح، رفعه وبقى أساسه ، ثم بوأه الله – عز وجل – لإبراهيم فبناه [١] .

آدم وحواء يعيشان على الأرض :

عاش آدم وزوجه حواء – عليهما السلام – على الأرض ، وقد علم الله آدم صنعة كل شيء ، وركب فيه من الغرائز ما يصلح الأرض ويعمرها ، ويستخرج كنوزها وخباياها ، كلما ألجأته الحاجة إلى ذلك . يقول .

يقول اليعقوبي : (إن الله أنزل على آدم الحنطة ، وأمره أن يأكل مـن كده . فحرث وزرع ، ثم حصد ، ودرس ، وطحن ، وعجن وخبز)[٢] .

وقد رزق الله – تعالى – أبانا آدم – عليه السلام – من أمنا حواء أربعين ولداً في عشرين بطناً[٣] . كل بطن به ذكر وأنثى . كان عندما يصل الأولاد إلى

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٣١ ، ١٣٢ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ، ص:٥٩ ، ٦٠ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ج١/٦ .

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص١٨ ، الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٤٠ ، ص١٤٥ ، ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص :٦٥ .

سن الزواج ، يزوج ولد البطن الأول إلى فتاة البطن الثاني . وولد البطن الثاني إلى فتاة البطن الأول . ولم يزوج الذكر بالأنثى من بطن واحدة .. وهكذا .

وأخذت ذرية آدم وبنيه يعمرون الأرض ويتكاثرون . وقد سعد الأب والأم بهذه الذرية ، وشملوهم بالعطف والحنان والرعاية والعناية . ولم يعكر صفو الحياة ، حتى وضعت حواء : توأمين : قابيل وأخته ، وهابيل وأخته . وشب الأبناء ، وبلغوا سن الرشد ، ورغبوا في الزواج . فطلب هابيل أن يتزوج من أخت قابيل . فأبى عليه قابيل ، حيث كانت أجمل من أخت هابيل. وقال قابيل لأخيه : هي أختي وأنا أحق بها منك .

تدخل الأب وأمر قابيل أن يزوج أخته إلى أخيه هابيل ، ورجاء أن يكون قوله الفصل . غير أن قابيل ثار ولم يرض بالقسمة ، لأن نصيبه اقل جمالاً من نصيب أخيه .

فتحير الوالد في الأمر ، وتوزعت نفسه بين رغبة ولديه والإبقاء على السلام والأمان بينهما . فهداه الله إلى مخرج . هو أن يُقرب كل منهما قرباناً إلى الله – عز وجل – ، فأيهما يُقبل قربانه ، كان أحق بما يريد .

فقدم هابيل شاه من أنعامه . وكان يعمل في رعي الأغنام . وقدم قابيل قمحاً . وكان يعمل في زراعة الأرض . فتقبل قربان هابيل ، ولم يتقبل قربان قابيل ، إذ هبت عليه نار فأحرقته .

فازداد قابيل غيظاً وحسداً على أخيه ، وتوعده بالقتل . فقال له أخوه : ما ذنبي إن لم يتقبل منك " لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ " [١] .

وفي ذات مساء تأخر هابيل بأغنامه عن الحضور ، فصرخ آدم في وجه ولده قابيل متسائلاً : أين أخوك ؟ فأجابه : لا أدري . فقال له : انطلق إليه وأحضره من مرعاه .

فوجدها قابيل فرصة لتنفيذ جريمته ، وما أضمره من سوء تجاه أخيه . فتذكر الروايات أنه ضربه بحديدة كانت معه ، وبعضها تقول : إنه ألقى عليه صخرة وهو نائم ، فشجت رأسه . وقيل : خنقه خنقاً شديداً[٢].

ولما قتل قابيل أخاه هابيل تحير في الأمر ، ولم يدر ماذا يصنع بجثته. فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه ، فحفر الأرض ووارى جثمان الغراب المقتول ، ثم هال عليه التراب .

فقال قابيل : " يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ ، فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ " [٣]. فحفر لأخيه قبراً ودفنه ، ثم هال عليه التراب .

وحين علم آدم وحواء – عليهما السلام – بقتل ولدهما هابيل . فبكياه

---

(١) آية ٢٨ / المائدة .

(٢) اليعقوبي : في تاريخه ج١/٧ ، الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٣٨ ، ابن كثير : البداية ج١/١٠٨ ، وقصص الأنبياء ، ص:٦٠ .

(٣) آية ٣١ / المائدة .

وحزنا عليه حزناً شديداً [١] . فرزقهما الله – بعد ذلك – بولد يسمى (شيث) أي هبة الله [٢] .

وكانت جريمة قتل قابيل لأخيه هابيل ، أول جريمة قتل تقع على الأرض من البشر ، بسبب المرأة . وكثيراً ما ترتكب الجرائم بسببها . وإن أي جريمة قتل تقع ظلماً بعد هذه الجريمة إلا ويكون على قابيل منها نصيب، لأنه هو الذي بدأ القتل . ويروي البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال : رسول الله – ﷺ – :" لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول ، كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل " [٣] .

نبوة آدم ـ عليه السلام ـ :

كان آدم – عليه السلام – نبياً ورسولا ، أرسله الله – تعالى – إلى ولده ، ليأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، والتحلي بمكارم الأخلاق ، وينهاهم عن المعاصي والشرور [٤] .

ويقول أبو ذر الغفاري – رضي الله عنه – قلت يا نبي الله أنبينا كان آدم ؟ . قال : نعم كان نبيا ، كلمه الله قُبُلا " أي عيانا[٥] .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٤٥ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٥٢ ، ابن كثير : البداية ج١/١١٣ ، وقصص الأنبياء ، ص:٦٩ .

(٣) صحيح البخاري ج٥/٣٢٢ كتاب بدء الخلق . باب خلق آدم وذريته . والأول هو قابيل . وكفل : نصيب .

(٤) اليعقوبي : في تاريخه ج١/١٤٥ .

(٥) تاريخ الرسل ج١/١٥١ .

ويذكر الطبري أنه كان مما أنزل الله على آدم : تحريم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، في إحدى وعشرين ورقة (صحيفة) . كتبها آدم بخطة ، علمه إياها جبريل - عليه السلام - [١].

وحين حضرت الوفاة أبينا آدم - عليه السلام - دعا ولده شيث ، وجميع ذرية آدم ، أوصاهم بتقوى الله وحسن عبادته ، وحذرهم من الشرور والآثام . وأوصى شيثاً بالقيام بأمر الدعوة بعده ، فكان يأمر قومه بحسن العبادة ، والإخلاص في العمل ، وينهاهم عن الحسد والتباغض ، والكذب [٢] .

ويقول محمد بن إسحاق : إن الله - تعالى - جعل شيثاً نبياً ، وأنزل عليه خمسين صحيفة [٣] . فيها أمور العبادة والدين والمعاملات ... وغيرها، فجمع ما أنزل الله عليه من الصحف إلى صحف أبيه وعمل بما فيها . وأقام في مكة ، - يحج ويعتمر إلى أن مات [٤].

وفاة آدم - عليه السلام - :

عاش آدم - عليه السلام - ألف سنة [١]، ينشر رسالة الإسلام بين أبنائه وذريته ، ويحثهم على التقوى والإخلاص في القول والعمل ، والبعد عن المحارم والمعاصي . يروي أبو هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له. فجلس فعطس فقال : الحمد لله . فقال له ربه : يرحمك ربك ، ائت أولئك

(١) المصدر السابق ج١/١٥٠، ١٥١ .
(٢) اليعقوبي : في تاريخه ج١/٨ .
(٣) الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٥٢ ، ابن كثير : قصص الأنبياء ، ص: ٦٩ ، ٧١ .
(٤) الطبري : مصدر سابق ج١/١٦٢ .
(٥) ابن قتيبة : المعارف ، ص:١٩ .

الملأ من الملائكة فقل لهم : السلام عليكم . فأتاهم فقال لهم السلام عليكم فقالوا له : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه فقال له : هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم . ثم قبض له يديه فقال له : خذ واختر . قال اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين . ففتحها له ، فإذا فيها صورة آدم وذريته كلهم . فإذا رجل مكتوب عنده أجله ، وإذا آدم قد كتب له عمر ألف سنة ، وإذا قوم عليهم النور . فقال : يا رب مَنْ هؤلاء الذين عليهم النور ؟ . فقال: هؤلاء الأنبياء والرسل ، الذين أرسل إلى عبادي . وإذا فيهم رجل هو أضوأهم نوراً . ولم يكتب له من العمر إلا أربعون عاماً . فقال يا رب ما بال هذا من أضوأهم نوراً، ولم يكتب له العمر إلا أربعين سنة ؟ ، فقال : ذاك ما كتب له . فقال : يا رب أنقص له من عمري ستين سنة .

فقال رسول الله – ﷺ – فلما أسكنه الله الجنة ، ثم أهبط إلى الأرض ، كان يعد أيامه . فلما أتاه ملك الموت ليقبضه قال له آدم : عجلت عليّ يا ملك الموت . فقال : ما فعلت . فقال : قد بقى من عمري ستين سنة . فقال له ملك الموت : ما بقى من عمرك شيء . قد سألت ربك أن يكتبه لابنك داود . فقال : ما فعلت ..

فقال رسول الله – ﷺ– : (فنسي آدم فنسيت ذريته . وجحد آدم فجحدت ذريته . فيومئذ وضع الله الكتاب وأمر بالشهود) .

وقيل : فأنزل الله عليه الكتاب ، وأقام عليه الملائكة شهوداً . فأكمل لآدم ألف سنة ، وأكمل لداود مائة سنة [1] .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٥٥ ، ١٥٦ .

ولما انتهى أجل آدم – عليه السلام – وحضرته الوفاة كان ذلك في يوم الجمعة ، أنزل الله – تعالى – عليه ملائكة بحفوط وكفن من الجنة . وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه أربع تكبيرات . أمهم جبريل – عليه السلام – من خلفه الملائكة ، ومن خلفهم أبناؤه ، ثم دفنوه في قبره . وقالوا : يا بني آدم هذه سنتكم [١] .

ودفن آدم – عليه السلام – في الهند عند الجبل الذي أهبط فيه ، وهو جبل بوذا [٢] بالهند . وقيل : (دفن بجبل بمكة المكرمة في موضع يعرف بغار الكنز [٣] .

وقد ماتت أمنا حواء – عليها السلام – بعد وفاة أبينا آدم – عليه السلام – بعام واحد ، ودفنت بجواره في الجبل المذكور[٤] .

وروى الطبري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال : (لما كان زمن الطوفان حمل نوح جثمان سيدنا آدم وزوجه حواء – عليهما السلام – في تابوت معه في السفينة ، ثم حين خرج منها دفنهما في بيت المقدس [٥] .

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ، ص:١٩ ، ابن كثير : البداية ج١/١١٣، ١١٤ ، وقصص الأنبياء ، ص:٧٠ .

(٢) جبل بوذا بسرنديب في بلاد الهند .

(٣) ابن قتيبة : المعارف ،ص:١٩ ، الطبري : في تاريخه ج١/١٦١ .

(٤) تاريخ الرسل ج١/ ١٦١ ، ابن كثير : البداية ج١/١١٤ ، وقصص الأنبياء ، ص:٧١ .

(٥) نفس المصادر السابقة .

الفصل الثالث

(نوح - عليه السلام -)

- نسبه ونشأته .
- قوم نوح أول من عبد الأصنام .
- منهج نوح في الدعوة .
- إيذاء قوم نوح له .
- الذين آمنوا بدعوة نوح .
- قوم نوح يستمرون في ضلالهم .
- موقف نوح بعد عصيان قومه .
- سفينة النجاة .
- نوح ينادي على ولده كنعان .
- نداء نوح لربه .
- هبوط نوح ومن معه من السفينة .
- وفاة نوح - عليه السلام - .

الفصل الثالث

(نوح - عليه السلام -)

نسبه ونشأته :

هو : نوح[١] بن لامك بن مَتُو شَلَخ بن أخنوح (أدريس) بن يرد بـــن مهلا بيل بن قينان بن أنوس بن شيث بن آدم - عليه السلام - [٢] .

وأمه : فينوش بنت راكيل بن مخوئيل بن أخنوع [٣] كـــان - عليه السلام - طويل الجسم ، ضخماً ، دقيق الساقين والساعدين ، صاحب لحيـــة طويلـــة وعريضة [٤] .

وُلِدَ نوح - عليه السلام - ونشأ في أرض العراق بعد عشرة قـــرون مضـــت على بعثة آدم - عليه السلام - ، وكانت تلك القرون العشر على الإسلام ، ملتزمين بأوامره ، ومنتهين عن نواهيه ، التي جاءت في صحف آدم وولده شيث من بعده ، وغيرهم ممن أرسلهم الله لهداية الناس .

فلما اختلف الناس وابتعدوا عن الطريق المستقيم ، وصاروا يعكفـــون على أصنام صنعوها بأيديهم ، وخصوها بالعبادة من دون الله – سبحـــــانه

---

(١) وردت قصة نوح في القرآن الكريم في سور كثيرة وهي : آل عمران ، النساء ، الأنعام ، الأعراف ، التوبة ، يونس ، هود ، إبراهيم ، الإســراء ، مــريم ، الأنبيـــاء ، الحــج ، المؤمنون ، الفرقان ، الشعراء ، العنكبـوت ، الأحـــزاب ، الصـــافات ، ص ، غـــافر ، الشورى، ق ، الذاريات ، النجم ، القمر ، الحديد ، التحريم ، نوح .

(٢) اليعقوبي : في تاريخه ج١/٨-١٣ ، ابن كثير : البداية ج١/١١٦ .

(٣) الثعالبي : قصص الأنبياء ، ص:٧٩ .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ، ص:٢١ .

وتعالى – فكان لا بد من إرسال رسول يرشد هؤلاء إلى طريق الحق ، ويذكرهم بالخالق الباري – جل في علاه – ، وينذر من يظل في ضلاله بالعذاب الأليم ، ويبشر من يستجيب لدعوة الهدي والرشاد بجنة عرضها السموات والأرض . فكان نوح – عليه السلام – ذلك النبي الذي أرسله الله لهداية الناس .

نبوة نوح ـ عليه السلام ـ :

ذكر بعض المؤرخين أن نوحاً – عليه السلام – حين بلغ الخمسين من عمره ، بعثه الله – تعالى – إلى قومه ، ويذكر آخرون أنه حين بلغ ثلثمائة وخمسين، أو أربعمائة وثمانين كلفه الله – سبحانه وتعالى – بالرسالة [(١)] .

يقول الطبري : كان قوم نوح قد أجمعوا على العمل بما يكرهه الله من ركوب الفواحش ، وشرب الخمور ، والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله – عز وجل – وعبادة الأصنام والأوثان [(٢)] .

قوم نوح أول من عبد الأصنام :

كان قوم نوح – عليه السلام – أول من عبد الأصنام والأوثان من دون الله – عز وجل – . وكان الناس قبلهم على دين الإسلام . ومن الأصنام التي انتشرت في عهدهم : ود ، وسواع ، ويغوث ، ونسر . وقد تحدث القرآن الكريم عن أسماء هذه الأصنام ، على لسان نبي الله نوح ، حين شكا قومه

(١) ابن قتيبة : المعارف ، ص٢١ ، الطبري : في تاريخه ج١/١٧٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١/١١٧ ، وقصص الأنبياء ، ص:٧٦ .
(٢) تاريخ الطبري ج١/١٧٩ .

إلى الله قائلاً : " رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ما له وولده إلا خسارا . ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا " [١] .

وهذه الأصنام كانت أسماء لأناس صالحين ، فلما ماتوا جزع عليهم الناس جزعاً شديداً ، فجاءهم الشيطان في صورة إنسان ، وقال لهم : أرى جزعكم على هؤلاء ، فلو صورت لكم على صورهم تماثيل حتى تذكرونهم، وتتخذونهم قدوة ، غير أني لا أقدر أن أبث فيها الروح . فوافقوا . فصنع لهم إبليس أصناماً على صورهم ، نصبوها في مجالسهم .

فلما مات الناس ، ومات أبناؤهم ، ونُسيت حقيقة تلك الأصنام . قال الناس ما وضع هؤلاء في هذا المكان إلا لفضلهم ، وقال لهم إبليس : إنما كان من قبلكم يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر . فعبدوهم [٢] .

وروى ابن كثير عن محمد بن قيس قال : (وَدَّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر) ، كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا . قال أصحابهم – الذين يقتدون بهم – لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة ، إذا ذكرناهم ، فصوروهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر . فعبدوهم) [٣] .

---

(١) آية ٢١ – ٢٣ / نوح .
(٢) القرطبي : في تفسيره ج١٠/٧٠٣٣ ، ٧٠٣٤ (بتصرف) .
(٣) تفسير القرآن العظيم ج٤/٤٢٦ .

قال القرطبي : وبهذا المعنى فسر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة – رضي الله عنها – أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة بالحبشة تسمى مارية ، فيها تصاوير لرسول الله – ﷺ – فقال : (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات ، بنوا على قبره مسجداً ، وصور وافيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة) [١] .

وذكر عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – أن هذه الأصنام الخمس: (ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر) بقيت محل تعظيم وعبادة وتقديس حتى جاء الطوفان فدفنت في الطين ، ولم يعرف لها اثر ، وظلت كذلك مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب [٢] .

وقد روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال : صارت هذه الأوثان في العرب بعد . فكان وُدّ : لكلب ، بدومة الجندل . وسواع لهذيل بساحل البحر . ويغوث لقطيف بالجرف عند سبأ . ويعوق لهمذان ببلخ ، ونسر فكان لحمير آل ذي الكلاع [٣] .

وقال الواقدي : (كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر من الطير) [٤] .

---

(١) القرطبي : في تفسيره ج١٠/٧٠٣٤ . والحديث رواه مسلم في صحيحه ج١/٣٧٦ كتاب المساجد . باب النهي عن بناء المساجد على القبور .

(٢) القرطبي : في تفسيره ج١٠/٧٠٣٤ (بتصرف) .

(٣) صحيح البخاري ج٨ / ٦١ كتاب التفسير ، تفسير سورة نوح .

(٤) القرطبي : في تفسيره ج١٠/٧٠٣٥ .

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين : اللات : لثقيف بالطائف . والعزى: لسليم وغطفان وجشم . ومناة : لخزاعة بقديد . وأساف : لأهل مكة . ونائلة لأهل مكة أيضاً . وهبل : جاء به عمرو بن لحي إلى مكة ووضعه في حول الكعبة . وهو أكبر الأصنام وأعظمها عند القرشيين (١) .

منهج نوح في دعوة قومه :

كان الناس قبل قوم نوح – عليه السلام – على الفطرة ، التي فطر الله الناس عليها . يعبدون الله لا يشركون به شيئاً ، ولا يعرفون أصناماً ولا أوثاناً ، يتبعون ما أنزله الله – تعالى – على آدم – عليه السلام – ، ثم على ولده شيث ، وإدريس ... وغيرهم من وحي أوحاه الله إليه وبلغوه للناس . ومضى من آدم إلى نوح – عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام . كما روى الصحابي الجليل عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال : قال رسول الله – ﷺ – : (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام) (٢) .

فلما جاء قوم نوح – عليه السلام – انحرفوا عن طريق الحق ، واتبعوا أهواءهم، وأضلهم الشيطان فسول لهم أن يعبدوا الأصنام والأوثان التي صنعوها بأيديهم ، واتخذوها آلهة من دون الله – سبحانه وتعالى – واعتقدوا أنها تضر وتنفع ، وتبصر وتسمع ، وأنها تستطيع أن تجلب لهم الخير ، وتدفع عنهم السوء ، وتغني عنهم من دون الله . فبعث الله إليهم نوحاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك ما يعبدون. ورغبهم وأنذرهم. قال الله – تعالى –

---

(١) أنظر تفصيل ذلك في كتاب العرب وظهور الإسلام للدكتور / السيد محمد يونس ، ص:١٤٥ – ١٤٩ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/١١٧ .

" إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " (١) .

فقابلوا دعوته بالصدود والإعراض عنه ، وعدم الاستماع لنصحه وإرشاده، وهو – عليه السلام – يصبر على انصرافهم عنه ، ويحاول المرة تلو المرة بالليل أو بالنهار ، بالسر والعلن أن يقنعهم بالعدول إلى الطريق المستقيم ، لكنهم كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم ، حتى لا يسمعوا دعوة الحق . ويغطون وجوههم بثيابهم حتى لا يروه ، وذلك تكبراً ، وفراراً منه .

فلما رأى منهم إصرارهم على الضلال ، واستكبارهم عليه ، دعا الله – تعالى – أن يهديهم ، فيعودوا إلى رشدهم . فقال : " رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِيَ إِلَّا فِرَاراً . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً " (٢) .

وبين نوح – عليه السلام – منهجه في دعوة قومه إنه كان يأمرهم أن يستغفروا ربهم من المعاصي والشرور التي ارتكبوها ، ويتوبوا إليه ويخلعوا عبادة الأصنام والأوثان ، ويخصوا الله وحده بالعبادة . ورغبهم في إنهم إن فعلوا ذلك أرسل السماء عليهم بالمطر مدراراً ، بعد طول احتباس وانقطاع عنهم، ويمدهم بأموال وبنين ، بعد أن عانوا من الفقر وقلة الذرية ، ويجعل لهم جنات عامرة بكل أنواع الفواكه والخضر والحبوب ، ويجعل لهم أنهاراً

---

(١) آيات ١-٤ / نوح .

(٢) آيات ٥ – ٩ / نوح .

تفيض بالماء ، فيشرب الإنسان ، والحيوان ، والزرع . ويعيشون في عيشة راضية . قال الله – تعالى – على لسان نوح – عليه السلام – : " فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً " (١) .

ويلفت نوح – عليه السلام – أنظار قومه إلى الآيات البينات الناطقة بوحدانية الله وقدرته ، وأنه هو الذي يهب ويمنع ، ويضر وينفع ، ويحيي ويميت وهو على كل شيء قدير .

فقال لهم : ألم تنظروا إلى السموات السبع وقد خلقها الله طباقاً ، وجعل القمر بروجاً ومنازل ، وفاوت في نوره فجعله يزداد حيناً حتى يتناهى ، ثم يبتدئ ينقص حتى يستتر ، ليدل على مضي الشهور والأعوام ، وجعل الشمس كالسراج ، يزيل ظلمة الليل ، " صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ "(٢) .

ثم انتقل نوح – عليه السلام – إلى آية أخرى ، وهي خلق الإنسان . وإن الله أنبت أباكم آدم من الأرض ، أو أنبت كل البشر من الأرض ، لأنه – سبحانه – خلقهم من النطف ، وهي متوالدة من الأغذية المتوالدة من النبات المتوالد من الأرض ، ثم ينمون كما ينمو النبات ويلدون ويموتون ، وأيديهم وأرجلهم كأفرع النبات ، وعروقهم المتشبعة في الجسم والتي يجرى فيها الدم ، وينتشر في الأطراف ، تشبه ما في الشجر ، وأحوالهم المختلفة كأحوال النبات ، فمنه الحلو ، والمر ، والطيب ، والخبيث واستعدادهم مختلف كاستعداد النبات (٣).

(١) آيات ١٠ -١٢ / نوح .

(٢) من آية ٨٨ / النمل .

(٣) الشيخ عبد الحميد كشك : في رحاب التفسير ، ص٧٤٤٥ نشر المكتب المصري الحديث – القاهرة .

وأخبرهم أنهم بعد أن ينبتهم الله من الأرض فينمون ويكبرون ، ويلدون ثم يموتون ، ويعودون إلى الأرض مرة ثانية ، فتتحلل أجسادهم وتصير تراباً ، ثم يخرجهم الله من الأرض للبعث والنشور .

وضرب لهم مثلاً بالأرض التي بسطها الله وثبتها بالجبال الرواسي ، ليعيش الإنسان عليها ، ويضرب في فجاجها ومسالكها ، يبتغي من فضل الله – سبحانه وتعالى – قال الله – عز من قائل – : " أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ، واللهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ، واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً ، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً " [1] .

ومع ذكر نوح – عليه السلام – هذه الآيات البينات الدالة على وحدانية الله – سبحانه وتعالى – فإن قومه جحدوا بها ، وعصوا وأصروا على ضلالهم ، واستكبروا استكبارا ، وهو لا يكف عن دعوتهم وإرشادهم ، وسلك كل الطرق الحكيمة لإنقاذهم من الضلال ، وإبعادهم عن عبادة الأصنام . فلم تفلح دعوته ، بل قابلوا الإحسان بالإساءة وآذوه إيذاءا شديدا واتهموه بالاتهامات الخطيرة .

صبر نوح على إيذاء قومه :

تحمل نوح – عليه السلام – من قومه ألواناً من الإيذاء والعذاب ، وصبر عليها ، وجاهد قومه جهاد الأبطال ، وكان صبره صبر الجبال ، فكلما ازداد قومه في إيذائه واضطهاده ، ليصرفوه عن دعوته ، ازداد صبراً وثباتاً وتبليغاً للدعوة .

(١) آيات : ١٥ – ٢٠ / نوح .

روى المفسرون أن نوحا – عليه السلام – كان يأتي قومه فيدعوهم إلى الله – تعالى – فيجتمعون عليه ويضربونه ضرباً مبرحاً ويخنقونه حتى يغشى عليه، ثم يلفونه في حصير ويرمونه في الطريق . ويقولون : إنه سيموت بعد هذا اليوم . فيعيد الله – سبحانه – إليه قوته ، فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله . فيفعلون به مثل ذلك [1] وهكذا بقى يؤذي ويعذب وهو مع ذلك صابر لا يدعو على قومه بالعذاب . وإنما كان يؤمل فيهم أو في أبنائهم الخير والإصلاح . ويقول : لعل الله يخرج من أصلابهم من يستجيب لدعوتي ، ويؤمن بالله .

وكان الرجل منهم يوصي ابنه قائلاً له : احذر هذا – يريد سيدنا نوح – عليه السلام – فإنه كذاب . وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية . فيموت الكبير، وينشأ الصغير على ذلك .

وظل نوح – عليه السلام – يدعو قومه ، ويصبر على آذاهم مدة خمسين وتسعمائه سنة [2] . ولم يؤمن به إلا القليل منهم . وكلما انقرض جيل ، جاء من بعده أخبث وألعن ، فقد كانوا يوصون أبناءهم بعدم الإيمان به . فكان الوالد يقول لولده إذا بلغ رشده : " يا بني احذر هذا لا يغرنك عن دينك وآلتهك " [3] .

وقد اتهم قوم نوح ، نوحاً باتهامات خطيرة منها :

١– اتهموه بالجنون . وقص القرآن الكريم ذلك . يقول الحق – تبارك اسمه – : " كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ " [4].

(١) الثعالبي : قصص الأنبياء ، ص:٨٠ .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٤/٤٢٤ .
(٣) الشيخ محمد علي الصابوني : النبوة والأنبياء ، ص:١٤٠ ، ١٤١ .
(٤) آية ٩ / القمر .

وتحدث القرآن الكريم عما يجرى على لسانهم من رميـه بـالجنون . يقول الله – تعالى – : " إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ، فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ " (١) .

٢- رموه بكثرة الجدل والافتراء على الله ، وفي ذلك يقول – عز من قائل – حكاية عنهم : " قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " (٢) .

٣- اتهامه بالسفه والضلال . قال – تعالى – : " قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينَ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (٣)

٤- وقد بالغ قوم نوح في تهديده بأن يكف عن مواصلة دعوتهم بقولهم له : " لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ " (٤) .

وهكذا فقد نال نوح – عليه السلام – من قومـه الأذى والعنـت والاتهامـات الكثيرة ، فصبر عليها ، وبذل من التضحيات في سبيل دعوته ما لم يقـدر عليه غيره . ومع ذلك فلم يؤمن بدعوته إلا القليل من الضعفاء والمساكين .

الذين آمنوا بدعوة نوح :

آمن بدعوة نوح – عليه السلام – القليل من الضعفاء والمساكين ، الذين رأوا في دعوته نصيراً لهم ، وخلاصاً من ظلـم مجـتمعهم لهـم . أمـا المـلأ وأصحاب النفوذ والسلطان فقد أعرضوا عن دعوته ، وأصروا واستكبروا ،

(١) آية ٢٥ / المؤمنون .
(٢) آية ٣٢ / هود .
(٣) آية ٦٠ – ٦٢ / الأعراف .
(٤) آية ١١٦ / الشعراء .

وظنوا أن نوحاً – عليه السلام – يبتغي من وراء رسالته مجداً وشهرة ، وأنه يريد أن ينال فضلاً لا يستحقه ، وأنه ليس بنبي ، ولو أراد الله أن يبلغهم رسالة لأنزل ملائكة ، لأنهم – كما يزعمون – أولى بالرسالة من البشر .

ثم رموه بالجنون وقالوا لبعضهم : انتظروا بنوح بعض الوقت حتى يبرأ من جنونه . يقول ربنا – جلت قدرته – : " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ . فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنزَلَ مَلاَئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ . إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ [١] .

وقد عاب قوم نوح الكافرين عليه أن الذين اتبعوه هم الضعفاء والفقراء. وسموهم الأراذل ، وطلبوا منه أن يطردهم حتى يتسنى لهم أن يفكروا في قبول دعوته . لأنه لا يليق بهم – وهم سادة القوم وأشرافهم – أن يجالسوا هؤلاء ، ويكونوا معهم صفاً واحداً .

فبين لهم نوح – عليه السلام – في جلال وروعة البيان ، أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده ، وإن أدعوا لأنفسهم فضلا ، فهم ليسوا بأهل له، لأن المفاضلة بالتقوى والإيمان : " إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ " [٢] .

ووضح لهم إن كانوا قد كرهوا هذا الدين – وهو رحمة لهم – ، فلأنهم قد عُميت أبصارهم عن الحق ، فلم يروه ، ولم يتذوقوا جماله . وهو لذلك لا يلزمهم بإتباعه ما داموا له كارهين [٣] .

(١) آية ٢٣ – ٢٥ / المؤمنون .
(٢) آية ١٣ / الحجرات .
(٣) القرطبي : في تفسيره ج٣٣٤٣/٤ ، ٣٣٤٤ .

ثم يبين حقيقة الذين اتبعوه من الضعفاء ، والذين كانوا يسمون بالأراذل، فسماهم المؤمنين ، وهي تسمية تُعَلي من قدرهم ، وترفع من شأنهم . ورفض أن يطردهم من صحبته تقديراً لإيمانهم ، وخوفاً من غضب الله عليه إن طردهم .

ثم صَرَّحَ لهم عن حقيقته بأنه نبي رسول ، أرسله الله لهدايتهم ، وأنه لا يملك المال ، الذي يستعلون به على الناس ، ولا يعلم الغيب حتى يخبرهم بما سيكون من حالهم ، ولا يدعى أنه ملك حتى ينال رضاهم في زعمهم بأن الملائكة أولى بالنبوة من البشر (١) . قال الله – تعالى – : " فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا ، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ . وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ "(٢) .

قوم نوح يستمرون في عنادهم :

تمادى قوم نوح – عليه السلام – في إصرارهم وبقائهم على الضلال والهلاك، وعدم استجابتهم لدعوة نبيهم نوح وعكفوا على عبادة أصنامهم (وَدّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر). يعبدونها من دون الله ، واستمر

(١) د. محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء ، ص:٦٩ .

(٢) آيات : ٢٧ – ٣١ / هود .

طغيانهم يزداد يوماً بعد يوم . ونوح لا يكف عن دعوتهم ، لعل الله يهـديهم فيشرح صدروهم لقبول دعوته ، فهددوه بالرجم إن لم ينته عن دعوته . قال – سبحانه – على لسانهم : "قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ"(١) . ما الذي فعله نوح ، حتى يحكم عليه هؤلاء الطغاة بالموت رجماً . إنه لـم يرتكب ما يوجب ذلك ، وإنما قال لهم اعبدوا الله وحده لا شريك له ، ودعوا ما تعبدون غيره من أصنام وأوثان .

ثم طلب قوم نوح منه – عليه السلام – أن يعجل لهم بالعقاب والعذاب اللـذان يخوفهم بهما إن ظلوا على الكفر والعناد . فقالوا له : "يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَـا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " (٢) أي يا نوح لم تترك حجة إلا ذكرتها حتى مللنا وسئمنا ، ولم يبق لدينا شيء نقوله ، فأتنـا بمـا تعدنا من عذاب الله في الدنيا ، الذي تخافه علينا .

فرد عليهم نوح – عليه السلام – : " يا قوم هذا العذاب بيد الله – سبحانه – لا أملكه ، وهو الذي يأتيكم به وفق إرادته ومشيئته ، ولن تفروا منه إن أخره الله لحكمة يعلمها ، وهو واقع لا محالة .

موقف نوح بعد عصيان قومه :

لم يترك نوح – عليه السلام – حجـة إلا اتخـذها ، ولا طريقـاً إلا سـلكه لإصلاح قومه . ولكنهم عصوا وأصروا وتمادوا في عنادهم وكبرهم . وفي وسط هذا الجو المشحون بالغيوم لجأ نوح إلى ربه ، ليجعل له من الضـيق فرجاً ومخرجاً فقال : " رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ.فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي

---

(١) آية ١١٦ / الشعراء .
(٢) آية ٣٢ / هود .

وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " (١) .

وبين نوح أن قومه عصوه وتمسكوا بعبادة الأصنام فقال : " رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً • وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً • وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً • وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً " (٢) .

وأوضح أنه دعا قومه بالليل والنهار ، بالسر والعلن . فأصروا على ضلالهم ، واستكبروا أن يدخلوا في دعوته . فقال : " رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً • فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً • وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً " (٣) .

فأوحى الله – تعالى – إلى نوح – عليه السلام – أنه لن يدخل في الإيمان ، ويستجيب لدعوته إلا من قد آمن من قبل ، فلا يحزنك ذلك . قال الله – سبحانه – : " وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ " (٤) .

فخشي نوح من بقاء هؤلاء الكافرين على كفرهم ، أن يضلوا المؤمنين، لمجاورتهم لهم . فدعا عليهم قائلاً : " رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً • إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً " (٥) .

---

(١) آية ١١٧ ، ١١٨ / الشعراء .
(٢) آية ٢١ – ٢٤ / نوح .
(٣) آية ٥ – ٧ / نوح .
(٤) آية ٣٦ / هود .
(٥) آية ٢٦ ، ٢٧ / نوح .

ودعا نوح – عليه السلام – له ولوالديه ولمن آمن معه بالغفران ، والنجاة من الهلاك ، وعلى الظالمين بالخسران في الدنيا والآخرة . فقال : " رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً " (١) .

فاستجاب الله – تعالى – لدعاء نوح – عليه السلام – ونجاه وأهله من الكرب العظيم ، وحكم على قومه الكافرين بالإغراق والهلاك. قال الله – تعالى – : " وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ • وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ " (٢) .

وقوله – عز وجل – : " وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ • وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ • وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ • وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ • سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ • إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ • إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ • ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ "(٣) .

وقال – تبارك اسمه – : " قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ • فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ • فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ • ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ • إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ • وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ " (٤) .

---

(١) آية ٢٨ / نوح .

(٢) آية ٧٦، ٧٧ / الأنبياء .

(٣) آية ٧٤ – ٨٢ / الصافات .

(٤) آية ١١٨ – ١٢٣ / الشعراء .

وقول الله – جل في علاه – : " رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا " (١) . وقول الحق – تبارك وتعالى – : " وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ " (٢) .

ومن ذلك ندرك أن نوحاً – عليه السلام – لما يئس من صلاح قومه وفلاحهم، ورأى أنه لا خير فيهم ، وأنهم خالفوا دعوته وكذبوه وآذوه بكل الطرق والوسائل . دعا عليهم بالهلاك . فلبى الله دعوته ، وأجاب طلبه (٣) . وأوحى الله إليه أن يصنع السفينة .

سفينة النجاة :

أوحى الله – تعالى – إلى نوح – عليه السلام – أن يصنع السفينة ، ليركب فيها ومن معه من المؤمنين ، لأن الله – سبحانه – قد حكم على قومه بالهلاك غرقاً. جزاء ضلالهم وكفرهم ، وإعراضهم ، واستعجالهم العذاب في الدنيا.

ولم تكن صناعة السفن معروفة من قبل ، فعلم الله نوحاً كيفية صنعها ، إما بالإلهام ، أو بالوحي عن طريق سيدنا جبريل – عليه السلام – .

وشرع نوح في بناء السفينة ، فقطع أشجار الساج ، أو الصنوبر ، واستخدم أخشابها في الصناعة ، ورآه قومه فسخروا منه . وقالوا له : يا نوح صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً (٤) . وماذا تصنع بتلك السفينة ، هل تسير بها على الأرض من غير ماء. وكانت المسافة بينهم وبين المياه بعيدة.

---

(١) آية ٢٦ / المؤمنون .

(٢) آية ٣٧ / هود .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/١٢٦ .

(٤) القرطبي : في تفسيره ج٤ / ٣٣٤٩ .

فرد عليهم نوح رداً مُفحماً : إن كنتم تسخرون منا اليوم لجهلكم بفائـدة السفينة . فإنا نسخر بكم غدا ، عندما يحل علـيكم عقـاب الله فـي الـدنيا بالإغراق . وفي الآخرة بالعذاب الأليم الدائم .

قال الله – تعالى – : " وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَـلأٌ مِّـنْ قَوْمِـهِ سَخِرُوا مِنْهُ . قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ " (١) .

وقد اختلف المؤرخون والمفسرون في طول السفينة وعرضها . فقـال عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – : كان طول السفينة ثلثمائة ذراع ، وعرضـها خمسون ، وسمكها ثلاثون ذراعاً (٢) ، وارتفاعها ثلاثون ذراعاً .

وقال الحسن البصري : إن طول السفينة ستمائة ذراع فـي عـرض ثلثمائة (٣) وارتفاعها ثلاثين ذراعاً .

وروى الطبري بسنده عن الحارث قال : كان طول سفينة نـوح ألـف ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع (٤) .

وقام نوح – عليه السلام – بدهان السفينة من الداخل والخـارج بطبقـة مـن القار، لحماية الخشب من تأثير الماء فيه ، واستخدام المسامير في صـنعها لقول الله – تعالى -: " وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ " (٥). أي على السفينة المصنوعة من الخشب والمسامير وجعلها سيدنا نوح – عليه السلام – ثلاثة طوابق

---

(١) آية ٣٨ / هود .
(٢) القرطبي : مصدر سابق ج٤/٣٣٤٩ .
(٣) ابن كثير : البداية ج١/١٢٧ .
(٤) تاريخ الرسل ج١/١٨١ .
(٥) آية ١٣ / القمر .

كل واحدة عشرة أذرع ، السفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للناس ، والعليا للطيور . وكان بابها في عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها [١] .

فلما أتم نوح – عليه السلام – صنع السفينة أعطاه الله علامة للركوب فيها . وهي أنه إذا رأى الماء ينبع ويفور من الفرن الذي يخبز فيه . علم أن ساعة القصاص قد حانت وأن أمر الله قد نفذ في أعداء دينه . قال الله – تعالى –: **" حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن "** [٢] .

فلما رأى نوح نبع الماء من التنور وارتفاعه بشده ، كما تفور القدر بغليانها ، ركب في السفينة ، وحمل فيها من كل زوجين اثنين ، من أنواع الحيوانات ، ذكر وأنثى ، لتبقى بعد غرق سائر الأحياء ، فتتناسل ، ويبقى نوعها على الأرض .

وأمره الله – كذلك – أن يحمل في السفينة أهل بيته ذكراناً وإناثاً ، إلا من سبق عليه القول بأنهم من المغرقين ، بسبب ظلمهم وكفرهم . وقيل إنهم كانوا ثمانية : نوح وزوجه ، وأبناءه الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث وأزواجهم [٣] . كما يحمل فيها كل من آمن بدعوته ، وصدق برسالته . قال عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – إنهم كانوا ثمانين رجلا بأزواجهم [٤] . ولكن العلم عند الله – تعالى – في معرفة العدد الصحيح ، لأنه لم يرد نص صريح في كتاب الله ، ولا في سنة رسول الله – ﷺ – .

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء ، ص:٩٢ .
(٢) آية ٤٠ / هود .
(٣) القرطبي : في تفسيره ج٤/٣٣٥٣ .
(٤) ابن كثير : البداية ج١/١٢٨ .

وبعد أن ركب نوح في السفينة ومن آمن معه ، تفجرت عيون الأرض، وانهمر المطر من السماء ، وزحفت الأمواج العاتية على اليابسة ، لتبتلع كل ما يصادفها من إنسان أو حيوان أو أشجار أو جبال . وارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعاً [١] . وعم جميع الأرض طولها وعرضها ، سهلها ووديانها وجبالها ، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف [٢] فقد غمرهم الماء ، وجرفهم الطوفان . ولم يَنْجُ إلا ركاب السفينة .

نوح ينادي على ولده :

رأى نوح – عليه السلام – أن الطوفان يغمر الدنيا ، ولا يذر من شيء أتى عليه إلا طواه في جوفه . ثم رأى السفينة وهي تجري به وبمن آمن معه في أمان الله وحفظه ، في موج كالجبال ، فتطلع إلى ولده (كنعان) – الابن الرابع له – الذي كفر ولم يتبع دعوته ونصح أبيه له ، ففر إلى جهة لم يكن قد وصلها الماء ، فنادى عليه نوح بعاطفة الأب ، وقلبه الرحيم " **وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ** " [٣] . الذين قضى الله – سبحانه – عليهم بالهلاك .

فرد الابن الجاحد ، الذي أبى أنْ يُجِبْ داعي الإيمان ، وسلك طريق الشيطان قائلاً : " **سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ** " [٤] . ظن الولد أن هذا الماء سيلاً عادياً ، تصده التلال ، وتعصم منه الجبال ، فصار إلى جبل

(١) اليعقوبي : في تاريخه ج١/١٤ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ج١/٥٤ .
(٢) ابن كثير : البداية ج١/١٣٠ .
(٣) من آية ٤٢ / هود .
(٤) من آية ٤٣ / هود .

عال ، يتحصن به كي يحفظه من الغرق .

فبين له نوح خطأه بأنه لا شيء يعصم أحداً في هذا اليوم العصيب من عذاب الله ، للذين أشركوا به ، وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بطغيانهم في البلاد . فقال له : " لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ " (١) .

نداء نوح لربه :

في أثناء الحوار الذي دار بين نوح – عليه السلام – وولده كنعان ، كان الماء قد بدأ يرتفع حتى حال بينهما ، فكان الابن من المغرقين الهالكين ، الذين حلت عليهم نقمة الله – عز وجل – . تذكر نوح وعد الله له بأنه منجوه وأهله . فظن أن ولده هذا من الذين كتبت لهم النجاة ، لأنه من أهله . فنادى – عليه السلام – ربه قائلاً : " رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ " (٢) .

فعاتبه الحق – تبارك وتعالى – بقوله : " قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " (٣). أي يا نوح إن هذا الولد ليس من أهلك الذين أمرتك أن تحملهم في السفينة لانجائهم ، لأنه ذو عمل غير صالح . وتسألني يا نوح عن شيء ليس لك به علم صحيح ، حتى لا تكون من زمرة من يجهلون .

عندها أدرك نوح أن ولده ممن سبق عليه القول بالهلاك . وأنه بكفره

(١) آية ٤٣ / هود .
(٢) آية ٤٥ / هود .
(٣) آية ٤٦ / هود .

وخروجه عن الحق أصبح غريباً ، ولم يعد من أهله . فطلب نوح من ربه أن يغفر له هذه الذلة ، ومع أنها هينة ويسيره إلا أنها كبيرة من النبي فقال : " رَبِّ إِنِّيَ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ " [١]. فغفر الله له ، وقبل توبته .

هبوط نوح ومن معه من السفينة :

ظلت سفينة النجاة مدة أيام الطوفان تسير في موج كالجبال العاتية ، وتنتقل من مكان لآخر ، حتى أذن الله – تعالى – للأرض أن تبتلع ماءها ، وللسماء أن تمسك عن إنزال المطر . فاستقرت على جبل الجودي ، وهو جبل عظيم إلى جانب نهر دجلة عند مدينة الموصل [٢] بالعراق . قال الله – تعالى – : " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ . وَقُضِيَ الأَمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " [٣] .

وكانت مدة مكث نوح ومن معه في السفينة مائة وخمسين يوماً [٤] قال عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – : " كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم ، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً . وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ، ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه) [٥] .

---

(١) آية ٤٧ / هود .

(٢) الطبري : في تاريخه ج١/ ١٨٥ ، ١٨٦ ، وأنظر كذلك ابن سعد : الطبقات ج١/٥٥ ، اليعقوبي : في تاريخه ج١/١٥ .

(٣) آية ٤٤ / هود .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ، ص:٢٢ .

(٥) ابن كثير : البداية ج١/١٣٤ .

وحين استقرت السفينة على الجودي أمر الله نوحا ومن معه أن ينزلوا منها بسلام وأمان وبركات من الله – سبحانه وتعالى – : " قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ " (١) .

وكان نزولهم من السفينة في اليوم العاشر من المحرم (يوم عاشوراء) فصام نوح ذلك اليوم شكراً لله ، وأمر من معه من المؤمنين أن يصوموه ، وقد توارث بنوا إسرائيل صيام هذا اليوم ، ولما ظهر الإسلام وقدم الرسول – ﷺ – المدينة المنورة فرأى اليهود يصومونه فأمر بصيامه .

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: (قدم النبي – ﷺ – المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء . فقال : ما هذا ؟ . قالوا هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم. فصامه موسى . قال : فأنا أحق بموسى منكم ، فصامه وأمر بصيامه)(٢).

وأخرج الترمذي عن النبي – ﷺ – أنه قال : (صيام يوم عاشوراء أني احتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله) .

ونزل مؤمنوا السفينة على أرض قد طهرها الله من رجس وعدوان وكفر الظالمين ، فلم يترك الله عليها أحداً منهم أبدا . تقول السيدة عائشة – رضي الله عنها – : (إن رسول الله – ﷺ – قال : لو رحم الله أحداً من قوم نوح ، لرحم أم الصبي . قال : كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله – عز وجل – حتى كان آخر زمانه غرس

---

(١) آية ٤٨ / هود .

(٢) صحيح البخاري : ج٣/٣٥٤ كتاب الصوم . باب صيام يوم عاشوراء .

شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ، ثم جعل يعمل سفينة ، فيمرون فيسألونه فيقول : أعملها سفينة . فيسخرون منه ويقولون : تعمل سفينة في البر ، فكيف تجري ! . فيقول : سوف تعلمون .

فلما فرغ منها وفار التنور ، وكثر الماء في السكك ، خشيت أم الصبي عليه – وكانت تحبه حباً شديداً – فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثي الجبل، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت عليه . فلما بلغ الماء رقبتها وهي على الجبل رفعته بيدها حتى ذهب به الماء . فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي)[١] .

وعاش نوح ومن معه في أمان الله ورعايته ، وبركات في المعاش والأرزاق ، تفيض عليهم على ذريات يتناسلون منهم . واستأنف مسيرة الدعوة إلى الله – تعالى – ، وعبد الجميع الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخلصوا القول والعمل .

وجعل الله – تعالى – من أولاد سيدنا نوح – عليه السلام – وهم : سام ، وحام ، ويافث ، أهل الأرض ، فكل الخلائق جاءوا من نسلهم . قال – سبحانه وتعالى – : " وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ " [٢] . فسام هو أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم .

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن سَمُره قال : قال رسول الله – ﷺ – : (سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم) .[٣] .

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٨٠ ، القرطبي : في تفسيره ج٤/٣٣٥٩ .

(٢) آية ٧٧/ الصافات .

(٣) الإمام أحمد : في مسنده ج٥/٩ ، الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٠٩ .

وروى الطبري بسنده عن سعيد بن المسيب - ﷺ - قال : (ولد لنوح سام وحام ويافث . فولد لسام : العرب وفارس والروم . والخير فيهم . وولد لحام : القبط والسودان والبربر . وولد ليافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج)(١) .

وفاة نوح - عليه السلام - :

عاش نوح - عليه السلام - مدة بعد الطوفان ، اختلف الكثير في تحديدها . ولكن الأمر الواضح الجلي ، أنه عاش قبل الطوفان تسعمائة وخمسين سنة . ولما حضرت نوح الوفاة جمع أولاده : سام ، وحام ، ويافث . فأوصاهم وأمرهم بعبادة الله - سبحانه - وتسبيحه وتنزيهه ، والعمل الصالح ، وقول الصدق ، وإن يزرعوا ويثمروا ويعمروا الأرض ولا يفسدوا فيها (٢) .

ويذكر بعض المؤرخين : إنه حين حضرت نوح الوفاة ، ودعا ولده سام. وكان أكبر أولاده ، فجعله ولي عهده ، وأوصاه بقوله : (يا بني أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين ، أما اللذان أنهاك عنهما فالإشراك بالله ، والكبر . فإنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من الشرك والكبر .

وأما اللذان أوصيك بهما فإني رايتهما يكثران الولوج إلى الله - تعالى-: قول لا إله إلا الله ، وسبحان الله . فإن قول لا إله إلا الله لو اجتمعت السموات السبع والأرضون السبع لخرقتهما حتى تبلغ إلى ربها . ولو جعلت لا إله إلا الله في كفة ميزان ، والسموات السبع والأرضين السبع في كفة ، لرجحت كفة لا إله إلا الله .

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢١٠ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ، ص:٢٣ ، اليعقوبي : في تاريخه ، ج١/١٦ .

وأوصيك بسبحان الله ، (فإنها صلاة الخلق ، وبها يرزقون)(١) ثم سلَّم الروح لخالق الأرواح – جل في علاه – وغسله بنوه وكفنوه ودفنوه بالقرب من المسجد الحرام بمكة المكرمة على الأرجح (٢) .

ويروي أن سيدنا نوح – عليه السلام – حين حضرته الوفاة ، قال لـــه مـــن حضره : ماذا وجدت الدنيا يا أطول الأنبياء عمراً ؟ . قال : (وجدتها كدار لها بابان ، دخلت من أحدهما ، وخرجت من الآخر) (٣) .

وهكذا ينبغي على المؤمن أن تكون نظرته للدنيا على أنها زائلة فانية ، فمهما طال عمره فيها فإنه تاركها لا محالة . ولذا عليه أن يعمل للآخـــرة ، وهي خير وأبقى .

رحمك الله يا نوح ، يا أطول الأنبياء عمراً ، ويا من أنت أول نذير عن الشرك (٤) .

---

(١) الثعالبي : قصص الأنبياء ، ص: ٨٧ ، ابن كثير : البداية ج١/١٣٧ ، وقصص الأنبيـــاء ص:١٠٨ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة .

(٣) د. محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء ، ص:٧٨ .

(٤) الثعالبي : قصص الأنبياء ، ص:٨٧ ، ٨٨ .

الفصل الرابع

(إبراهيم - عليه السلام -)

- نسبه ونشأته .
- ميلاده .
- زواج إبراهيم بسارة .
- رسالة إبراهيم .
- دعوة إبراهيم لأبيه .
- دعوة إبراهيم لقومه .
- عبادة النجوم والكواكب .
- إبراهيم يكيد لأصنام قومه .
- محاكمة إبراهيم .
- عناية الله لخليله .
- مناظرة إبراهيم للنمرود .
- هجرة إبراهيم إلى فلسطين .
- هجرة إبراهيم إلى مصر .
- عودة إبراهيم إلى فلسطين .
- نبع ماء زمزم .
- الذبيح إسماعيل .
- اليهود يدعون أن الذبيح إسحاق .
- البشارة بإسحاق .
- زواج إسماعيل .
- إبراهيم يزور ولده بعد الزواج .
- بناء البيت الحرام .
- صدق الخليل .
- وفاة الخليل .

الفصل الرابع

(إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ)

نسبه ونشأته :

هو إبراهيم بن آزر بن سروح بن رعو بن فالح بن عامر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح – عليه السلام –[١].

وسُمي بأبي الأنبياء لأن له ولدين من الأنبياء هما : إسماعيل وإسحاق. وكان من ذرية إسماعيل سيدنا محمد – ﷺ – ، ومن ذرية إسحاق جميع أنبياء بني إسرائيل .

وأمه تُسمى : بُونَا بنت كرني بن كوثي ، من بني أرفخشذ بن سام بن نوح – عليه السلام – .

ولُقّبَ إبراهيم بخليل الرحمن . وكنى (أَبَا الضَيْفَان)[٢] ، لكثرة ضيوفه وزواره . فقد كان مضيافاً يغدق الكرم الوفير على الضيوف ، ويذبح لهم الشاه والنعم .

وقد تحدث القرآن الكريم عن سخائه وكرمه مع الملائكة ، الذين أرسلهم الله – تعالى – قوم لوط – عليه السلام – فمروا به يُبشرونه بغلام . فلما رآهم ظنهم من البشر ، فأسرع إلى أهله ، وذبح لهم عجلاً سميناً ، ثم شواه وقَدَّمَهُ لهم ، فلما رأى أيديهم لا تمتد إليه ، أوجس منهم خيفة ،

---

(١) الطبري : في تاريخه ج١/٢٣٣ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج/٢٧ .

(٢) اليعقوبي : في تاريخه ج١/٢٦ ، ابن كثير : قصص الأنبياء ص١٤٣ .

وحذر منهم ، فأخبروه أنهم ملائكة .[١] يقول الله – تعالى – : " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ " [٢].

وقد وردت قصة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في القرآن الكريم في مواضيع كثيرة ، وفي سور متعددة وهي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والأنعام ، والتوبة ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر ، والنحل ، ومريم ، والأنبياء ، والحج ، والشعراء ، والعنكبوت ، والأحزاب ، والصافات ، والشورى ، والزخرف ، والذاريات ، والنجم، والحديد ، والممتحنة ، والأعلى .

وتشمل كل سورة من السور المذكورة على مشهد معين ، فإذا ما تتبعنا تلك المشاهد من هذه السور وجدناها ترسم صورة متكاملة لقصة إبراهيم – عليه السلام – ولا يتبادر للذهن أن هناك تكراراً . لا ، فكل منها تتحدث عن جانب معين من شخصيته أو عن جهاده مع قومه . فكل سورة تكمل مع غيرها صورة متكاملة له .

---

(١) القرطبي : في تفسيره ج٩ /٦٤٤٥ – ٦٤٤٦.

(٢) آيات : ٢٤ – ٢٨ / الذاريات .

ميلاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

وُلِدَ إبراهيم – عليه السلام – في الجنوب من أرض العراق فيما يُعرف بالسواد . أي الأرض الخصبة التي تجود فيها زراعة كل المحاصيل . وقيل ولد في السوس بالأهواز [(١)] . وقيل ببابل [(٢)] . وقيل بالوركاء من ناحية كسكر [(٣)] . وقيل بحران [(٤)] .

وقبل ولادته جاء المنجمون إلى النمرود بن كنعان . وكان ملك الشرق والغرب – في ذلك الوقت – ، واتخذ من مدينة بابل عاصمة لملكه . وكان ملكاً ظالماً متجبراً . فجاء إليه أصحاب النجوم ، واخبروه بأنه سَيُولد غُلام في بلدته يُقال له إبراهيم . يفارق دينكم ، ويكسر أصنامكم في شهر كذا ، في سنة كذا فلما جاءت تلك السنة بعث النمرود إلى كل امرأة حُبْلى ببلدته ، فحبسها عنده ، فجعل لا تلد امرأة في ذلك الشهر من تلك السنة إلا أمر بذبحه .

---

(١) الأهواز : كورة كبيرة بين البصرة وفارس ، وتضم سبع مدن ، لكل منها اسم – ياقوت : معجم البلدان ج١/٢٨٤ طبعة دار صادر بيروت سنة ١٩٧٧م .

(٢) بابل : مدينة بالعراق كانت تقع قرب الحلة ، وقد خُرِّبَت ، وإلى جانبها الآن قرية عامرة تُسمى بابل – د. السيد محمد يونس : الفتوحات وأثرها في نشر الإسلام .

(٣) مدينة عراقية ، تشتهر بكثرة إنتاج الشعير ، ومعنى كسكر – أرض الشعير – البكري : معجم ما استعجم ج٤/١١٢٨ .

(٤) حَرَّان : مدينة بأرض الجزيرة ، قليلة الماء والشجر . مدينة الصابئيين ، وبها سدنتهم (١٧) . وبها تل عليه مصلى يعظمه الصابئون . ويُنسب إلى إبراهيم – عليه السلام – الإصطخري: المسالك والممالك ص٥٤ – نشر دار الثقافة مصر ١٩٦١م .

أما أم إبراهيم – عليه السلام – فإنه لم يُعلم بحبلها ، لأنها كانت امرأة حديثة السن ، لم تعرف الحبل ، ولم تظهر عليها علاماته . فلما جاءها المخاض خرجت ليلاً إلى مغارة قريبة من دارها ، فولدت إبراهيم – عليه السلام – وأصلحت من شأنه ما يصلح المولود . ثم سدت عليه المغارة ، خشية الوحوش والسباع ، ورجعت إلى بيتها . وكانت تتعهده بين الحين والحين ، فتجده حياً يمص إبهامه . فكان سريع النمو ، إذ كان يَشُبُّ في اليوم ما يشب غيره في شهر ، والشهر كالسنة [١] .

وبمرور الزمن نسى الملك ما قاله المنجمون ، وسكت عن الأمر ، فخرج إبراهيم من المغارة واختلط بالناس ولم ينتبه إليه أحد .

وكان ميلاد إبراهيم – عليه السلام – ووالده في سن الخامسة والسبعين . وكان هو الولد الأكبر لأبيه . وجاء بعده أخواه : (ناحور) و(هاران). وولد لهاران ولد يُسمى (لوط) [٢] ، الذي صار فيما بعد نبياً ، وأشرك مع عمه إبراهيم في النبوة . وبنت تُسمى (سارة) هي التي تزوجها إبراهيم – عليه السلام – . ومات (هاران) في حياة أبيه آرز[٣] .

---

(١) الطبري : في تاريخه ج١/٢٣٤ ، ٢٣٥ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص:١٠٦ ، ابن الأثير : الكامل ج١/٧٢ ، ٧٣ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/١٥٩ .

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص٣١ .

زواج إبراهيم بسارة :

لما بلغ إبراهيم – عليه السلام – مبلغ الشباب ، تزوج بامرأة تُسمى سارة بنت هاران ، ابنة عمه [١] . وكانت على درجة عالية من الجمال والروعة . وكان سيدنا إبراهيم – عليه السلام – يحبها حباً شديداً ، لدينها ولقرابتها منه ، ولحسنها الباهر . وقد قيل : إنه لم يُلد امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها [٢].

وكانت عقيماً لا تلد ، ثم أصلحها الله لزوجها ، فأنجبت إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب – عليهما السلام – ، بعد زواج إبراهيم بهاجر ، وإنجابها منه ولده إسماعيل – عليه السلام – .

وكان إسحاق أكثر شبهاً بأبيه ، ولم يفصل بينهما سوى الشيب ، الذي اعترى راس إبراهيم – عليه السلام – [٣] .

نشأة إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

نشأ إبراهيم – عليه السلام – في العراق بين قوم يعكفون على عبادة الأصنام والأوثان من دون الله – عز وجل – . وكان والده آزر نجاراً يصنع التماثيل ، وينحت الأصنام ، ويضعها في صور مختلفة : إنسان، حيوان ، طير. وفي بعض الأحيان كان يُعطيها إلى ولده إبراهيم ليبيعها في الأسواق، فكان يمر بها في السوق وينادي بأعلى صوته:مَنْ يشتري

---

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج١/٢٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/١٧٣ .

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص٣١، اليعقوبي : في تاريخه ج١/٢٦ .

أصناماً تضره ولا تنفعه ، ولا تغني عن الحق شيئاً . فيعــرض عنهــا الناس ، ويعود بها فيغمسها في الماء ويقول لها ســخرية واســتهزاء: اشربي [١] .

في حين كان يرجع أخوته من السوق ، وقــد بــاعوا أصــنامهم وعادوا فرحين إلى أبيهم [٢].

وكان إبراهيم – عليه السلام – قبل أن يصطفيه الله خليلاً ، ويختاره نبيــاً ورسولاً ، كان يتأمل في الكون من حوله ، وما يحيط به مــن أســرار دقيقة . فعرف بصائب رأيه ، وثاقب فكره ، أن الله واحد أحد ، فــرد صمد ، لم يلد ولم يُولد ، ولم يكن له كفواً أحد . وأنــه مُهــيمن علــى الكون ، مُسيطر على العالم ، وأدرك أن الأصنام التي يعبدها قومــه ، والتماثيل التي ينحتونها لا تغني عنهم شيئاً ، ولا تنفعهم ولا تضــرهم . فتاقت نفسه للخلاص منها ، وإطلاع قومه على حقيقة أمرهــا ، حتــى يعودوا إلى رشدهم ، ويسلكوا الطريق الصحيح .

وكان يحكم الدنيا في عهد سيدنا إبراهيم ملك يُسمى النمرود بــن كنعان ، ملك جبار ، طاغية ، قبض على زمام الأمور في بابل . وذكر المؤرخون أنه كان من الملوك الأربعة الذين ملكوا الــدنيا ، أمــا مــا سواهم فقد ملكوا بلداً أو بلاداً . فقالوا : (ملك الأرض أربعة مؤمنــان وكافران . فأما المؤمنان : فذو القرنين الذي تحدثت عنه سورة الكهف. وسليمان بن داود – عليهما السلام – . وأما الكافران فهما : النمــرود هذا وبختنصر [٣] .

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ابن الأثير : الكامل ج١/٧٣ .

(٢) المصدر السابق الأول ج١/٢٣٧ .

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص٣٢ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص١٠٤ ، ابن كثير : قصــص الأنبياء ص١٥٨ .

رأى النمرود نفسه حاكماً مطلقاً ، تحيط به قوة الملك والسلطان ، والقوم حوله يتخبطون في الجهالات . فأقام نفسه إلهاً ، ودعا الناس إلى عبادته .

في هذا الجو المشحون بالضلالات والجهالة ، والبعد عن طريق الحق ، نشأ إبراهيم ، ورأى ما عليه قومه من سلوك الطريق المعوج .

رسالة إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

حين شب إبراهيم – عليه السلام – وبلغ رشده ، من الله – سبحانه وتعالى – عليه رجاحة العقل ، وسداد الرأي ، والبعد عن فساد معتقدات قومه ، والغيب عليها . وجاء الوحي ونزل عليه جبريل – عليه السلام – يُبَشِرْهُ بأن الله – تعالى – قد اصطفاه خليلاً . واختاره نبياً ورسولاً ، وأرسله إلى قومه ، يدعوهم إلى عبادته وحده لا شريك له ، وترك ما يعبدون من أصنام وأوثان .

سُرَّ إبراهيم – عليه السلام – بتكليف الله له بالرسالة ، واصطفائه خليلاً للرحمن . وكان قلبه منعم بالإيمان بربه ، ممتلئاً بالثقة واليقين بوعد الله بالنصر له ، مُوقناً بما أوحى الله – تعالى – إليه من أمر الغيب ، وأمر الإيمان . ولكنه أراد أن يزداد بصيرة ، وثقة ، ويقيناً بقدرة الله – سبحانه وتعالى – ، فطلب من ربه أن يُريه الآية البينة على البعث . وأن يُطلعه على النشور ، فسأل ربه أن يريه كيف يُحيي الموتى بعد موتهم ، ويُبعثهم بعد فناء أجسامهم ، فخاطبه ربه بقوله: " **أَوَلَمْ تُؤْمِن ؟ . قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَ قَلْبِي** " [١] .

---

(١) من آية ٢٦٠ / البقرة .

لقد آمن إبراهيم وصَدَّقَ ، ولكن تاقت نفسه للعيان ، وامتدت عينه للمشاهدة ، ليرى عجائب قدرة الله – تعالى – ، ويُبصر دقائق خلقه وتصويره ، ويزداد يقينه .

فأمره الله – سبحانه وتعالى – أن يأخذ أربعة من الطير ، ويضمها إليه ليتعرف أجزاءها ، ويتأمل خلقها ، ثم يذبحها وينتف ريشها ، ثم يقطعها أجزاء ، ويفرقها أشلاء بحيث يصعب معرفة أجزاء كل طائر على حدة ، ثم يجعل على كل جبل منها جزءاً ، ثم يدعوهن فتأتيه سعياً بإذن الله . فلما فعل إبراهيم ذلك ، ودعاهن فعادت الأشلاء كل في مكانه ، وسرعان ما سرت فيها الحياة ، وسعت إليه بقدرة الواحد الأحد – جل في علاه – ، وهو يرى آيات ربه الكبرى في الخلق والإبداع ، فسبحان مَنْ إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون . قال الله – تعالى – : " ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى . قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ " (١) .

رأى إبراهيم – عليه السلام – أمام عينيه كيفية إحياء الله الموتى ، وكيفية البعث ، وترقى من عالم اليقين ، إلى عين اليقين . ولا يتبادر إلى ذهن أحد أن سؤال إبراهيم لربه " رب كيف تحي الموتى ؟ " شكاً في قدرة الله ، لا . بل سؤاله لا يفيد شكاً ، ولكنه من قبل زيادة علم بالعيان . فإن العيان يُفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال(٢).

(١) من آية ٢٦٠ / البقرة .

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج١/٣١٥ .

١ـ دعوة إبراهيم لأبيه :

كان آزر – والد إبراهيم – عليه السلام – ممن يعبدون الأصنام ، بل كان مما ينحتها ويبيعها . فرأى إبراهيم أن يدعوه إلى عبادة الله وحده ، والتخلي عن العبادة الفاسدة ، فهو أقرب الناس إليه وأولاهم بالهداية ، وأحقهم بإخلاص النصيحة .

وقد كان إبراهيم في دعوته مثالاً للولد البار ، الذي لا يريد إلا الخير لوالده ، فلم يَقسُ عليه في الكلام ، ولم يُعَنِّفْهُ ، بل خاطبه برفق وأدب ووقار ، وجادله بالتي هي أحسن . فبين له بطلان وفساد عبادة الأصنام ، لأنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تبصر ، ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها الضر ، فكيف تجلب الخير لمن يعبدها ، وتدفع عنه الشرور والمكائد ! . وأوضح له أن الاستمرار في عبادة الأصنام ، إنما هو انقياد للشيطان ، الذي عصا ربه ، فطرده من الجنة ، فهو يسول للناس ويُزَيِّن لهم طريق الشر والضلال . وقال له : يا أبت إن الله قد أفاض عليَّ من العلم ما لم يأتِك ، وقد أرسلني رسولاً ، لأرشد الناس إلى الطريق المستقيم ، فاستمع إليَّ واتبع دعوتي تكن من الناجين من النار ومن أهل الفلاح .

لكن آزر أصم أذنيه عن دعوة الحق ، وأغمض عينيه عن الحقيقة الظاهرة للعيان ، فلم يعتبر بمنطق الحجة والبرهان وأصر على الكفر والعناد ، وهدد ولده بالقتل والضرب ، إن عاد يذكر آلهته بسوء .

وقابل إبراهيم تهديد والده بصدر رحب ، ونفس مطمئنة ، واستغفر لأبيه ودعا الله – تعالى – أن يهديه سواء السبيل ، فيشرح صدره للإيمان ، فيؤمن .

قال الله – تبارك وتعالى – : " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً . يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً . يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً . يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً . قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً . وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً " (١) .

وهكذا فقد فشلت دعوة إبراهيم لأبيه ، وتمسك الأب بعبادة الأصنام ، ولم يصغ إلى نصيحة ولده ، ولو أطاعه لنال خيري الدنيا والآخرة . ولكنه التعصب الأعمى ، والعناد المدمر ، والتكبر والتعالي، وَوَدَّعَ إبراهيم أباه وانصرف وهو كاسف البال ، محزون الفؤاد ، لأن دعوته لم تجد آذاناً صاغية عند أبيه ، واعتزله حتى لا يكون معيناً له على الكفر . واتجه إبراهيم إلى دعوة قومه (٢) .

وقد استغفر إبراهيم لأبيه كما وعده في أدعيته حينا من الزمن ،

---

(١) آيات ٤١ – ٤٩ / مريم .

(٢) محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون : قصص القرآن ص ٣٨ -٤٩ طبعة ١٣ دار التراث بالقاهرة سنة ١٤٠٥ هـ /١٩٨٤م .

فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه [١] . قال الله – تعـالى – : " وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَـدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ " [٢] .

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة – ﷺ – قال . قال رسـول الله – ﷺ – : (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلـى وجـه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ . فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ . فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزي من أبي الأبعد ؟. فيقول الله – تعالى –: إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك ، فينظر فإذا هو بذيخ [٣] متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار) [٤] .

٢ـ دعوة إبراهيم لقومه :

دعا إبراهيم – عليه السلام – قومه إلـى توحيـد الله ، وإفـراده وحـده بالعبادة، وترك عبادة النجوم والكواكب والأصنام التي عبدوها من دون الله . وبَيَّنَ لهم بالحجة القوية ، والبرهان الساطع فساد هذه المعبودات. غير أنهم لم يستمعوا إلى دعوته ، وانصرفوا عن نصيحته ، وسـخروا من رسالته . فلم ييأس أو يسخط علـيهم ، ويتـركهم فـي ضـلالهم يعمهون، بل كان رحيماً رفيقاً بهم ، حين عزم على أن يمحو منهم تلك

(١) القرطبي في تفسيره ج٤ / ٣٢٠٠ .

(٢) آية ١١٤/ التوبة .

(٣) الذيخ : الضبع كثير الشعر ، والأنثى منه ذيخه .

(٤) صحيح البخاري : ج٥ / ٢٣٥ ، ٢٣٦ كتاب بدء الخلق . باب قول الله واتخذ الله إبراهيم خليلا .

العقائد الباطلة ، ويردهم إلى رشدهم حتى ولو ناله منهم أذى كثيراً ، أو تعرضت حياته للخطر .

لقد كان إبراهيم ذكياً ، صاحب الرأي ، وعلم أن الحجة والبرهان اللفظي وإن وضحا وضوح الصبح ، لا يُنْبتان نباتاً حسناً في الأرض الجرداء ، ما لم يُقارنهما الحس والبصر ، لذلك أراد أن يُشرك أبصار القوم مع بصائرهم ، وأن يُقرن حواسهم مع أفئدتهم ، لعلهم يرجعون عن غيرهم ، ويدركون فساد معتقداتهم ، التي تنوعت بين عبادة الكواكب والنجوم ، والأصنام والأوثان .

أ- عبادة الكواكب والنجوم :

وضح إبراهيم – عليه السلام – لقومه أن عبادتهم للكواكب والنجوم لا تصلح ، لأنها تُشرق ثم تغيب . والإله حاضر لا يغيب عن عباده . فقال لقومه حين جَنَّ عليه الليل ، وأرخى سدوله على الكون ، ورأى كوكباً ساطعاً نوره في ظلمات الكون : (**هذا ربي**) على سبيل الفرض الجدلي توصلاً إلى الحق . فلما أفل وغاب هذا الكوكب عن الظهور والضياء . قال إبراهيم : لا أحب الآفلين ، إن كان هذا الكوكب – كما تزعمون – معبوداً فلمَا أَفَلَ ، إن الذي غيبه هو خالقه الذي لا يعجز شيء في الأرض ولا في السماء .

وينتقل إبراهيم بقومه من الكوكب إلى القمر . فلما رأى نور القمر ساطعاً في ظلمات الكون . قال لهم من باب إرخاء العنان للخصم ،

والجدل إلى الحق : هذا ربي . فلما أفل وغاب . قال : " لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ " (١) .

فلما انتقل إلى الشمس وقد أشرقت بنور ربها ، وكست الدنيا ضياء وجمالاً ، وملأت الأرض حياة وبهاء . قال : هذا ربي ، هذا أكبر ضياء ونوراً من الكواكب والقمر . فلما أفلت وغابت عن عبادها ، رماهم بالشرك ، ووسمهم بالكفر . وقال : إني بريء مما تشركون . فهذه الكواكب التي تظهر وتغيب ، وتنتقل من حال إلى حال ، لا بد لها من خالق يُدبرها ويُحركها ، ويُطلعها ويُسيرها ، فهي لا تستحق العبادة، ولا الإكبار والتعظيم (٢) .

ثم بين لقومه أنه منصرف وبرئ مما يعبدونه ، وأنه يخص خالق السموات والأرض وما فيهن بالعبادة دون غيره .

وحاول قومه أن يصرفوه عن عبادته ، ويضمونه إلى معبوداتهم بالحجج الواهية ، فأجابهم : كيف تحاجوني في الله ربي ، وقد هداني إلى طريق الخير والحق والرشاد ، وكيف تتهددوني من بطش آلهتكم التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها الضر ، ولا تقدر أن تجلب لها النفع . وقد عبتها ودعوتكم إلى تركها ، ولم تفعل معي شيئاً . وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً . فأينا أهدى سبيلاً ، وأحق بالأمن إن كنتم تعلمون .

---

(١) آية ٧٧ / الأنعام .

(٢) ابن كثير : قصص الأنبياء ص ١٤٧ – ١٤٩ .

قال الحق – تبارك اسمه – : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّيَ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ● وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ● فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ● فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ● فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ● إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ● وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ● وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ● الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ " (١) .

وهكذا فقد أقام إبراهيم – عليه السلام – الحجة لقومه ، الذين كانوا يعبدون الكواكب . بأنها لا تصلح للألوهية ، ولا أن تُعبد مع الله ، لأنها مخلوقة مسخرة ، تارة تطلع ، وأخرى تغيب عن العالم ، والإله لا يغيب عنه شيء ، ولا تخفى عليه خافية (٢) .

وليس صحيحاً ما قيل : إن إبراهيم – عليه السلام – قد آمن بعض الوقت بأن القمر هو ربه . فلما أفل كفر به ، ثم آمن بألوهية الشمس حينما رآها بازغة في السماء ، فلما أفلت كفر بها وآمن بالله . لأنه كان في

---

(١) آيات : ٧٤ – ٨٣ / الأنعام .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/١٦٣ .

موقف المتصدي لهداية قومه . وبعد أن بين لهم بأن الكواكب لا تصلح للعبادة ، لأنها تشرق وتغيب ، والإله لا ينبغي أن يغيب عن عباده . أعلن لهم صراحة أنه وجه وجهه للذي فطر السموات والأرض ، يخصه وحده بالعبادة ، وأنه لن يكون من المشركين به كما فعلوا [١] .

إبراهيم يكيد لأصنام قومه :

حاول إبراهيم – عليه السلام – أن يقنع قومه أن الأصنام التي اتخذوها آلهة من دون الله ، لا قيمة لها . ولا تنفع ولا تضر ، ويضرب لهم الأمثلة ، ويقنعهم بالحجج القوية حتى يعودوا إلى صوابهم ، ويعبدون الله وحده لا شريك له . فقال لهم : هل يسمعونكم إذ تتوجهون إليها بالعبادة ، ويبصرونكم حين تقدمون لهم الطاعة ، وهل ينفعونكم أو يضرون ؟!! . فأقام عليهم الحجة بأنها مجرد أصنام " **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** " [٢] ، اعترافاً منهم بأنهم ما عبدوها إلا إقتداء بأسلافهم ، وإتباعاً لآبائهم [٣] .

فقال لهم إبراهيم : " **لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** " [٤] .

وأي ضلال هذا ، وأي غواية تلك ، يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغني عنهم من الله شيئاً !! .

---

(١) د. محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء ص١٠٣ .

(٢) آية ٥٣ / الأنبياء .

(٣) ابن كثير : البداية ج١/١٦٤ .

(٤) آية ٥٤ / الأنبياء .

ومع تلك الحجج القوية على فساد ما يعتقدون ، فقد قصرت أفهامهم عن إدراك الحق ، فلم يتخذونه سبيلا . ولعل أن يكون فيهم من عـــرف الحق ، فأعرض عنه ، لأنه صعب عليهم أن ينزعوا أنفسهم من عادات ورثوها عن الآباء والأجداد ، جيلاً بعد جيل .

فأراد أن يُثبت لهم بالدليل العلمي أن أصنامهم غير قـــادرة علـــى حماية نفسها من السوء ، فكيف تنفع وتضر من يعبدها ، وتـــدفع عنـــه الشر !!. وذلك بتحطيمها وتكسيرها ، حتى إذا رأوها جـــذاذاً ، قطعـــا صغيرة متناثرة في المعبد ، أدركوا بأنفسهم تفاهة ما يعبدون .

وكان من عادة القوم أن يقيموا عيداً لهم في كل عام ، يقضون أيامه خارج المدينة في التسلية ، والترويح عن النفس . وكانوا يضعون أمام آلهتهم الأطعمة الشهية الكثيرة ، لتباركها لهم ، حتى إذا رجعـــوا مـــن عيدهم أكلوها فرحين .

فلما خرجوا لعيدهم طلبوا من إبراهيم أن يرافقهم ، فاعتـــذر بعلـــة أصابته " فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ " (١) وقد عزم علـــى أن يكيد للآلهة في غيابهم بقوله : " وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْـــدَ أَن تُوَلُّـــوا مُدْبِرِينَ " (٢) قالها إبراهيم وسمعه واحد منهم . فأخبر القوم عندما حطم الأصنام .

ووجد إبراهيم أن المكان خالياً من الحرس والرقباء ، فأسرع إلـــى بيت عبادتهم ، فوجد الأصنام مصفوفة ، وقد تراكم الطعام إلى جوارها

---

(١) آية ٨٨ ، ٨٩ / الصافات .

(٢) آية ٥٧ / الأنبياء .

وهي خرساء صماء ، لا تحس ولا تشعر . فخاطبها مُتهكما بها ، مُحتقراً لشأنها قائلاً : (أَلَا تَأْكُلُونَ) [١] . وكان من الطبيعي أنها لا تنطق ولا تجب ، فأمعن في الاستخفاف والاحتقار بها بقوله : " مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ " ؟!. [٢] وأخذ يلطمها بيده ، ويركلها برجله ، ثم تناول فأساً وهوى عليها بعنف وشدة ، حتى جعلها جذاذاً ، وصيرها قطعاً صغيرة متناثرة في المعبد ، وترك صنماً كبيراً لم يكسره ، فعلق في عنقه الفأس [٣] .

وحين رجع القوم من عيدهم هرعوا إلى معبدهم ، ليقدموا للآلهة فروض الولاء والطاعة ، فوجدوها حطاماً وهشيما متناثرة في أطراف المعبد ، إلا الصنم الكبير منهم وجدوه على حاله ، والفأس معلقة في رقبته . فتملكهم الرعب ، واستولى عليهم العجب وهم يُصيحون : ما هذا البلاء وتلك المصيبة التي حلّت بالآلهة . ومن الذي فعل هذا ؟!. إنه لمن الظالمين .

وسرت الحيرة وعلامات الارتباك على وجوه الحاضرين ، شيء لم يكن يتوقعونه أو تصل إليه أفكارهم .

وبينما الجميع في دهشتهم وإذ بصوت عال يُدوي من جنبات المعبد : سمعنا فتاً يذكرهم بالسوء ، ويحتقر عبادتنا لهم ، يُقال له إبراهيم ، لا بد أن يكون هو الذي تجرأ وفعل تلك الفعلة الشنعاء .

(١) من آية ٩١ / الصافات .

(٢) آية ٩٢ / الصافات .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٣٧ ، ٢٣٨ ، القرطبي : في تفسيره ج٦/٤٤٧٤ ، ٤٤٧٥ ، الجلالان : تفسير الجلالين ص٤٢٥ ، ٤٢٦ .

فعزموا على أن ينزلوا به أقصى العقوبة ، التي تجعله عبرة لمن يعتبر ، جزاء ما صنعت يداه . فنادوا أن يأتوا به على مرأى ومسمع من الناس ، لعلهم يشهدون عليه بمقالته ، ويروا ما يحل عليه من العقاب الشديد .

تكاثرت الجموع ، وتقاطرت الوفود ، كل يرغب في القصاص منه ، ويود رؤية عقابه وعذابه ، إرضاء لنفوسهم المتعطشة إلى الثأر منه .

واجتماع القوم في صعيد واحد ، كان أمنية خليل الرحمن - عليه السلام - ليبين كثرة جهلهم ، وقلة عقولهم ، ويريهم البرهان على فساد ما هم عليه عاكفون [1] .

محاكمة إبراهيم :

جاء إبراهيم وسط تلك الجموع الحاشدة ، وبدأت محاكمته . وهنا شخصت الأبصار لسماع الحوار والنقاش . ووجهت إلى إبراهيم الأسئلة : (أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟)[2] . وكان إبراهيم حكيماً داهية ، أخذهم إلى حوار لم يكونوا يتوقعونه ، وجدال لم يخطر ببال أحدهم ، فجرهم إلى جواب لم يقصدوه ، ليلزمهم الحجة لعلهم يرجعون إلى رشدهم . فألقى التهمة على كبير الأصنام ، وطلب منهم أن يسألوه، لعله يبرئ نفسه من هذا الاتهام، أو يسألوا الأصنام إن كانت

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج١٨٢/٣ .

(٢) آية ٦٢ / الأنبياء .

تقدر على الكلام . فقال : " بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ " (١) .

حجة قوية نبهت القوم من غفلتهم ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قائلين : كيف نعبد من لا ينطق ، ثم رجعوا إلى كفرهم وقالوا لبعض : إنكم أنتم الظالمون ، كيف تركتموها بدون حارس ولا رقيب ، فحطمها من لم يؤمن بها .

ومع تلك الحجة المقنعة تمادوا في غيهم ، وعادوا إلى جهلهم ، وعبادتهم (٢) فقالوا : " لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ " (٣) أي كيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون ، وأنت تعلم أنها لا تنطق (٤) .

فلما أقروا بعجز الآلهة وقصورها عن معرفة ما يجري حولها ، وعدم مقدرتها على دفع الضر عن نفسها . رأى إبراهيم أن الفرصة سانحة لإلزامهم بالمنطق السليم ، فأخذ يوبخهم على ثباتهم على الباطل مع ظهور الحق ووضوحه كالشمس في وضح النهار . فقال لهم : " أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ، أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (٥) .

---

(١) آية ٦٣ / الأنبياء .

(٢) القرطبي : في تفسيره ج٦ /٤٤٨٠ ، ابن الأثير : الكامل ج١/٧٤ ، ٧٥ .

(٣) آية ٦٥ / الأنبياء .

(٤) ابن كثير : في تفسيره ج٣/١٨٣ ، الجلالان : تفسير الجلالين ص٤٢٦ .

(٥) آية ٦٦- ٦٧ / الأنبياء .

فلما غلبوا على أمرهم ، وخافوا افتضاح حالهم ، ولم تبق لهم حجة أو شبهة يُكابرون بها . عمدوا إلى شريعة الغاب ، ومنطق الظفر والناب ، ولجأوا إلى القوة ، ليستروا بها هزيمتهم ، وليطمسوا نور الحق . فقالوا : " حَرِّقُوهُ وانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ " (١) .

عناية الله – تعالى – بخليله :

أصدر القوم حكمهم على إبراهيم بالموت حرقاً . ما الذي فعله إبراهيم حتى يلقى هذا المصير ؟!. أمن أجل أن قال : ربي الله وحده لا شريك له ، ولا معبود سواه . أمن أجل أن عاب على آلهتهم ، وبين لهم سفه أحلامهم ، وقلة عقولهم في عبادتها ، وهي لا تملك من أمرها شيئاً .

شرعوا في تنفيذ الحكم ، فأخذوا يجمعون الحطب من هنا وهناك ، وجعلوا ذلك قرباناً لآلهتم ، وبراً بمعبوداتهم حتى إن المرأة كانت إذا مرضت نذرت إن عُفيت لتجمعن حطباً لحرق إبراهيم (٢) . فمكثوا مدة يجمعون الحطب حتى تراكمت أعواده ، وضاق المكان بما جمعوا . ثم ابتنوا حظيرة واسعة ، وأشعلوا فيها النار ، فتأججت وتطاولت أعناقها ، ثم جاءوا بإبراهيم مقيداً بالحبال ، وألقوه فيها ، فاستقر في جوفها (٣) .

---

(١) آية ٦٨ / الأنبياء .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٤١ ، ابن الأثير : الكامل ج١/٧٥ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٣/١٨٣ ، والبداية والنهاية ج١/١٦٦ .

(٣) الجلالان : تفسير الجلالين ص٤٢٦ ، ٤٢٧ .

عندها هدأت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، واعتقدوا أن إبراهيم قد صار في خبر كان، لكنهم نسوا أن عناية الله بخليله ترعاه في كل وقت وحين ، وتدفع عنه كيد المعتدين ، ومكر الماكرين . فأصدر الله – تعالى – أمره للنار قائلاً : " يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ " [١] . جعل الله – سبحانه – النار برداً وسلاماً ، ليجمع له بين البرودة والسلامة من كل أذى ، فتنتزع منها الحرارة والإحراق ، وأبقاها على الإضاءة والإشراق [٢] .

ولما أُلقي إبراهيم في النار قال : حسبي الله ونعم الوكيل . روى البخاري عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال : " حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار . وقالها محمد – ﷺ – حين قالوا : " إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ" [٣] .

وروى أبو هريرة عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : (لما ألقي إبراهيم – عليه السلام – في النار قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك) [٤] .

ولما أرادوا أن يوثقونه بالحبال قال : (لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك) [٥] .

(١) آية ٦٩ ، ٧٠ / الأنبياء .

(٢) الجلالان : تفسير الجلالين ص٤٢٧ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/١٦٦ . والآية رقم ١٧٣ / آل عمران .

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج٣ / ١٨٤ .

(٥) القرطبي : تفسير القرطبي ج٦/٤٤٨٢ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص١١٠ .

وحين ألقي في النار جاءه جبريل - عليه السلام - فقال له : (يا إبراهيم ألك حاجة . فقال : منك فلا ، أما من الله فحالي يغني عن سؤالي) [١] .

وقضى إبراهيم في النار مدة أربعين أو خمسين يوماً ، لم تصبه النار بسوء ، ولم تحرق سوى الحبال التي أوثقوه بها .

قال المنهل بن عمر : (أخبرت أن إبراهيم ألقي في النار ، فكان فيها إما خمسين وإما أربعين . وكانت أسعد أيامه ولياليه وقال : عشت أطيب عيشاً ، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل ذلك) [٢] .

انتظر قوم إبراهيم حتى هدأت النار ، وسكن حرها ، وهم يعتقدون إن إبراهيم قد انتهى أمره ، وزال عنهم خطره . فأبصروه فوجدوه في جوفها لم يمسسه سوء ، ورأوا وجهه يتلألأ ضياء بالإيمان ، فانصرفوا عنه ناقمين ، وتواروا عن أعين الناس خجلين .

يذكر الطبري أن رجالاً من قوم إبراهيم - عليه السلام - قد آمنوا به حين ساهدوه يخرج من النار سليماً معافاً ، لم تحرق منه النار سوى الوثاق ، وكتموا إيمانهم خشية بأس قومهم [٣] .

---

(١) القرطبي : في تفسيره ج٦/٤٤٨٢ بتصرف، الثعالبي : المصدر السابق ص١١٠ ، ١١١ .

(٢) ابن كثير : في تفسيره ج٣/١٨٤ ، والبداية ج١/١٦٧ بتصرف .

(٣) تاريخ الرسل ج١/٢٤٣ ، ٢٤٤ بتصرف ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص١١٣ ، ابن الأثير : الكامل ج١/٧٦ .

مناظرة إبراهيم للنمرود :

يذكر ابن كثير : أن هذه المناظرة وقعت بينهما بعد خروج إبراهيم - عليه السلام - من النار [1] . ولم يكن التقى به قبل ذلك .

وكان النمرود بن كنعان ملكاً من ملوك الدنيا ، واتخذ من بابل بالعراق عاصمة لملكه . وكان كافراً طاغية ، متجبراً ، ادعى الألوهية، وطلب قومه أن يعبدوه . وقد استمر ملك هذا الرجل أربعمائة عام [2] مثل فيها الظلم والتجبر والطغيان ، وآثر الحياة الدنيا .

فدعاه إبراهيم - عليه السلام - إلى الإيمان بالله وحده ، فدفعه الجهل والضلال إلى التمادي في الباطل ، وإعلانه أنه إله . فناظره إبراهيم ، وأقام عليه الحجة ، وأفحمه بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع . فكانت تلك المناظرة .

دخل إبراهيم على النمرود وهو في جمع عظيم من قومه ، فسأله النمرود : مَنْ ربك يا إبراهيم ؟ . وهل لك رب غيري ؟ . ومن هو الذي يستحق العبادة دوني ، ويعلو مقامه فوق مقامي ، ويرتفع قدره فوق قدري !. ألا ترى أني أصرف الأمور وأدبرها ، وأنقصها وأزيدها [3] .

فأجابه إبراهيم بمنطق العقل والإيمان:" رب الذي يحيي ويميت" [4].

---

(١) البداية والنهاية ج١/١٦٩ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/١٦٨ .

(٣) محمد أبو الفضل إبراهيم : قصص القرآن ص٤٨ .

(٤) من آية ٢٥٨ / البقرة .

أي الإله القوي القادر ، الذي يحيي الإنسان من العدم ، ثم يميته ، ثم يبعثه مرة ثانية . فالإحياء والإماتة مظهر من مظـــاهر قـــدرة الله ، القوي القادر ، الذي لا تعجزه قوة في الأرض ولا في السماء .

فضحك النمرود حين سمع ذلك الكلام من إبراهيم ، وقال ساخراً : " أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ " [١] . أي أستطيع أن افعل مثل ما يفعله إلهك . فقال له إبراهيم : كيف ذلك ؟.

فأمر النمرود فأحضروا له رجلين من السجن ، قد حكـــم عليهمـــا بالإعدام . فوقفا بين يديه ، فأمر الجلاد فضرب عنق أحدهما ، فـــأرداه قتيلاً في الحال . فقال النمرود : هذا قد أمته . وأمر بـــإطلاق ســـراح الثاني ، فأطلق وصار حراً ينعم بحياته . فقال النمرود لإبراهيم : وهذا قد أحييته .

فرأى إبراهيم قلة عقل النمرود ، وغباء تفكيره ، فانتقل بـــه إلـــى أمر لا يمكن الجدل فيه . فقال له : "فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْـــرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ " . حجة دامغة ، إن الشـــمس قـــد ســـخرها الله – سبحانه وتعالى – كل يوم تطلع من جهة المشرق ، فإن كنت تزعم أنك تحيي وتميت ، فأتي بها من جهة المغرب [٢] .

عند ذلك ظهر عجز النمرود ، وبان ضعفه ، فخرس لسانه عـــن الكلام . وبذلك قامت عليه الحجة . وبدا للناس صغاره وهوانه . ومـــع

---

(١) من آية ٢٥٨ / البقرة .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٤٠ ، ابن كثير : البداية ج١/١٦٨ ، ١٦٩ .

ذلك لم يتراجع عن كفره ، ويعترف بخطئه ، فبريق المجد قد خدعه وأضله وجرفه تيار الغرور ، فطغى عليه .

يقول الله – تعالى – : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " (١) .

بعد هذه المناظرة أوجس النمرود خيفة من إبراهيم ، وخشي أن يقوص عرشه ، ويكتسح ملكه ، فأعلن له العداوة والبغضاء ، وصار يتربص به الدوائر ، وبث عيونه ليحذر الناس من ابتاعه (٢) .

وبذلك ضاقت الحياة بإبراهيم مع هؤلاء الوثنيين الجاحدين . ففر بدينه ، وتنقل من مكان لآخر ، لعل الله يرزقه من يؤمن بدعوته ، ويتبع رسالته .

أما مصير النمرود وقومه : فقد كان الهلاك من البعوض ، إذ أرسل الله عليهم عدداً كبيراً من البعوض كما يذكر الثعالبي : أنهم كانوا من الكثرة حتى حجبوا أشعة الشمس ، فأهلكت قومه . أما هو فدخلت واحدة في أنفه ووصلت إلى رأسه ، ومكثت فيها ، وظلت تنهش فيها ، ولا تهدأ إلا بعد أن يُضرب بالمطارق والنعال على رأسه . واستمر حاله على ذلك أعواماً مديدة ، قدرها المؤرخون بأربعمائة عام ، حتى

---

(١) آية ٢٥٨ / البقرة .

(٢) محمد أبو الفضل إبراهيم : قصص القرآن ص٤٩ ، ٥٠ .

أكلت دماغه وهلك [١] . وهذه نهاية كل حاكم جبار .

ابتلاء إبراهيم بالكلمات :

إن الله – سبحانه وتعالى – قد ابتلى خليله إبراهيم – عليه السلام – وامتحنه بأشياء كثيرة منها كان من أمره مع النمرود بن كنعان ، وإلقاء قومه له في النار وابتلائه بذبح ولده بعد أن رجا نفعه ومعونته ، ورفعه القواعد من البيت ونسكه المناسك . ابتلاه أيضاً بالكلمات التي أخبر الله عنه أنه ابتلاه بهن فقال – تعالى – : " وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ " [٢] .

وقد اختلف العلماء في هذه الكلمات التي ابتلاه الله بهن فأتمهن . فذكر بعضهم أنها ثلاثون شهراً ، وهي شرائع الإسلام . يقول عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – : " لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم – عليه السلام – ابتلاه بكلمات فأتمهن . فكتب الله – تعالى – له البراءة [٣] . فقال " وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى " [٤] ، عشر منها في سورة الأحزاب ، وعشر منها في سورة براءة ، وعشر في سورة المؤمنون وسورة سأل سائل وقال إن هذا الإسلام ثلاثون سهماً .

فالعشر التي في سورة براءة هي قول الله – تعالى – : " التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٨٧ ، ٢٨٨ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص١٣٧ .

(٢) آية ١٢٤ / البقرة .

(٣) القرطبي : في تفسيره ج١/٥٩١، الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٧٩ .

(٤) آية ٣٧ / النجم .

وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " [١] .

وأما التي في سورة الأحزاب فهي : " إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً " [٢] .

والتي في سورة (المؤمنون) هي : " قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " [٣] .

والتي في سأل سائل هي : " الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ

---

(١) آية ١٢٤ / التوبة .

(٢) آية ٣٥ / الأحزاب .

(٣) آيات ١ - ١٠ / المؤمنون .

وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ " (١) .

روى ابن كثير عن الحسن البصري أنه قال : إن الله ابتلى إبراهيم بالكواكب والقمر والشمس والنار والهجرة والختان وذبح ولده فصبر على ذلك (٢).

وقال آخرون : إن الله ابتلى إبراهيم بالطهارة ، وهي خمس في الرأس وخمس في الجسد ، والتي في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الشعر .

وأما التي في الجسد فهي : تقليم الأظافر ، حلق العانة ، الختان ، نتف الإبط ، غسل أثر الغائط والبول بالماء (٣) .

وروى الطبري عن جماعة قالوا إن الله ابتلى إبراهيم بكلمات هي ست في الإنسان وأربع في المشاعر ، فأما التي في الإنسان فهي : حلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظافر ، وقص الشارب ، والغسل يوم الجمعة .

---

(١) آية ٢٣-٣٥ / المعارج .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج١/١٦٦ .

(٣) القرطبي : في تفسيره ج١/٥٩١ ، الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٨٠ ، ابن كثير : في تفسيره ج١/١٦٥.

وأما التي في المشاعر فهي : الطواف ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، والإفاضة (١) .

وعلى كل فكل من ذكره العلماء من أقوال فهي ليست متناقضة ، بل هي كلها مما ابتُلي به إبراهيم .

وروى الطبري بسنده عن سعيد بن المسيب قال : " كان إبراهيم – عليه السلام – أول من اختتن ، وأول من ضاف الضيوف ، وأول من استحد ، وأول من قلم الأظافر ، وأول من قص الشارب ، وأول من شاب . فلما رأى الشيب قال يا رب ما هذا ؟ . قال : وقار . قال يا رب زدني وقاراً . وأول من خطب على المنابر ، وأول من ثرد الثريد ، وأول من ضرب بالسيف ، وأول من أستاك ، وأول من استنجى بالماء ، وأول من لبس السراويل .

وروى معاذ بن جبل – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن أتخذ المنبر فقد اتخذه أبي إبراهيم وإن أتخذ العصا فقد أتخذها أبي إبراهيم " (٢) .

---

(١) الطبري تاريخ الرسل ج١/٢٨١ .

(٢) تفسير القرطبي ج١/٥٩٢ .

هجرة إبراهيم إلى فلسطين :

خرج إبراهيم ومعه زوجه سارة ، وابن أخيه لوط من أرض العراق إلى أرض فلسطين ، فأقاموا في منطقة تُسمى حَرَّان ، قريبة من بيت المقدس .

وكان أهل حران يعبدون الكواكب ، فكانوا من الصابئة . وقد انتشرت بينهم الوثنية وعبادة الأفلاك . قال ابن كثير : (والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين ، يستقبلون القطب الشمالي ، ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال ، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها . ويقيمون له أعياداً ، ويقدمون لها القرابين . وهكذا كان كل أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام ، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً ، سوى إبراهيم الخليل ، وامرأته وابن أخيه لوط – عليهم السلام – .

وكان الخليل – عليه السلام – هو الذي أزال الله به تلك الشرور ، وأبطل به ذلك الضلال . فإن الله – سبحانه وتعالى – أتاه رشده في صغره ، وابتعثه رسولاً ، واتخذه خليلاً في كبره [1] . قال – سبحانه وتعالى – : " وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ " [2] .

---

(١) البداية ج١/١٦٠ .

(٢) آية ٥١ / الأنبياء .

وعاش إبراهيم ومن معه في فلسطين ما شـاء الله أن يعـيش ثـم هاجر إلى مصر [١] .

هجرة الخليل إلى مصر :

أُصيبت بلاد الشام وفلسطين بـالقحط والجـدب الشـديدين [٢] ، فضاقت سبل العيش ، فهاجر إبراهيم – عليه السلام – من حَرّان بفلسطين إلى مصر ، تصحبه زوجه سارة . وكانت ذات جمال باهر .

وكان يحكم مصر أحد الفراعنة من العرب العمـاليق ، يُسـمى : (سنان بن علوان) . وكان رجلاً جباراً طاغية .

فلما نزل إبراهيم وزوجه مصر ، أُخبر الملك بنزولهما ، وما عليه سارة من الجمال الفاتن ، فأرسل الملك إلى إبراهيم ، وسأله عما يربطه بسارة من قرابة ، فخشي إبراهيم من بطشه . فقـال : هـي أختـي . وقصد بذلك أخوة الإيمـان " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ " [٣] فـأمره الملـك إن يرسلها إليه .

فأتى إبراهيم سارة فقال لها : إن هذا الجبار لو علم أنك امرأتـي يغلبني عليك . فإن سألك فأخبريه أنك أختي في الإيمان . فليس علـى وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك .

---

(١) الثعالبي : قصص الأنبياء ص١١٣ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/١٧١ .

(٣) من آية ١٠ / الحجرات .

فأرسل الملك إلى سارة ، ولما حضرت إليه ، ورأى جمالها البارع، بهره ذلك الجمال ، فسألها عن إبراهيم ، فأخبرته أنها أخته .

فسولت له نفسه الأمارة بالسوء ، فمد يده إليها يجذبها نحوه ، فيبست – شلت – يديه ورجليه ، ولم يستطع حراكها ، فتملكه الخوف ، واستولى عليه الرعب حتى كان يصعق من شدة الهول والفزع . فقال لها : ادعى الله لي أن يعيد ليدى ورجلي سيرتهم الأولى ، ولا ينالك مني مكروه . فدعت الله ، فعادت الحياة إلى يديه ورجليه . فحدثته نفسه بالغدر مرة ثانية ، فيبست يداه ورجلاه ثانية ، فطلب منها أن تدعوا الله له ، أن يرد له ما كانت عليه أطرافه من قبل ، وأن يطلق سراحها ولا يمسها بسوء . فدعت الله فعادت يداه ورجلاه إلى سيرتهم الأولى .

فنادى على بعض حجابه ، وأمره أن يطلق سراحها قائلاً : لا ينبغي لهذه أن تخدم نفسها ، فوهبها هاجر ، جارية لها . وبذلك حفظ الله سارة من اعتداء الملك الجبار .

وكان إبراهيم – عليه السلام – منذ أن ذهبت زوجه للملك ، يقف بين يدي الله يصلي ، ويدعوه ويرجوه أن يدفع عن أهله السوء . فلما أقبلت أومأ إليها إبراهيم بيده يسألها . فقالت : رد الله كيد الكافرين في نحره ، وأخذ مني هاجر [١].

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ابن الأثير : الكامل ج١/٧٧ ، ٧٨ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج١/٢٨ ، ابن كثير : البداية ج١/١٧١ .

قال أبو هريرة - ﷺ- : " فتلك أمكم يا بني ماء السماء ، فعصمها الله وصانها إكراماً لخليله - ﷺ - " .

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة - ﷺ - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دعى إلى آلهتهم . فقال : (إني سقيم) . وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) . وقوله في سارة : (إنها أختي) [(١)] .

وقد عاش إبراهيم وزوجه - عليهما السلام - في مصر ما شاء الله لهما أن يعيشا . وكان إبراهيم - ﷺ - وادع النفس ، دمث الخلق، لين الجانب ، طويل الأناة ، حريصاً على العمل . لذا كثر ماله ، ونمت أنعامه [(٢)] ، وارتفع ذكره . ولكن القوم حسدوه على مكانته ، ونقموا عليه سعة نعمته ، وسولت لهم نفوسهم أن تمتد إليه أيديهم بالأذى ، وأحس منهم إبراهيم جفوة ، فعزم على الرحيل إلى فلسطين .

عودة إبراهيم إلى فلسطين :

عاد إبراهيم - ﷺ - وزوجه سارة من مصر إلى بلاد الشام ، ومعهما السيدة هاجر المصرية ، التي أهداها ملك مصر إلى سارة لتخدمها . وهي ابنة ملك مصر السابق ، هزم بن جيس (سنان بن علوان) - ملك مصر الحالي - فصار هو وأولاده ونساؤه أسرى له . وكان هذا قانون معمول به - في ذلك الوقت .

---

(١) صحيح البخاري : ج٥/٣٣٨ ، كتاب بدء الخلق ، باب واتخذ الله إبراهيم خليلا .

(٢) اليعقوبي : في تاريخه ج١/٢٤ ، ٢٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١/١٧٣ .

خرج إبراهيم من مصر ومعه الأموال الوفيرة ، والأنعام الكثيرة ، واستقر به المقام في فلسطين مع الفئة المؤمنة التي آمنت به ، واستجابت لدعوته . وأخذ يقوم بمواصلة نشر دعوته ، وأداء رسالته .

وكان – عليه السلام – لا يكف عن نشر دعوته في أي مكان حل فيه ، أو رحل إليه . وقد أثرت فيه السنون ، وتقدم به العمر ، فشاب شعره ، وانحنى ظهره ، وعاش وزوجه سارة وحيدان ففكرت سارة أن تهب له جاريتها هاجر ليتزوجها ، لعل الله يرزقه منها الولد ، حيث كانت لا تنجب ، وبلغ بها السن حال لا يرتجى معه إنجاب ، إذ كانت في السبعين من عمرها [١] .

تزوج إبراهيم – عليه السلام – بالسيدة هاجر المصرية ، ودخل بها ، فرزقه الله – تعالى – بأول أولاده ، بإسماعيل – عليه السلام – .

فرح به أبوه فرحاً شديداً ، ورأى فيه قرة عينه ، وسعادته المرتجى ، وملك عليه الصغير كل حياته . ولعل أن تكون سارة قد شاركته تلك الفرحة . ثم دبت الغيرة في قلبها ، وما زالت بها حتى ملكت عليها كل حياتها ، وصارت لا تطيق رؤية الغلام وأمه . فصارحت زوجها بما في نفسها تجاههما قائلة له : خذ هذا الغلام وأمه إلى مكان بعيد ، فإني لا أطيق رؤيتهما .

تحير إبراهيم في الأمر ، كيف يأخذ ولده فلذة كبده ، وقرة عينه ، وأمه إلى مكان بعيد !!. وقد جاء إليه الولد بعد غياب السنين ، وبعد أن

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١/٧٩ .

بلغ به المشيب ، إذ كان في السادسة والثمانين من عمره [١] .

فأوحى الله إلى إبراهيم أن نفذ طلب سارة [٢] فركب راحلته وأخذ ولده وهو ابن سنتين [٣] وهاجر خلفه ، وانطلق يطوي الصحراء ، ويخترق البيداء قاطعاً الطريق من فلسطين إلى مكة . ولم يكن بها – في ذلك الوقت – أحد ، ولا ماء ، ولا دار أو بنيان ، وإنما كان يسكن حولها العماليق [٤]. فحط رحاله عند بيت الله الحرام ، في دوحة فوق زمزم [٥] . وبنى عريشاً لزوجه وولده [٦] ، وترك لهما جوالاً به تمر مُجفف ، ثم إناء به ماء . وهم بالانصراف مُلقياً على ولده وأمه نظرة وداع .

شرع إبراهيم في العودة فتعلقت هاجر في طرف ثوبه متسائلة : يا إبراهيم أتتركنا في هذا المكان الموحش ، الذي لا أنيس فيه ولا جليس، ولا زرع فيه ولا ماء . الله أمرك بهذا ؟!.

قال لها : نعم . فردت عليه هاجر مطمأنة إلى حفظ الله ورعايته قائلة : إذن لن يضيعنا [٧] . وانصرف إبراهيم عائداً إلى بلاد الشام .

---

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج١/٢٨ ، ابن كثير : البداية ج١/١٧٤ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج١/٦٩ ، ابن قتيبة : المعارف ص٣٣ ، ابن الأثير : الكامل ج١/٧٩ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ج١/٦٩ .

(٤) الأزرقي : أخبار مكة ج١/٥٤ .

(٥) ابن كثير : البداية ج١/١٧٥ .

(٦) الأزرقي : أخبار مكة ج١/٥٤ .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج١/٧٩ ، ابن كثير : البداية ج١/١٧٥ ، ١٧٦ .

ولما ابتعد إبراهيم – عليه السلام – عن زوجه وولده قليلاً ، التفت جهة البيت الحرام ، وأخذ يدعو ربه قائلاً : " رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " [1] .

نبع ماء زمزم :

جلست أم إسماعيل وولدها في العريش ، يؤنسها إيمانها بالله – عز وجل – تأكل وتشرب من الزاد الذي معها ، وتسقي ولدها حتى نفذ الماء ، وعطش إسماعيل وبلغ به العطش مبلغاً كبيراً . فأخذ يتلوى أمامها ، وهي ينفطر قلبها خوفاً عليه ، فأخذت تبحث له عن ماء ، فصعدت على جبل الصفا ، اقرب جبل يليها ، واستقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا ؟. فلم تر أحدا ، ولم تجد فيه ماء . فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادي ، وسعت سعي المجهود ، حتى وصلت إلى جبل المروة ، فصعدت عليه ، ونظرت فلم تجد أحداً ، وأخذت تذهب وتجيء بين الصفا والمروة سبع مرات ، وهي تهرول . وبينما هي على المروة إذ سمعت صوتاً . فقالت : أغثنا إن كان عندك غواث . فرأت جبريل – عليه السلام – يضرب الأرض بعقبه ، أو بجناحه ، حتى ظهر الماء ، ونبعت زمزم .

ففرحت هاجر فرحاً عظيماً ، وجعلت تحوط الماء ، وتغرف منه بسقائها وهو يفور بعد ما تغرف . وسقت ولدها وشربت وقرت عيناً . ثم قال لها الملك – جبريل – : لا تخافي في الضيعة فإن لله ها هنا

---

(١) آية ٣٧ /إبراهيم .

بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة من الأرض ، يبنيها هذا الغلام وأبوه ، ثم غاب عنها [١] . وسمي هذا النبع العظيم الذي أكرم الله به هاجر وولدها إسماعيل : بئر زمزم .

وبدأت الطير ترد إلى هذا الماء ، وتحوم حوله ، ومـرت قبيلـة جُرهم اليمنية في طريقها إلى الشام ، فرأت الطير تحوم في المكـان . فقالوا : ما ورده الطير إلى وفيه ماء ، فأرسلوا من يسـتطلع الخبـر . فجاء يحمل البشرى ، فذهبوا إلى هاجر وقالوا لها : لو شئت كنا معـك فآنسناك ، والماء ماؤك . فأذنت لهم ، فحطوا رحالهم ، ونصبوا خيامهم قريباً منها ، وتكاثرت البيوت ، وصارت مكة – منذ ذلـك الوقـت – مأهولة بالسكان ، بعد أن كانت قفراً موحشاً .

وكان خليل الرحمن إبراهيم – عليه السلام – يتردد على ولـده وزوجـه بين وقت وآخر زائر ومستأنساً ، ليعرف حالهما ، ويطمئن عليهمـا . وذكر الثعالبي (أنه كان يركب البراق ، وهو دابة سـريعة السـير ، تضع قدمها عند منتهى بصرها ، فكان يغدو من الشام فيقيل في مكة ، ويرجع من مكة فيبيت عند أهله بالشام [٢] .

شب إسماعيل مع أقرانه من صبيان جُرْهُم ، يلعب ويرتـع ، ثـم استقام عوده ، وصار يطيق السعي والعمل ، واختلط بالقوم وحاكـاهم في لغتهم، وتعلم منهم اللغة العـربية، وذاع صيته، وطـار ذكـره.وإذ

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ج١/٥٥ ، ٥٦ .

(٢) قصص الأنبياء ص١٣٣ ، وتفسير القرآن العظيم ج٤/١٤ ، والبداية ج١/١٨١ .

بإبراهيم - عليه السلام - يرى في منامه ، ورؤيا الأنبياء وحي [١]. أن يـذبح ولده إسماعيل . فكان ابتلاء واختبار من الله - تعالى - لخليله إبراهيم، بعد اختبار سابق ، وهو أن يأخذ ولده الرضيع وأمه ويضعهما في مكان موحش ، لا يسكنه أحد ، وليس فيه زرع ولا ماء - كما رأينا سابقاً- .

الذبيح إسماعيل - عليه السلام - :

عاش إسماعيل وأمه هاجر - عليهما السلام - في رحـاب مـاء زمزم ، وبجوار بيت الله المحرم ، تؤنسهما نزول قبيلـة جُـرهم فـي المكان . وشب إسماعيل ، ونما وترعرع ، واسـتوى عـوده يعجـب الناظرين ، ويقدرونه حين يروه يسعى ويعمل على تحصيل الرزق .

ولما بلغ إسماعيل الثالثة عشرة من عمره [٢] ، رأى والده إبراهيم رؤيا في نومه : أن الله - تعالى - يأمره أن يذبح ولده وبِكْرِه ووحيـده إسماعيل . فما كان من خليل الله بعد أن استيقظ من نومه إلا أن امتثـل لأمر ربه ، وسارع إلى طاعته .

وأراد إبراهيم أن يختبر ولده ليرى مقدار استجابته وطاعتـه لله - عز وجل - . فحضر من الشام إلى مكة المكرمة ، وأمـره أن يأخـذ الحبل والسكين ليحتطب من الشعب . فلما خلا به في شعب ثبير قـص عليه رؤياه بقوله:"يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ؟"[٣].

---

(١) ابن كثير : البداية ج١/١٧٩ .

(٢) القرطبي : في تفسيره ج٨ /٥٧٣٩ .

(٣) من آية ١٠٢ / الصافات .

عرض الوالد الأمر على الابن ، ليكون ذلك أطيب لقلبه ، وأهون عليه من الأخذ بالقوة . فبادر الغلام الحليم إلى الطاعة ، وأسرع إلى الإجابة بقوله : " **يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** " (١) .

برٌ عظيم ، وتوفيق من الله كبير ، وإيمان قوي راسخ ، رسوخ الجبال الرواسي ، ونفس مطمئنة بما أراد الله وَقَدَّرَ . الأب يُؤْمَر فَيُسارع إلى تنفيذ أمر الله ، والابن يُسْتَشَار فيلبي طائعاً مستسلماً لحكم الله – تعالى – .

ثم أراد الولد أن يُخفف عن أبيه لوعة الثُكل ، ويُرشده إلى اقرب السبل ، ليصل إلى قصده . فقال : يا أبت أُشْدُدْ رباطي حتى لا اضطرب ، وأكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها دمي ، فينقص أجري ، وتراه أمي فتحزن ، واشخذ شفرتك ، وأسرع إمرارها على حلقي ، ليكون أهون علي . فإن الموت شديد ، ووقعه أليم ، فإذا أتيت أمي فأقرأها مني السلام . فإن رأيت أن ترد قميصي إليها فافعل . عسى أن يكون أسلى لها عني .

فقال إبراهيم : نعم العون أنت يا بني على تنفيذ أمر الله ، ثم ضمه إلى صدره ، وأخذ يقبله ويودعه ، وعيناه تفيضان من الحزن واللوعة . وإسماعيل صابر على البلاء مستسلم للقضاء (٢).

ثم وضع إبراهيم ولده على شقة ، وأوثقه بكتافه ، ووضع السكين

(١) من آية ١٠٢ / الصافات .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٧٥ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص:١٣٣ .

على حلقه ، وأمَرَّها فوق عنقه ، ولكنها لم تقطع ، فقد انقلبت في يده وكأنها قطعة من الخشب .

فقال إسماعيل : يا أبت كبني على وجهي ، حتى لا تنظر إلي ، فتأخذك رقة وشفقة بي ، تحول بينك وبين أمر الله . ففعل . ثم وضع السكين على قفاه ، فلم تقطع شيئاً، لأن الله قد سلب الشفرة خاصية القطع .

عند ذلك سمع إبراهيم النداء الإلهي : " أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ " (١) .

فالتفت إبراهيم – عليه السلام – فإذا بجبريل – عليه السلام – معه كبش أملح اقرن . مكان كبش الفداء . فذبحه إبراهيم فداء ولده إسماعيل .

ويذكر ابن كثير : (أن هذا الكبش هو الذي قَرَّبَهُ هابيل بن آدم – عليه السلام – ، فتُقُبِّلَ منه) (٢) .

روى أبو هريرة عن كعب الأحبار ، وابن إسحاق عن رجال قالوا: (لما رأى خليل الله في المنام أنه يذبح ولده . قال الشيطان : والله لئن لم افتن عند هذا آل إبراهيم ، لم أفتن أحداً منهم أبدا. فصار في صورة رجل وذهب إلى هاجر وقال لها : أتدرين أين ذهب إبراهيم بولدك ؟!.

---

(١) آيات : ١٠٤ – ١٠٧ / الصافات .

(٢) البداية والنهاية ج١/١٧٩ .

قالت : ذهب به ليحتطب من هذا الشعب .

فقال : لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه .

فقالت : كلا . هو أرحم به مني ، وأشد حباً له .

فقال لها : إنه يزعم أن الله أمره بذلك .

فقالت له : إن كان أمره بذلك فقد أحسن في امتثال طاعة ربه . وفي استسلامه لأمر الله .

فخرج الشيطان من عندها ، وسار مسرعاً حتى أدرك الابن وهو يمشي على أثر أبيه . فقال له : هل تدري أين يذهب بك أبوك ؟!.

قال : يحتطب لأهلنا من هذا الشعب .

قال : لا والله ما يريد إلا ذبحك .

قال : ولم ؟ .

قال : يزعم أن الله أمره بذلك .

قال له : فيفعل ما أمره الله به . فسمعا وطاعة لأمر الله – تعالى –

فلما لم يستجب له الغلام ، أقبل على إبراهيم فقال له : أين تريد أيها الشيخ ؟.

قال : أريد هذا الشعب لحاجة لي .

فقال : والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك يأمرك بذبح ابنك هذا .

فعرفه إبراهيم . فقال له : ابتعد عني أيها اللعين ، فوالله لأمضين لأمر ربي .

فرجع إبليس كسيفاً حزيناً ، لم يصب من إبراهيم وآله شيئاً مما أراد . وقد امتنعوا منه بعون الله – سبحانه – وتأييده [١] .

وروى أبو الطفيل عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال : (إن إبراهيم – عليه السلام – لما أُمِرَ بذبح ولده عرض له إبليس عند المشعر الحرام فسابقه ، فسبقه إبراهيم – عليه السلام – ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيا حتى ذهب . ثم عرض له عند الجمرة الوسطي فرماه بسبع حصيات حتى ذهب . ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب . ثم مضى إبراهيم – عليه السلام – لأمر الله – تعالى –) [٢] .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٧٤ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص١٣٤ ، ابن كثير : في تفسيره ج٤ / ١٥ ، ١٦ .

(٢) نفس المصدرين السابقين ، الثاني والثالث .

اليهود يقولون : الذبيح إسحاق وليس إسماعيل :

ومن الغريب أن اليهود يزعمون أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل . وهذا خطأ وافتراء منهم . فالذبيح هو إسماعيل الابن البكر لأبيه إبراهيم ، والوحيد له – في ذلك الوقت – ، وهو الذي كان مقيماً في مكة المكرمة . وإسحاق لا يُعلم أنه قدم مكة في حال صغره . والقصة وقعت في مكة ، وليس في بلاد الشام التي يقطن فيها إسحاق .

يقول ابن كثير : (والظاهر من القرآن الكريم ، بل كأنه نص صريح على أن الذبيح هو إسماعيل ، لأن الله – تعالى – ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده : " وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ " [1] . فالبشارة كانت بعد الحادثة ، التي ظهر فيها إيمان إبراهيم وطاعته لله ، فأكرمه الله بولد آخر وبشره بإسحاق .

ومن ادعى أن الذبيح إسحاق ، فقد اعتمد على روايات إسرائيلية ، وكتابهم فيه تحريف ، فإن عندهم في التوراة أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه البكر . وإسماعيل هو البكر .

وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز ، والذين منهم رسول الله – ﷺ – . وإسحاق والد يعقوب – وهو إسرائيل – الذي ينتسبون إليه . فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم ، فحرفوا كلام الله ، وزادوا فيه ، وهم قوم بُهْتٌ ، ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يُتيه من يشاء .

---

(١) آية ١١٢ / الصافات .

ومن قال من السلف : بأن الذبيح هو إسحاق ، فإنما أخذوه من كعب الأحبار ، أو من صحف أهل الكتاب . وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز . ولا يفهم هذا من القرآن . بل المفهوم ، بل المنطوق ، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل ، وليس إسحاق .

وذلك من قوله – تعالى – : " فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ " (١) . فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يُلد له . هذا لا يكون ، لأنه يناقض البشارة المتقدمة (٢) .

ومما يؤيد ذلك ما ذكره الرواة عن عمر بن عبد العزيز – ﷺ – : أنه أرسل إلى رجل كان عنده بالشام ، وهو خليفة . وكان هذا الرجل يهودياً ثم أسلم وحسن إسلامه . وكان الخليفة يرى هذا الرجل من علمائهم . فسأله عمر بن عبد العزيز : أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟

فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين . وإن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم هو ذكر الله فضله وصبره على ما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ، ويزعمون أنه إسحاق ، لأن إسحاق أبوهم (٣) .

---

(١) آية ٧١ / هود .

(٢) البداية والنهاية ج١/١٨٠ .

(٣) المصدر السابق ج١/١٨٢ .

وروى أن الرسول - ﷺ - كان يدعى ابن الذبحيين : الأول هـو إسماعيل ، والثاني هو والده عبد الله .

البشارة بإسحاق :

بعد أن رزق الله خليله إبراهيم بإسماعيل من زوجه هـاجر وبلـغ الغلام سن الثالثة عشرة من عمره ، ابتلى الله خليله برؤيا ، رأى فيهـا أن الله يأمره أن يذبح وحيده وبكره إسماعيل . ونجح الأب والابن فـي الاختبار ، فقد سلما الأمر لله ، وأطاعاه ، ونفذا أمره . فكان الفداء بذبح عظيم ، وناداه الله - تعالى - : "**يَا إِبْرَاهِيمُ • قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَـا إِنَّـا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**" (١) .

ثم أرسل الله ملائكته إلى إبراهيم - عليه السلام - يحملون لـه بشـرى ميلاد إسحاق من زوجه سارة . وهم في طريقهم إلى هلاك قوم لوط - عليه السلام - . وكان قد آمن بدعوة ورسالة عمه إبراهيم . وفي ذلك يقـول الله - تعـالى - : " **فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيـز الحكيم** " (٢). ثم صار نبياً مع عمه ينشر دعوته، ويبلغ رسالته .

وقد توجه لوط - عليه السلام - إلى قرية (سدوم) من بـلاد الأردن ، بأمر وإذن عمه ، ليدعوا أهلها إلى عبادة الله والتخلي عـن الرذائـل ، التي فشت وانتشرت بين أهلها .

---

(١) آية ١٠٤ ، ١٠٥ / الصافات .

(٢) آية ٢٦ / العنكبوت .

فدعاهم لوط – عليه السلام – مراراً وتكراراً ، وحاول أن يصرفهم عن فعل السوء ، وارتكاب الفواحش ، وقطع السبيل ، وإتيانهم في واديهم المنكر . فلا أحد يستجيب له . وبلغ بهم السفة أن قالوا : " أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ " (١) .

وحذرهم لوط من سوء العاقبة ، ومن عذاب الله ، الذي ينزل بهم، فتحدوه قائلين : " ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " (٢) .

فدعا لوط ربه أن ينصره على هؤلاء القوم المفسدين . فاستجاب الله له ، وبعث رسله وهم : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل – عليهم السلام – في صور شباب حسان ، ومروا على إبراهيم في حران من قرى فلسطين ، فحسبهم ضيوف من البشر ، فسارع لاستضافتهم . وكان يحب الضيوف ، ويبذل قصارى جهده في إكرامهم .

فلما استضافهم أسرع إلى أهله فقام بذبح عجل من أعظم أنعامه ، وشاه وقدمه لهم . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه ، أوجس منهم خيفة .

فأخبروه أنهم ملائكة الرحمن ، ولا حاجة لهم في الطعام ، وإنما جاءوا لهلاك قوم لوط الظالمين . وبشروه بإسحاق نبياً من الصالحين .

وكانت سارة مع زوجها تقدم واجب الضيافة ، فسمعتهم يخبرون زوجها بميلاد إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، فضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها (٣) .

(١) آية ٥٦ / النمل .

(٢) من آية ٢٩/ العنكبوت .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٤٨ ، ٢٤٩ .

يقول الحق – تبارك اسمه – : " وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ " (١) .

وحملت سارة بإسحاق وولدته بعد انتهاء شهور حمله . وكانت في سن الثالثة والثمانين من عمرها ، بينما كان إبراهيم – عليه السلام – في التاسعة والتسعين من عمره (٢) .

وهكذا شاءت إرادة الله – تبارك وتعالى – أن يرزق إبراهيم وزوجه سارة بإسحاق على الكبر ، بعد أن وهب له إسماعيل من زوجه هاجر . فكان إسماعيل وإسحاق أعظم هبة من الله لخليله إبراهيم . وقد تلقاها بالشكر والثناء فقال : " **الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء** " (٣) .

وقد جعل الله – جل في علاه – في ذرية إسماعيل وإسحاق النبوة. فكان من ذرية إسماعيل محمد – ﷺ – ، ومن ذرية إسحاق جميع أنبياء بني إسرائيل .

---

(١) آية ٧١ – ٧٣ / هود .

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٤/١٤ .

(٣) آية ٣٩ / إبراهيم .

زواج إسماعيل ـ عليه السلام ـ

جاء إبراهيم بولده إسماعيل وأمه هاجر – عليهم السلام – من بلاد الشام إلى موضع ماء زمزم بجوار الحرم الشريف بمكة المكرمة وتركهما هناك ، بعد أن بنى لهما عريشاً ، يقيمان فيه ، فسكنت هاجر مع ولدها فيه ، ثم نبع ماء زمزم من بين أصابع إسماعيل ، ولزمت الطير الوادي ، فمرت قبيلة جُرْهُم اليمنية وهي في طريقها من اليمن إلى الشام . وكانت قد حطت رحالها بالقرب من الحرم ، خارج مكة .

فلمح أفرادها الطير ، فقالوا ما لزمته إلا وفيه ماء ، فجاءوا واستأذنوا هاجر في الإقامة بجوار الماء ، فأذنت لهم ، فنصبوا خيامهم، وحطوا رحالهم .

شب إسماعيل – عليه السلام – واستقام عوده وسط شباب جرهم ، وتعلم العربية منهم . وكان مثلا الشاب العاقل المتزن ، الذي يتصف بمكارم الأخلاق ، فذاع صيته ، وطار ذكره على كل لسان، فزوجوه فتاة منهم.

بذلك توثقت صلة إسماعيل بأهل جُرهم ، واندمج فيهم ، وسُرَّ بذلك سروراً كبيراً ، غير أن الدهر لم يَسِرْ على حالة واحدة ، بل بالمنية تخطف أمه منه ، فتحرمه من ينبوع الحنان الدافئ ، ودرع الأمان الواقي . فحزن عليها إسماعيل حزناً شديداً . وكانت تبلغ من العمر تسعين سنة (١) .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج١/٧١ ، الأزرقي : أخبار مكة ج١/٦٤ .

إبراهيم يزور ولده بعد الزواج :

وبعد حين لعب الشوق بقلب والده إبراهيم – عليه السلام – ، فأعد العدة لزيارة ولده وزوجه ، وركب راحلته (البراق) من فلسطين إلى مكة المكرمة . وفيها علم أن زوجه هاجر قد انتقلت إلى جوار ربها ، ودفنت في موضع الحجر .

وصل إبراهيم – عليه السلام – دار ولده إسماعيل ، ودق بابها مستأذناً . فخرجت له زوج ولده . فسألها عن زوجها .

فقالت : خرج يسعى على رزقه .

فقال لها : كيف حالكم ؟.

فقالت : نحن بشر ، وفي ضيق وشدة ، وشكت إليه سوء الحال ، وقلة المال .

فرأى الخليل – عليه السلام – في زوجة ولده هذه امرأة متمردة على القدر ، ناقمة على القضاء ، غير راضية بما قسمه الله لها .

ورأى أنها لا تصلح زوجاً لابنه ، لتبرمها بالحياة معه .

فقال لها : إذا جاء زوجك فاقرئيه مني السلام ، وقولي له فليغير عتبة داره .

فلما حضر إسماعيل – عليه السلام – وجد ريح أباه في المكان .

فقال لامرأته : هل زارنا أحد اليوم ؟.

قالت : جاءنا شيخ بأوصاف كذا ، وأخــذت تعــدد صــفاته لزوجهــا باستخفاف .

فعرف إسماعيل أن هذا الزائر هو أبوه .

فقال لها : فماذا قال لك ؟ .

قالت : اقرئي زوجك السلام ، وقولي له فليغير عتبة بابه .

فقال لها : هذا أبي ، وقد أمرني بفراقك .

فتركها إسماعيل غير آسف عليها ، وتزوج بــأخرى مــن قبيلــة جُرْهُم أيضاً ، هي السيدة بنت مضاض بن عمــرو – سَــيِّد جُــرْهُمْ – وكانت صالحة ، وعلى خلق حسن .

الخليل يزور ولده إسماعيل :

بعد مدة من الزمن اشتاق خليل الرحمن إبراهيم - عليه السلام - لرؤية ولده إسماعيل ، ومعرفة حاله . فركب راحلته من الشام قاصداً بلد الله الحرام ، مكة المكرمة . وحين بلغها ووصل دار ولده دق بابها ، فخرجت زوجته الثانية ، وإسماعيل لم يكن موجوداً .

فسألها : أين زوجك ؟.

قالت : ذهب يتصيد ، وهو يجيء الآن . فانزل يرحمك الله .

فسألها الخليل عن حالهم .

فقالت : نحن في خير من الله كثير ، وفي فيض من نعمته عميم .

فقال لها : هل عندك ضيافة ؟ .

فقالت : نعم .

قال : هل عندك خبزاً أو شعيراً أو تمراً ؟ .

فجاءت له باللبن واللحم . فدعا لهما بالبركة .

ثم قال لها : إذا جاء زوجك فاقرئيه مني السلام ، وقولي له : قد استقامت عتبة بابك .

وهكذا انشرح صدر الخليل ، واطمأن قلبه ، لما رأى زوج ولده قانعة ، راضية ، شاكره ، مؤمنة . وعاد راجعاً إلى فلسطين .

فجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه . فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟

قالت : نعم ، شيخ من أحسن الناس وجهاً ، وأطيبهم ريحاً . فقال لـــي كذا وقلت له كذا وكذا . وهو يقرئك السلام ، ويقول لك : قد اســتقامت عتبة بابك .

فقال لها : هذا أبي [١] .

سر إسماعيل بما فعلت زوجته مع أبيه ، وعــاش معهــا عيشــة راضية . وقد رزقه الله – سبحانه – منها باثني عشر ولداً ذكراً ، هــم وذريتهم العرب المستعربة [٢] .

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ج١/٥٧ ، ٥٨ ، ابن قتيبة : المعارف ص٣٤ ، الطبري : تــاريخ الرسل ج١/٢٥٨ ، ٢٥٩ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص١٤٢ ، ابن الأثيــر : الكامــل ج١/٨٠ ، ٨١ ، ابن كثير : البداية ج١/١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ج١/٧١ ، المسعودي : مروج الذهب ج٢/٤٩ ، الثعــالبي : قصــص الأنبياء ص١٤٢ .

بناء البيت الحرام :

بيت الله الحرام هو أول بيت بني في الأرض بعد أن خلق الله الأرض والسماء ، ليكون قبلة للناس وأمناً . قامت الملائكة ببنائه بأمر الله – تعالى – لهم ، قبل أن تخلق الدنيا بألفي سنة (١) .

قال الله – تعالى – : "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ● فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ " (٢) .

وهذا البيت بُني على غرار نموذج بيت لا يزال موجوداً في السماء ، يسمى البيت المعمور (٣) . وهو الوارد في قوله – تعالى – : " وَالطُّورِ ● وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ● فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ● وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ " (٤) .

ولما أتم الملائكة بناء البيت أمرهم الله – عز وجل – أن يطوفوا به ، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

وحين هبط آدم – عليه السلام – من الجنة إلى الأرض ، أمره الله – تعالى – أن يشيد هذا البيت ، ثم يطوف حوله . فلما بلغ مكة المكرمة ، بنى البيت وساعدته الملائكة ، واتخذ أحجار البناء من خمسة جبال هي

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٢٥ ، القرطبي : تفسير القرطبي ج٢/١٤٨٥ .

(٢) آية ٩٦ ، ٩٧ / آل عمران .

(٣) ابن كثير : قصص الأنبياء ص١٨٦ .

(٤) آيات ١-٤ / الطور .

جبل الطور بسيناء ، وحراء ، والجودي ، ولبنان ، وطور زيتا [١]. ثم طاف حوله .

وبقى هذا البيت يحج إليه آدم وبنوه ، حتى كان زمن نوح – عليه السلام – واغرق الله قومه الظالمين بالطوفان ، فَرُفع وبقى أساسه ، فبوأه الله لخليلة إبراهيم – عليه السلام – فبناه [٢] .

ولما أمر الله – تعالى – خليله ببناء البيت الحرام ، توجه على الفور من فلسطين إلى مكة المكرمة . وحين دخلها بحث عن ولده إسماعيل ، فوجده جالساً تحت ظل شجرة ، قريباً من ماء زمزم ، وهو يبري السهام . وكان في سنة العشرين من عمره [٣] . ووالده في سنة السادسة بعد المائة . وذلك إذا عرفنا أن إسماعيل ولد ولأبيه من العمر ستا وثمانين سنة ، فبإضافة عشرين إلى عمر الأب يكون في سن السادسة والمائة .

هَبَّ إسماعيل واقفاً حين رأى أباه ، وسار إليه يستقبله بشوق ولهفة. وسرعان ما تعانق الوالد والولد ، ثم جلسا يتحدثان .

فقال إبراهيم لولده : إن الله أمرني أن ابني له بيتاً .

قال إسماعيل : فأطع ربك .

قال إبراهيم : وقد أمرك الله أن تُعينني على بنائه .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١/٣٥ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/١٣٢ ، ابن الأثير : الكامل ج١/٣٦ .

(٣) الأرزقي : أخبار مكة ج١/٦٤ .

قال : إذاً أفعل . وقام معه (١) .

ويذكر الرواة : أن إبراهيم – عليه السلام – حين أمره الله – تعالى – ببناء البيت لم يكن يُعرف مكانه . فبعث الله – سبحانه – سحابة على قدر الكعبة ، فجعلت تسير وإبراهيم يمشي في ظلها حتى موضع البيت. فنودي منها : " يا إبراهيم أن ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص " (٢) .

وقيل : إن إبراهيم عندما أمره الله بالبناء ، اقبل على البراق ، ومعه السكينة – وهي ريح لها رأس رأسان ، تشبه الحية ، يتبع أحدهما صاحبه ، وأمر الخليل أن يبني حيث تستقر السكينة ، فتبعها حتى انتهت إلى مكة ، فتطوقت السكينة على موضع البيت ، كتطوق الحية ، فكنست ما حول البيت عن الأساس (٣) .

فبني إبراهيم وولده إسماعيل يساعده في البناء حتى كَمُلَ .

ورفع قواعد البيت . يقول الحق – جل في علاه – : " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ • رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ " (٤) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١/٨٢ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٢٥٢ .

(٣) المصدر السابق ج١/٢٥١ .

(٤) آية ١٢٧- ١٢٩/ البقرة .

وحين تم البناء قال إبراهيم لولده : ائتني بحجر حسن أصنعه على الركن فيكون للناس علماً .

فناداه جبل أبو قُبَيْس : يا إبراهيم إن لك عندي وديعة .

وقيل : إن جبريل أخبره بالحجر الأسود ، فأخذه ووضعه مكانه (١) .

وتذكر بعض الروايات : أن هذا الحجر من حجارة الجنة ، وقد هبط منها عندما نزل آدم إلى الأرض . وكان أبيض اللون كاللبن ، ثم اسود من خطايا البشر (٢).

ولما تم البناء أمر الله إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج .

فقال : يا رب ومن يسمع ندائي .

فقال الله : يا إبراهيم عليك الآذان ، وعلينا نحن البلاغ .

فصعد إبراهيم على ظهر الكعبة وأذن فقال : أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج إلى البيت العتيق . فسمعه ما بين السماء والأرض ، وما في أصلاب الرجال ، وأرحام النساء . فأجابه من أمن ممن سبق في علم الله أن يحج إلى يوم القيامة : فأجيب لبيك اللهم لبيك (٣) .

يقول الله – سبحانه وتعالى – : " وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا

(١) ابن الأثير : الكامل ج١/٨٢ .

(٢) المصدر السابق ج١/٣٥ ، ابن كثير : قصص الأنبياء ص١٨٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١/٨٢ ، الجلالان : تفسير الجلالين ص٤٣٦ ، ٤٣٧ .

اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ . فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ " (١) .

وأذن إبراهيم بالحج ، ولبى الناس نداءه ، وأصبح البيت الحرام – منذ ذلك الوقت – مثابة للناس وأمنا ، يفدون إليه من كل مكان ، وفي كل زمان ، ويجدون في ظله الأمن والإيمان .

وهكذا تعاون الخليل وولده إسماعيل – عليهما السلام – في بناء البيت ، حتى رفعا قواعده ، وأتما بناءه . وقد دعا إبراهيم ربه أن يجعل أفئدة الناس تهوي إلى ذريته الذين أسكنهم بهذا الوادي ، الذي لا زرع فيه ولا ماء ، ولا ثمر ، عند بيت الله المحرم ، وأن يرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (٢) .

فقال : " رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ . رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " (٣) .

وقد استجاب الله دعاء خليله ، فجعل هذا المكان حرماً آمناً ، وهيأ لأهله سُبل الرزق الحلال ، يُجبي إليهم بفضل الله – تعالى – ورحمته .

يقول الله – سبحانه – : " أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " (٤) .

(١) آية ٢٧ ، ٢٨ / الحج .

(٢) الجلالان : تفسير الجلالان ص٣٣٥ .

(٣) آية ٣٧ / إبراهيم .

(٤) آية ٥٧ / القصص .

ومنذ ذلك الوقت وإلى الآن وحتى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قلوب المسلمين تهفوا وتحن إلى هذا المكان ، وتتمنى زيارته وأداء المناسك من عُمرة وحج ، والجلوس في رحاب الله في بيته العتيق ، الذي جعله قبلة للطائفين والعاكفين والركع السجود .

صحف الخليل ـ عليه السلام ـ :

أنزل الله – تعالى – على خليله عشر صحائف [١] . كانت كلها أمثالاً منها : " أيها الملك المبتلى المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ؛ فإني لا أردها وإن كانت من كافر .

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله ، أن يكون له ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يفكر فيها في صنع الله – عز وجل – ، وساعة يحاسب فيها نفسه فيما قدم وأخر ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال في المطعم والمشرب وغيرهما .

وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاده ، ومؤنة لمعاشه ، ولذة في غير محرم .

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسانه . ومن حَسِبَ كلامه من عمله ، قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه " [٢] .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٣١٣ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص١٤١ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٣١٣ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص١٤١ ، ١٤٢ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج١/٣٠ .

وفاة الخليل ـ عليه السلام ـ :

بعد جهاد طويل ، وكفاح مرير ، قام به الخليل – عليه السلام – بنشر دعوته ، ويتم رسالته ، ويبين للناس الصراط المستقيم ، والمنهج القويم، والعبادة السليمة ، وإفراد الله بالعبادة دون سواه ، والتخلق بالخلق الحسن ، والتمسك بالفضائل والمكارم ، والابتعاد عن الشرور والمعاصي والرذائل .

عُمْر مديد أنفقه إبراهيم – عليه السلام – في هداية قومه ، وهداية الناس في كل مكان يرحل إليه ، حتى جاء الأجل . وقد بلغ من العمر خمسا وسبعين ومائة عام [١] على أرجح الأقوال وقام ولداه : إسماعيل وإسحاق بدفنه في مزرعة حبرون التي الآن بمدينة الخليل . وكان قد اشتراها من قبل .

وقد دفنت في نفس هذا المكان زوجة الخليل سارة –عليهما السلام– ، بعد عمر بلغ سبع وعشرين ومائة سنة [٢] .

---

(١) الطبري : المصدر السابق ج١/٣١٢ ، ابن كثير : قصص الأنبياء ص٢٠٦ ، أبو الفداء : مصدر سبق ذكره ج١/٢٩ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ص٣٣ ، الطبري : في تاريخه ج١/٣١٢ .

الفصل الخامس

(موسى كليم الله - عليه السلام -)

- نسبه .
- صفاته الجسدية .
- سبب تعذيب فرعون لبني إسرائيل .
- ميلاد موسى .
- موسى في قصر فرعون ثم عودته لأمه .
- موسى يعود إلى قصر فرعون .
- نشأة موسى .
- قتل موسى للمصري وخروجه من مصر .
- موسى في أرض مدين .
- موسى يتزوج بابنة شعيب .
- نزول الوحي على موسى والمعجزات التي أيده الله بها .
- هارون نبي مع موسى ووزيراً له .
- موسى يدعو فرعون إلى التوحيد .
- فرعون يجمع السحرة .
- إيمان السحرة .
- غرق فرعون في ماء البحر عند السويس .
- بنو إسرائيل في سيناء .
- نزول التوراة على موسى .
- بنو إسرائيل يعبدون العجل .
- بنو إسرائيل والبقرة .
- موسى وقارون .
- موسى والخضر .
- وفاة موسى .

الفصل الخامس

(موسى كليم الله - عليه السلام -)

نسبه :

هو : موسى بن عمران بن بصير بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم – عليهم السلام – [١] .

وأمه تُسمى : أياذخت[٢] .

وقد وُلد موسى – عليه السلام – في مصر . وكان بنو إسرائيل – يعقوب يسكنونها منذ أيام يوسف – الصديق – عليه السلام – .

وكان والده : عمران يبلغ من العمر حين وُلد له موسى سبعين عاماً [٣] .

وكانت مصر – في ذلك الوقت – تحت حكم ملك جبار ، ظالم غشوم. هو رمسيس الثاني أو منفتاح بن رمسيس [٤] ، الذي أطلق

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص٤٣ ، اليعقوبي : في تاريخه ج١/٣٣ ، أبو الفداء . المختصر في أخبار البشر ج١/٣٥ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٢٧٠ .

(٣) الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٣٠ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١/١٣٠ .

(٤) د. محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء ص١٨١ .

عليه لقب (فرعون) [١]. فكان يبالغ في تعذيبهم وإلحاق الأذى والنكال بهم ، فيذبح الأبناء ، ويستحى النساء . وكان عهده أسوأ العهود التـــي مرت على بني إسرائيل في مصر . فقد كـــان يعـــذبهم ويســـتعبدهم ، ويجعلهم خدماً ، وقسمهم إلى ثلاثة أصناف . صنف يختصـــون بعمـــل البناء ، وآخر يقومون بالعمليـــة الزراعيـــة ، مـــن حـــرث الأرض ، وزراعتها ، وريها ، ثم حصد المحصول .. وغيره . وثالث : يقومون بأعمال أقل وأحقر من السابقة ، وهذه الأعمال كان يقوم بها الرجـــال ، أما النساء فكن يعملن في خدمة البيوت . وهذا ما يشير إليه قول الله – تعالى – : " يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ " [٢] .

وبنو إسرائيل أقاموا في مصر منذ زمن يوسف الصديق – عليه السلام – ورضوا بالذل والعبودية [٣] .

وقد طال عمر فرعون سنوات عديدة قـــدرها بعـــض المـــؤرخين بأربعمائة سنة [٤] وعانى منه أهل مصر أشد المعاناة ، فلم يكـــن مثلـــه قلب في قسوة القلب ، وفي التجبر ، والتعـــالي ، والتعـــاظم وادعـــاء الألوهية .

---

(١) كلمة فرعون لقب وليست اسماً ، فهي تطلق على كل من يتولى حكم مصر فـــي التـــاريخ القديم . كما يطلق لقب هرقل على كل من يقوم بحكم الإمبراطورية البيزنطية ، وكسرى : على لقب من يحكم إمبراطورية الفرس ، والنجاشي على كل من يحكم الحبشة .

(٢) من آية ٦/إبراهيم .

(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١ /٣٣ .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ص٤٣ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٣١ .

وعلى الرغم من جبروت وطغيان فرعون فقد كانت زوجته آسية بنت مزاحم بن عبيد . فقد كانت امرأة صالحة ، تقية ، يضرب بها المثل في سمو الأخلاق ، وسلامة العقيدة . وقد آمنت بدعوة موسى – عليه السلام – يقول الله – تبارك اسمه – : " وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (١) .

ولما أراد الله أن يرفع هذا البلاء عن أهل مصر ، ويخلصهم من الطاغوت ، أرسل فيهم موسى – عليه السلام – نبياً ورسولاً .

فكانت بعثة موسى – عليه السلام – رحمة لبني إسرائيل وإنقاذاً لهم من ظلم وجبروت فرعون .

صفات موسى الخلْقية (الجسدية) :

كان موسى – عليه السلام – أسمر اللون ، جعدا ، طويلاً في أنفه شامة . وعلى طرف لسانه شامة كذلك (٢) ، وهي العقدة التي ذكرها في قوله : " وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي " (٣) .

---

(١) آية ١١ / التحريم .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ص٤٣ ، القرطبي : في تفسيره ج٦/٤٣٦٣ ، ابن كثير : في تفسيره ج٣/١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) آية ٢٧ ، ٢٨ / طه .

سبب تعذيب فرعون لبني إسرائيل :

رأى فرعون في نومه كأن ناراً قد أقبلت من ناحية بيت المقدس ، حتى اشتملت على بيوت مصر ، فأحرقتها ، وأحرقت المصريين ، وتركت بني إسرائيل .

فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين ، فسألهم عن رؤياه . فقالوا : يولد في بني إسرائيل غلام يسلبك الملك ، ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك أنت وقومك من أرضك ، ويُبدل دينك ، وقد أظلك زمانه الذي يُلد فيه .

فأمر فرعون بقتل كل غلام يُولد في بني إسرائيل [١] .

فجمع المولدات من النساء من أهل مملكته ، وقال لهن : لا يولد على أيديكن غلام من بني إسرائيل إلا قمتن بقتله ، ولا جارية إلا تركت . ووكل بهن وكلاء . فكن يفعلن ذلك .

ويذكر الرواة أن فرعون كان يأمر بالقصب فيشق ، ثم يجعل أمثال الشفار ، ثم يصف بعضه إلى بعض ، ثم يؤتى بالحبالى من بني إسرائيل فيوقفهن عليه ، فيخرج أقدامهن . حتى إن المرأة منهن لتضع ولدها فيقع بين رجليها ، فتظل تطؤه لتتقي به حد القصب عن رجليها لما بلغ من جهدها[٢] .

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٣٣ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١/١٣١ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ص٤٤ .



وبذلك كانت تقتل المرأة ولدها بنفسها ، فإن صبرت على الألم وتحملته ، ولم تطأ ولدها ، وكل فرعون به من يذبحه أمامها .

وكان يعذب الحبالى حتى يضعن ما في بطونهن .

وبهذه الأفعال الشنيعة التي ابتلى بها بنو إسرائيل على يد فرعون، أن أسرع الموت إلى الشيوخ فتخطفهم ، وخلت المملكة من الشباب الذين يدافعون عنها ضد المعتدين ، ويقومون بإدارة المصالح والمرافق.

فدخل جماعة من المقربين على فرعون وقالوا له : إن الموت قد وقع في مشايخ بني إسرائيل ، وأنت تقتل صغارهم ، ويوشك أن يقع عبء العمل علينا ، وكما هو معروف أنهم كانوا يكلفون بالأعمال الشاقة .

فأمر فرعون بذبح الولدان سنة ، وتركهم سنة ، فولد هارون في سنة العفو فترك ، وولد موسى بعد هارون بثلاثة سنوات [1] ، في السنة التي يذبحون فيها المواليد الذكور [2] .

ميلاد موسى ـ عليه السلام ـ :

فلما قاربت أم موسى على وضع ولدها حزنت أشد الحزن خشية أن يقع الغلام في يد ذباحين فرعون ، ثم وضعته خفية . وأرضعته ، ثم

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١ /٣٨٧، ٣٨٨ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٣١، ٢٣٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٢٦٩ .

(٢) الطبري تاريخ الرسل ج١/٣٨٧ .

ألهمها الله – تعالى – أن تصنع له صندوقاً من الخشب تضعه فيه ، ثم تلقى به في ماء النيل .

وحين فعلت ذلك تملكتها وساوس الشيطان ، فندمت واشتد نـدمها وقالت : ماذا فعلت بابني ؟ ، لو ذبح عندي لواريته وكفنته . وكان ذلك أحب إليَّ من أن ألقيه في البحر ، ولا أعرف له مصيراً (١) .

ثم عصمها الله من هذه الوساوس ، فاطمأنت وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ، ويخفضه أخرى ، حتى أدخله بين الأشـجار عنـد قصر فرعون ، في روضة هي مستقى جواري فرعون .

فخرجت جواري فرعون يغتسلن ويسـتقين فوجـدن التـابوت ، فأخذنه . وظنن أن فيه مالاً ، فحملنه على حالته حتى أدخلنه على آسية – امرأة فرعون – فلما فُتح الصندوق رأت فيه الغـلام . فـألقى الله – تعالى – عليها محبة منه ، فرحمته وأحبته حباً شديداً (٢) .

فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا علـى آسـية بشـفارهم ليـذبحوا الصبي. فمنعتهم آسية ، وحين وجدت منهم إصراراً على ذبحه ، طلبت منهم أن يرجئوا ذلك إلى حضور فرعون .

فلما حضر توسلت إليه أن يهب لها هذا الغـلام ، وألحـت عليـه بقولها : " قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً " (٣)

(١) ابن الأثير : الكامل ج١/١٣٢ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٣/١٤٨ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٣٨٩ .

(٣) آية ٩ / القصص .

فتركه ووهبه لها [١] .

وقال لها فرعون : قرة عين لك ، أما لي فلا حاجة لي فيه . يقول عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – : " لو أنه قال وهو لي قـــرة عين ، إذاً لآمن به ، ولكنه أبى . فحرمه الله لذلك " [٢] .

وقالت أم موسى لأخته ، وكانت تسمى (مريم) . وكانــت أكبــر من هارون وموسى – عليهما السلام – [٣] قُصِّيه ، أي تتبعي أثــره ، وأطلبيه ، وتسمعي أخباره . (فَبَصُرَتْ بِــهِ) مــن بعيــد (وهــم لا يشعرون) أنها أخته .

وكانت آسية قد أحضرت المراضع لإرضاعه ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه ، لم يقبل على ثديها .

رأت أخته ذلك فأشفقت عليه ، وتقدمت إليهم وقالت : " هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ " [٤] ، ودلتهم على أمــه ، فطلبوها ، فحضرت وهم لا يعلمون أنها أمه . فلما قربته من ثديا أقبل على الرضاع بنفس راضية مستبشرة .

حينئذ فرحت آسية واطمأنت وطلبت من المرضعة أن تقيم معهـا

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٣٨٩ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ص٤٣ .

(٣) الطبري : المصدر السابق ج١/٣٩٠ .

(٤) آية ١٢ / القصص .

في القصر حيث الحياة الرغدة ، والعيشة الراضية ، وتوفر كل أسباب الراحة والهناء .

فرفضت أم موسى هذا العرض السخي ، وأصرت على أن يعـود الغلام . فيعيش في بيتها مع أخته مريم وأخيه هارون.

وأمام هذا الإصرار وافقت آسية ،،وأحاطته بالرعاية والعناية هـو وأسرته ، واشترطت على أمه أن تأتي به إليها بين الحين والحين لتراه. لأنه ملك قلبها بحبه . ثم تعيده لها في حضن أمه .

وبذلك تحقق وعد الله لأم موسى ، فرده إليها لترضعه ، وهي آمنة مطمئنة تحت كنف فرعون ورعايته فقرت عينا ، وسعدت فؤاد [١] .

وكانت غيبة موسى عن أمه ثلاثة أيام [٢] ، ولما عاد إليها فرحـت وسرت ، وكادت تعلن الحقيقة الغائبة عن الجميع من أن هذا الغلام هو ابنها . لكن الله ربط على قلبها حتى لا تبـوح بالسـر . يقـول الله – سبحانه وتعالى – : " **فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** " [٣] .

ويقول – عز من قائل – : " **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** " [٤] .

---

(١) ابن كثير : البداية ج١/٢٧١ ، وتفسير القرآن العظيم ج٣/٣٨٢ .

(٢) الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٣٦ ، ابن الأثير : الكامل ج١/١٣٣ .

(٣) آية ١٣ / القصص .

(٤) آية ١٠ / القصص .

ويذكر المؤرخون أن آسية امرأة فرعون قامت بتسمية الغلام بموسى . وهي تعريب لكلمة (موشى) العبرية ، التي تعني (ماء وشجر) ، وهي مكونة من مقطعين : مُو أي ماء . وشى أي شجر . لأنه وجد بين الماء والشجر [١] .

وهكذا عاد موسى إلى أمه ينعم بحنانها ورعايتها ، ويعيش بجوار إخوته : هارون ، ومريم ، بعيداً عن المخاوف ، مُحاطاً بعناية فرعون ورجاله وهم لا يدرون ما يسفر عنه الغد القريب من عجائب يرونها على يد هذا الطفل حينما يبلغ أشده ، ويقوى ساعده .

يقول الله – تعالى – : " وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ • فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ • وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ • وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ • وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ • وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ • فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ " [٢].

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٣٩٠ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٣٥ .
(٢) آيات : ٧-١٣ / القصص .

ويقول – تبارك اسمه – : " وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى • إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى • أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي • إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ " (١) .

وقد وضح ابن كثير أن الوحي المقصود هنا في الآيات هو وحي إلهام وإرشاد . لا وحي نبوة ورسالة . كما قال – تعالى – " وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ.ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً " (٢) .

وهذا الرأي رأى أبي الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة . وهو أصح الآراء (٣) .

عودة موسى إلى قصر فرعون :

بعد أن أتم موسى – عليه السلام – سنوات الرضاع ، وصار غلاما يمشي على الأرض ، أرجعته أمه إلى آسية زوجة فرعون ، ليعيش في كنفها . فسرت به آسية وأخذت تلاعبه وترقصه .

وفي إحدى المرات ناولته إلى فرعون ، فلطمه موسى ، وتناول لحيته فنتف منها بعض شعرات .

(١) آيات : ٣٧ – ٤٠ / طه .

(٢) آية ٦٨ ، ٦٩ / النحل .

(٣) البداية ج١/٢٦٩ ، وتفسير القرآن العظيم ج٢/٥٧٥ .

فتطاير الشرر من عيني فرعون ، وتذكر قول المنجمين له ، وأدرك أنه الغلام الذي يكون هلاك ملكه على يديه ، وأرسل على الفور بإحضار الذباحين .

فقالت له آسية : على رسلك إنه صبي لا يميز بين الأشياء ، ولا يعي ما يفعل . وسأضع أمامه جمرة وياقوتة ، فإن اختار الياقوتة فاذبحه ، وإن أخذ الجمرة فهو صبي لا يعرف حقيقة الأشياء .

وأحضرت آسية إنائين ، أحدهما به جمر – نار – والآخر به ياقوت أحمر . ووضعتهما أمام الصبي .

فجاء جبريل – عليه السلام – وأخذ يد موسى فوضعها في الإناء الذي به الجمر ، فتناول موسى جمرة ووضعها في فمه فأحرقت بعض لسانه ، وسببت له عقده [1] ، هي التي طلب من ربه – سبحانه –. أن يحلها عندما بعثه إلى فرعون وقومه .

" قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي • وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي • وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي • يَفْقَهُوا قَوْلِي " [2] .

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٣٩٠ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ابن الأثير : الكامل ج١/١٣٣ ، القرطبي : في تفسيره ج٦/٤٣٦٤، ٤٣٦٥ ، ابن كثير : في تفسيره ج٣/١٤٩ .

(٢) آيات ٢٥ –٢٨ / طه .

نشأة موسى :

نشأ موسى – عليه السلام – في بيت فرعون ، حيث الحياة الرغدة ، والعيش السعيد ، ومباهج الملك والسلطان .

وقد بذل فرعون وامرأته كل ما في وسعهما لتربيته وتنشئته وتعليمه وتهذيبه .

وكان قصر فرعون يضم أعظم المربين والمدرسين – في ذلك الوقت – ، فتعلم موسى : الحساب ، والهندسة ، والفلك ، والكيمياء ، والطبيعة ، واللغات ...

وكان يسخر من المدرسين حين يدرسون في حصة الدين أن فرعون إله ، ويتعجب من هذا الكلام ، فهو يعيش مع فرعون في بيت واحد ، ويعرف أكثر من غيره أن فرعون مجرد إنسان ولكنه ظالم (١).

وشب موسى وكبر في بيت فرعون ، وعاش فيه معززاً مكرماً عيشه أبناء الملوك ، فيركب مراكب فرعون ، ويلبس ما يلبس فرعون. وكان الناس يدعونه (موسى بن فرعون) ، ويحترمونه ويعظمونه من أجل أنه ابن الملك .

ومع ذلك فلم ينس موسى أنه دخيل على بيت فرعون ، وأنه يعود في أصله إلى يعقوب – عليه السلام – ، وانه من نفس الشعب الإسرائيلي ،

---

(١) أحمد بهجت : أنبياء الله ص١٩٥ الطبعة ٢٩ دار الشرق – مصر ٢٠٠٣ م .

الذي يُعاني من ظلم وطغيان فرعون وملئه .

فمال إلى بني إسرائيل بقلبه وروحه ، ولمسوا منه الحب والإخلاص ، وكانوا يهرعون إليه إذا أصابهم سوء ، فكان يعمل على نصرتهم ومؤازرتهم [١] . ولم يكن أحد من آل فرعون يجرؤ على إساءة أو ظلم أحد من بني إسرائيل [٢] .

ويذكر القرطبي : أن موسى – عليه السلام – حين بلغ أشده واستوى أتاه الله الحكمة والتفقه في الدين ، والعلم بما في دينه ودين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب . وهي أمور تسبق النبوة . وكان له تسعة من بني إسرائيل يسمعون منه ، ويقتدون به ، ويجتمعون إليه [٣] .

قتل موسى المصري وخروجه من مصر :

دخل موسى – عليه السلام – مدينة منف – ، وأخذ يتجول في طرقاتها . وكان الوقت ، وقت الظهيرة ، وقد أغلق الناس محلاتهم ، وذهبوا إلى بيوتهم ، ليستريحوا ساعة القيلولة .

فوجد موسى رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلي ، والآخر قبطي (مصري) من آل فرعون . وهما يتضاربان ، ويتهاوشان . وقد اعتدى المصري على الإسرائيلي .

(١) د. محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء ص١٨٦ الطبعة الثالثة – دار الاعتصام – مصر ١٩٨١ .

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٣/١٤٩ .

(٣) تفسير القرطبي ج٧/٥١٤٤ .

وكان سبب ذلك : أن المصر كان يعمل خّبازاً لفرعون ، فأراد أن يسخر الإسرائيلي ليحمل حطباً لمطبخ فرعون . فأبى عليه [١] .

فلما مر به موسى استغاث به الإسرائيلي ، فتقدم لنصرته ، فقال موسى للقبطي اتركه . فأجابه الخباز إنما آخذه في عمل لأبيك ، ورفض أن يُخلي سبيله .

فغضب موسى ، فبطش به ، وخلّص الإسرائيلي من يده ، فنازعه القبطي ، فوجه إليه موسى ضربة بيده – وكان قوياً – أردته قتيلاً ، وهو لم يقصد ولم ينوي قتله .

فتأثر موسى من فعلته وغضب ، واستغفر ربه وأناب . " **قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ** " [٢] ، ودعا ربه أن يغفر له هذا الذنب ، فغفر له إنه هو الغفور الرحيم [٣].

ولم يعلم أحد بموت القبطي إلا الله – تعالى – والإسرائيلي الذي هو من شيعة موسى وأتباعه . ولذلك أصبح موسى في المدينة خائفاً يترقب الأخبار .

فجاء الأقباط إلى فرعون وأخبروه أن بني إسرائيل قتلوا رجلاً منهم ، وطالبوه بأخذ حقهم ، وعدم التساهل معهم، حتى لا يجرؤا عليهم

(١) القرطبي : المصدر السابق ج٧/٥١٤٦ ، الجلالان : تفسير الجلالين ص٥٠٨ .

(٢) من آية ١٥ / القصص .

(٣) الجلالان : تفسير الجلالين ص٥٠٩ .

فقال فرعون : ائتوني بقاتله ، وبمن يشهد على قتله ، لأنه لا يستقيم أن نقضي بغير بينة ودون برهان .

فأطلقوا الأرصاد والعيون لتدلهم على الجاني ، ولتكشف لهم خفايا تلك الجريمة . فهم يُوقنون أن القاتل من بني إسرائيل ، ولكنهم لم يعرفوا مَنْ هو ؟ .

وبينما موسى - عليه السلام - يمر في طرقات المدينة يلتمس الأخبار ، وإذ به يرى ذلك الإسرائيلي الذي نصره بالأمس ، يقاتل رجلاً من الأقباط ، فاستغاث به الإسرائيلي على خصمه الفرعوني . فجاء موسى مغضباً وهو يريد أن يبطش بالفرعوني ، فظن الإسرائيلي أنه يريده ، لما رآه في وجهه من آثار الغضب ، ولما سمعه من قوله : " إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ " (١) .

فصرخ في وجه موسى قائلاً : "يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ " (٢) .

سمع القبطي ذلك ، فطار سريعاً يخبر قومه بأن قاتل المصري بالأمس هو موسى ، وأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي ، فذهبوا على الفور إلى فرعون وأخبروه .

(١) من آية ١٨ / القصص .

(٢) آية ١٩ / القصص .

فاستشاط غضباً ، وامتلأ قلبه غماً وحزناً ، ورجعت به الذاكرة إلى ما أخبره به المنجمون ، وإلى رؤياه السابقة ، التي أنذره بها المنجمون.

ولم يستغرق فرعون في تفكيره طويلا ، إذ به يرسل جنده يبحثون عن موسى ، ويقبضوا عليه ، ويأتوا به إليه ليقتله [١] .

انطلق الجند في كل مكان يفتشون عنه ، وبينما هم على ذلك إذ قيَّضَ الله رجلاً مؤمناً من آل فرعون يتبع موسى ، جاءه من أقصى المدينة يسعى ، وأخبره بما يدبره فرعون وقومه . ونصحه بسرعة الخروج من مصر ، لينجوا بنفسه .

قبل موسى هذه النصيحة ، وعجل بالرحيل مولياً وجهه شطر أرض أخرى . ودعا الله – تعالى – أن يهديه الطريق ، وينجيه من شر فرعون ورجاله الظالمين .

يقول الله – سبحانه وتعالى – : " **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّن أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ. قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ● قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ● قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ● فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ● فَلَمَّا أَرَادَ أَن يَبْطِشَ**

---

(١) الجلالان : تفسير الجلالين ص٥٠٩ .

بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ • وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَىٰ ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ • فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ " [١] .

موسى في أرض مدين :

خرج موسى من مصر يبغى النجاة بنفسه من فرعون وملئه ، وتوجه نحو أرض مدين بدون استعداد ، إذ لم يكن لديه وقت لذلك ، فليس معه زاد لهذا السفر الطويل ، إلا اعتماده علي الله – عز وجل – فهو ناصره ، وحافظه من كل سوء ومكروه .

ولعل اختيار موسى – عليه السلام – أرض مدين دون غيرها ، لوجود قرابة تربطه بين أهلها . فهو من نسل إسحاق بن إبراهيم – عليه السلام – وأهل مدين ينتسبون إلى مدين بن إبراهيم– عليه السلام –. فهم أبناء عمومة[٢].

وقد عانا موسى في هذه المرحلة اشد المعاناة ، ولقي أهوالاً كثيرة، يذكر الطبري : أنه لم يكن معه طعام سوى أوراق الشجر ، وأنه خرج حافياً دون أن يرتدي نعلاً يقيه الحر ، والبرد ، ويخفف عنه

---

(١) آيات ١٥ – ٢١ / القصص .

(٢) القرطبي : في تفسيره ج٧/٥١٥٢ ، ٥١٥٣ ، الجلالان : في تفسيرهما ص٥٠٩ ، ٥١٠ .

وعثاء السفر ، حتى إنه وصل إلى مدين كان قد وقع خف قدمه من فرط الجوع والهزال [١] .

يقول عبد الله بن عباس - ﷺ - : " خرج موسى من مصر إلى مدين وبينهما ثمان ليال ، لم يأكل إلا البقل وورق الشجر . وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء ، وجلس في الظل . وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة " [٢] .

جلس تحت ظل شجرة يستريح مما ألم به من التعب والإجهاد وبينما هو جالس إذا أبصر ابنتين فتاتين تمنعان أغنامهما من ورود الماء للشرب من بئر قريبة ، وحول البئر جماعة من رعاة الأغنام الرجال . فاسترعى انتباهه وجود المرأتين مع هذا الجمع من الرعاة ، ورعي الأغنام مهنة شاقة ، لا يقوى عليها إلا الرجال .

فتقدم موسى منهما وسألهما عن حالهما ، وكيف يعملان في تلك المهنة التي لا يقوم بها إلا الرجال ؟ .

فقالت إحداهما : لا نسقي أغنامنا حتى ينتهي الرعاء من سقي أغنامهم ، والذي ألجأنا إلى ما ترى أن أبانا شيخ طاعن في السن ، صحته لا تساعده على رعي الأغنام .

(١) تاريخ الرسل ج١/٣٩٧ .

(٢) الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٤٠ ، ٢٤١ ، القرطبي : في تفسيره ج٧/٥١٥٦ ، ابن كثير : في تفسيره ج٣ /٣٨٤ .

قام موسى – عليه السلام – بالسقي لهما ، ويذكر الرواة أن البئـر كـان عليه صخرة لا يقوى على رفعها إلا عشرة رجال . فحملهـا بمفـرده وأزاحها عن فتحة البئر وسقى لهما ، ثم أعادها ثانية مكانها [١] .

آوى موسى – عليه السلام – بعد أداء هذه المهمة إلى ظل الشجرة التي كان يجلس تحتها ، ورفع بصره ويديه إلى السماء داعياً : " **رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير** " [٢] .

عادت المرأتان إلى أبيهما في وقت مبكر علـى غيـر العـادة ، فسألهما أبوهما عن سبب ذلك .

فأجابت إحداهما : أن شاباً قوياً أخذته المروءة والشهامة حين رآنا نمنع أغنامنا عن ورود الماء ، حتى يسقي الرعاء ، فسقى لنا .

موسى يتزوج بابنة شعيب ويرعى الأغنام عشر سنوات :

أرسل شعيب – عليه السلام – إحدى بناته لدعوة الشاب للحضور ، حتى يعطيه أجره ، ويشكره على صنيعه مع بنتيه .

فذهبت إحداهما وهي تمشي على حياء وخجل ، واضعة كُم درعها على وجهها حياء منه [٣] ، حتى وصلت إليه فقالت له : " **إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ**

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٣ ، ٣٨٣ ، الجلالان : تفسير الجلالين ص٥١٠ .

(٢) من آية ٢٤ / القصص .

(٣) الجلالان : في تفسيرهما ص٥١٠ .

لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا " (١) .

تصوير قرآني بليغ ورائع ، فقد جعل ربنا – جل في علاه – الحياء بساطاً تمشي عليه بنت شعيب ، وهي ذاهبة لدعوة موسى للحضور إلى بيت أبيها لمقابلته .

سار موسى – عليه السلام – يتبع الفتاة حتى عصفت الرياح بثوبها فألصقته على جسدها . فأمرها موسى – عليه السلام – أن تتأخر عنه ويسبقها هو ، وأشار عليها أن تصف له الطريق (٢) .

وصل موسى إلى دار نبي الله شعيب – عليه السلام – واستأذن في الدخول ، فأذن له الشيخ وهب لاستقباله ، وحياه أعظم تحية .

وسأل شعيب عن قصة موسى ، فحكى له ما كان من قتل المصري وهروبه من مصر حتى لا يقبضوا عليه ويقتلوه .

طمأنه شعيب – عليه السلام – بأنه نجى من القوم الظالمين في حكمهم عليه ، كيف يحكمون عليه بالقتل ، وهو لم يقصده ، وإنما قام بفض الاشتباك بين المصري والإسرائيلي بضربة يد واحدة للمصري . ليكف عن إيذاء الإسرائيلي ، فكانت فيها نهايته .

وهذه القضية لم يكن الجزاء فيها القتل، بل السجن. لكن ماذا نقول

---

(١) من آية ٢٥ / القصص .

(٢) الجلالان : تفسير الجلالين ص٥١٠ .

في قانون قد وضعه فرعون ، الذي تجبر وتكبر وقال " أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى " (١) .

فقال شعيب : يا موسى لا تخف فهذه البلاد لا تتبع مصر ، وليس فيها لفرعون عيون ولا سلطان (٢) .

سمع موسى ذلك من شعيب ، فعاد الرشد والسكينة إلى نفسه ، وهو الذي خرج خائفاً يتلفت حوله وخلفه خشية أن يرسل فرعون رجاله ، فيقبضون عليه ، ويعيدونه إليه ، فينفذ فيه حكم القتل .

انتهزت إحدى بنات شعيب – عليه السلام – هذه الفرصة فهمست في أذن أبيها قائلة له : " يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ " (٣) .

فأراد شعيب أن يعرف من ابنته ما يدل على أمانته . وأما قوته فقد عرفها . فقال لها : أما قوته فقد عرفتها ، فكيف أمانته ؟ .

فقالت : إنه حين تبعها وعصف الهواء بثوبها ، رفض أن يسير خلفها وتقدم أمامها ، وأشار عليها أن تدله على معالم الطريق (٤) .

---

(١) من آية ٢٤ / النازعات .

(٢) القرطبي : تفسير القرطبي ج٧ /٥١٥٧ .

(٣) آية ٢٦ / القصص .

(٤) القرطبي : في تفسيره ج٧ /٥١٥٧ ، ابن الأثير : الكامل ج١ / ١٣٥ ، الجلالان : تفسير الجلالين ص٥١١ .

فالتفت شعيب – عليه السلام – إلى موسى – عليه السلام – ، وعرض عليه أن يزوجه إحدى البنتين ، على صداق أن يقوم موسى بخدمة ورعي الأغنام لشعيب ثمان سنوات ، فإن أكملها عشراً فمن كرمه وفضله .

وافق موسى على هذا العرض ، وتزوج إحدى بنات شعيب . ولعل أنه تزوج التي جاءت تدعوه لأبيها . ومعظم المؤرخين يذكرون أنها كانت تسمى (صفورا) . وأن موسى – عليه السلام – أتم الأجلين أي قام برعي أغنام شعيب عشر سنوات [(١)] .

وقد روى أن النبي – ﷺ – سئل : (أي الأجلين قضى موسى ؟ . قال : أكملهما وأبرهما) [(٢)] .

ورعى الغنم حرفة عظيمة تكسب صاحبها : الحلم ، والصبر ، وتحمل المشاق . فالأغنام منها الشاردة ، والواردة ، والقاصية ، والدانية . فلو لم يكن راعيها حليماً ، لهوى عليها بعصاته الغليظة ، وأصابها إصابات مبرحة ، ربما أفضت إلى الموت .

كما أن رعي الأغنام تجعل صاحبها يفكر في الكون من حوله ، فهو يخرج أول النهار ، ويعود أخره بعد غروب الشمس ، وحلول الظلام ، وتلألؤ النجوم في السماء ، فيكتسب صفاء الذهن، وقوة التفكير

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٣٩٩ ، ابن الأثير : الكامل ج١/١٣٦ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج١/٣٥ .

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٣/٣٨٦ .

في هذا الملكوت العجيب ، صنع الله الذي أتقن كل شيء صنعه. فيستدل بفطرته على أنه لا بد لهذا الكون من صانع ، وهذا الصانع هو الله – سبحانه وتعالى – الذي لا تعجزه قوة في الأرض ولا في السماء.

وما من نبي إلا ورعى الغنم ، ثم يكون – بعد ذلك – راعي الشعوب والأمم . يقول الرسول – ﷺ – : (ما من نبي إلا ورعى الغنم. قالوا : حتى أنت يا رسول الله !. قال : حتى أنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[1] .

يقول الله – تعالى – : " وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ • وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ • فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ • فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ • قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ • قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ • قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ " [2] .

(١) البخاري : في صحيحه ج٤/١٠٨ . والقراريط نوع من العملة كان يستعملها القرشيون قبل الإسلام – لسان العرب لابن منظور ج٥ /٣٥٩١ .

(٢) آيات : ٢٢ – ٢٨ / القصص .

وهكذا فقد أقام موسى مع شعيب عشرة أعوام ، يبادله حباً بحب ، وإكراماً بإكرام ، ويقوم برعاية مصالحه ، ورعي أغنامه . ثم بعد انقضاء الأجل . تذكر المصادر أنه قضى عشر سنوات أخرى في منزل الشيخ (١) . فيكون قد قضى مع صهره وإلى جواره عشرين عاماً، كان فيها موسى – عليه السلام – مثال الجد ، والمثابرة ، والإخلاص ، والأمانة .

ولكن العلم عند الله في المدة التي قضاها موسى بعد انقضاء الأجل، وهو عشر سنوات . لأنه لم يرد في ذلك نص صريح من قرآن وسنة .

وإن الذي جعل العلماء يقولون : إن موسى عاد إلى مصر بعد انقضاء الأجل مباشرة . فكيف وهو يعلم أن هناك في مصر من ينتظره ليقتص منه بعد ثبوت تهمة القتل عليه ، وهو يقول عن نفسه : "وَقَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونَ " (٢) . وقوله : "وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونَ " (٣) .

من هو الشيخ الذي صاهر موسى ؟ :

اختلف العلماء وتعددت الآراء في شخصية الشيخ الذي صاهر موسى – عليه السلام – هل هو نبي الله شعيب – عليه السلام – ؟ . أم رجل آخر ؟

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٣/٢٨٧ . د. محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء ص١٩٣ .

(٢) آية ٣٣ / القصص .

(٣) آية ١٤ / الشعراء .

يروي الطبري بسنده عن قرة بن خالد ، أنه سمع الحسن البصري يقول : شعيب هو صاحب موسى ، فقد عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى ، وتزوج ابنته .

وذكر ابن كثير : أن صاحب موسى ووالد المرأتين هو رجل مؤمن من قوم شعيب. فقد وجد قبل موسى – عليه السلام – بزمن طويل [١] . وقيل: هو ابن أخي شعيب [٢] .

ولعل الرأي الصحيح هو شعيب النبي – عليه السلام – . وهناك من يفوض الأمر إلى الله – تعالى – في حقيقة هذا الشيخ . ومن هؤلاء : الشيخ المرحوم عبد الوهاب النجار فيقول : (ولقد راودت نفسي على أن أقول إن الشيخ الكبير هو شعيب النبي – عليه السلام – فتمثل لي شيخ المعرة – أبي العلاء المعرة – وهو يقول :

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى إني أخاف عليكم أن تلتقوا

وخشيت أن يلقاني شعيب – عليه السلام – في عرصات القيامة فيلببني إلى الله ويقول : أي ربي سل عبدك هذا لم جعلني صاحب موسى الذي استأجره ولم أكن صاحبه ولا وجدت في زمنه ؟. وليس بيدي – حينئذ – حجة ولا برهان . ووجدت الجزم بأن الشيخ الكبير هو شعيب قول

(١) البداية والنهاية ج١/٢٧٥ .

(٢) المصدر السابق .

مني على الله بما لا أعلم وهو منهى عنه بقولـه – تعـالى – : " وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ " [١] .

لذلك كله آثرت تفويض العلم باسم الشيخ الكبير إلى الله – تعالى ، إذ من المحتمل أن يكون شعيب – عليه السلام – ، ومن المحتمـل أيضـاً أن يكون ابن أخيه ، أو أن يكون رجلاً صالحاً من أهل مـدين كـل ذلـك محتمل والله أعلم " [٢] .

موسى يعود إلى مصر :

بعد أن أمضى موسى – عليه السلام – عشر سنوات في خدمـة النبـي شعيب – عليه السلام – في أرض مدين ، وسنوات أخرى الله أعلم بها . اشتد به الشوق والحنين إلى وطنه ، فعزم الرجوع بأهله وولده إلى مصـر ، فجمع أشتات متاعه ، وهيأ رحله ، وودعا صهره وداعاً حسناً ، فـدعا لهما بالتوفيق والسداد . ثم سار نحو الجنوب حتى طور سيناء ، وهناك ضل موسى الطريق .

وكان الوقت ليلاً ، والجو شديد البرودة ، تعصف الرياح في ليـل اشد حلكة وسواداً [٣] . فحار موسى في أمره ، وما هـي إلا لحظـات حتى جاءه الفرج من الله – عز وجل – ، إذ به يرى ناراً مشتعلة فـي

---

(١) من آية٣٦ / الإسراء .

(٢) قصص الأنبياء ص٢٠٣ ، ٢٠٤ . الطبعة الثانية – مكتبة التراث – القاهرة .

(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج١/٣٥ .

شجرة . فأشار على أهله أن يجلسوا حتى يذهب إلى تلك النار ، ليعرف خبرها ، ويأتي منها بما ينير له الطريق ، ويدفع عنه البرودة القارصة، ويسأل مَنْ عندها عن الطريق .

فلما قارب الشجرة وجد العجب العجيب وجد أن النار تشتد اشتعالاً وتوهجاً . ومع ذلك فالشجرة تزدهر بالخضرة ، ولم يؤثر فيها الاشتعال ، ويغير لونها من الأخضر إلى الأسمر .

قال تعالى : " فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ " [١] .

موسى يكلمه ربه ويوحي إليه :

أتى موسى الشجرة فوجد أن النار نوراً عظيماً ممتداً من عنان السماء إلى الشجرة ، فدنا منها ، فتأخرت عنه ، فرجع عنها وأوجس في نفسه خيفة ، فعادت تقترب منه ، فسمع الخطاب من الله – عز وجل – يأمره أن يخلع نعليه ، لأنه لا يحق له أن يخاطبه ربه ، وهو يرتدي في قدميه نعلا ، أو لتتبرك قدميه بالأرض المباركة [٢] .

---

(١) آية ٢٩ / القصص .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١/١٣٧ ، الجلالان : في تفسيرهما ص٤٠٧ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج١/٣٥ ، ٣٦ .

وأعلمه الله – تعالى– أنه اختاره نبياً ورسولاً ، قال – سبحانه وتعالى – : " **فلما أتاها نودي يا موسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني . وأقم الصلاة لذكري** " (٣) .

ثم قال الله – سبحانه وتعالى – : " **وما تلك بيمينك يا موسى . قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى** " (١) .

كان موسى – عليه السلام – يحمل عصاته في يمينه ، فلما سأله الله عما يحمله في يمينه .

فأجاب : بأنها عصا أتوكأ عليها ، وأهز بها أوراق الشجر ، فيتساقط ورقها ، فتأكله الأغنام .

ثم أجمل باقي في منافع العصا بقوله : " ولي فيها مآرب أخرى "، ليأذن له الله – تعالى – بالاستمرار في ذكر وتعديد منافع العصا ، ليحصل له الأنس ، والتلذذ بمخاطبة الله – جل في علاه – ، وإطالة الحديث معه .

ولا شك أن العصا لها منافعها العظيمة ، وفوائدها العميمة . وقد تعرض قوم لتعديد منافع العصا ، ومن هؤلاء : عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – فقال : (إذا انتهت إلى رأس بئر ، فقصر الرشا ، وصلته بالعصا ، وإذا أصابني حر الشمس ، غرزتها في الأرض ،

وألقيت عليها ما يظلني ، وإذا خفت شيئاً من هوام الأرض ، قتلته بها ، وإذا مشيت ألقيتها على عاتقي ، وعلّقت عليها القوس والكنانة والمخلاة، وأقاتل بها السباع عن الغنم) [1].

وروي القرطبي : إن الحجاج بن يوسف الثقفي لقي أعرابياً فقال له : من أين أقبلت يا أعرابي ؟ .

قال : من البادية .

قال : وما في يدك ؟

قال : عصاي . أركزها لصلاتي ، وأعدها لعدتي ، وأسوق بها دابتي . وأقوى بها على سفري . واعتمد بها في مشيتي ، لتتسع خطوتي ، وأثب النهر ، وتؤمنني من العثر ، وألقي عليها كسائي ، فيقيني الحر ، ويدفئني من البرد . وتدنى إلى ما بعد عني . واقرع بها الأبواب ، وأتقي بها عقر الكلاب ، وتنوب عن الرمح في الطعان ، وعن السيف عند منازلة الأقران ، ورثتها عن أبي ، وأورثها من بعدي ابني ، وأهش بها على غنمي ، ولي فيها مآرب أخرى كثيرة لا تحصى)[2] .

ولعل أن يكون كليم الله موسى – عليه السلام – يقصد تلك المنافع العظيمة ، ولكن الله – عز شأنه – أراد أن يُبين له من منافع عصاه مالا يعرفه أحد سواه .

(١) د . محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء ص١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) تفسير القرطبي ج٦/٤٣٦٠ .

فقال له : " أَلْقِهَا يَا مُوسَى ● فَأَلْقَاهَا " (١) .

فامتثل لأمر ربه وألقاها " فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى " (٢) ، انقلبت العصا إلى حالة أخرى فصارت ثعباناً كبيراً ، يتحرك بسرعة كأنه جان يبتلع كل ما يقابله من حجر وشجر . فلما رآها موسى على هذا الوضع العجيب ، وقع في نفسه خوف شديد منها ، فولى مدبراً ، ولم يعقب (٣).

فناداه المولى – عز وجل – قائلاً : " **يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين** " (٤) . " لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ " (٥) .

فعاد موسى واطمأنت نفسه لنداء ربه ، وأدرك أن العصا ليست ثعباناً ولا جاناً ، وإنما هي معجزة أراد الله بها الرمز والإشارة لما سيكون من أمره مع فرعون (٦) .

وأمره الله – تبارك اسمه – أن يأخذ العصا ، فأراد أن يتناولها بيده المغطاه بكم جبته ، فنهى عن ذلك ، وأخذها بيده ، فصارت عصا كما كانت عليه من قبل (٧) .

---

(١) من آية ١٩ ، ٢٠ / طه .

(٢) من آية ٢٠ / طه .

(٣) الجلالان : في تفسيرهما ص٥١٢ .

(٤) آية ٣١ / القصص .

(٥) آية ١٠ / النمل .

(٦) القرطبي : في تفسيره ج٦/٤٣٦٢ ، ٤٣٦٣ .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج١/١٣٧ .

ثم أراه الله – عز وجل – معجزة أخرى ، ليزداد يقيناً واطمئناناً بأن الله قد اختاره نبياً ورسولاً ، ليخرج بني إسرائيل مما هم فيه من ظلم وطغيان فرعون .

فأمره الله – تعالى – أن يدخل يده في جيبه ويخرجها ، وكان موسى – عليه السلام – أسمر اللون (١) . فأدخل كفة يده اليمنى في فتحة الثوب ، فخرجت اليد بيضاء من غير برص ، لها نور كنور الشمس في النهار ، والقمر في الليل ، بل واشد ضوءاً (٢) .

ثم أدخلها موسى مرة ثانية في جيبه وأخرجها فعادت إلى لونها الطبيعي لسائر البدن (٣) .

فهذه معجزة وآية أخرى ، تضم إلى معجزة العصا ، جعلهما الله – سبحانه وتعالى – تثبيتاً لقلبه ، وتمكيناً لرسالته بين فرعون وقومه .

قال الله – تعالى – " **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى • قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى • قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى • فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى • قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى • وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى • لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى** " (٤) .

---

(١) القرطبي : في تفسيره ج٦/٤٣٦٣ ، ابن كثير : في تفسيره ج٣ /١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) الجلالان : في تفسيرهما ص٥١٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١/١٣٨ .

(٤) آيات : ١٧ – ٢٣ / طه .

ويقول الله – تعالى – في سورة القصص : " فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ • فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ • وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ • اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ " (١) .

وهكذا فقد كلم الله موسى وجعله نبياً ، وأعطاه آيتان يدلان على صدق نوبته ، وهي معجزة العصا واليد ، ثم أمره الله – تعالى – أن يذهب إلى فرعون ويدعوه وقومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يأمره أن يكف عن ظلم بني إسرائيل ، ويتركهم يختارون العبادة الصحيحة . وليعلم أنه ليس إلهاً كما يدعى ، وإنما هو بشر مخلوق ، لمن خلق سائر البشر ، وحق عليه أن يخصه وحده بالعبادة والشكر (٢).

قدر موسى – عليه السلام – خطر المهمة الملقاة على عاتقه . ففرعون رجل متكبر ، وصاحب سلطان وجبروت . فطلب من الله – سبحانه وتعالى – أن يرسل معه أخاه (هارون) ليكون معيناً له في تبليغ الرسالة .

---

(١) آيات : ٢٩ – ٣٢ / القصص .

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٣٤ ، ٣٥ ، القرطبي : في تفسيره ج٦/٤٣٦٤ .

وكان هارون لا يزال مقيماً في مصر مع بني إسرائيل ، يصبرون على أذى وطغيان وظلم فرعون ، ويرجون من الله الخلاص مما هم فيه .

فتوجه موسى إلى الله – تعالى – بهذا الدعاء والرجاء قائلاً : " رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي • وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي • وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي • يَفْقَهُوا قَوْلِي • وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي • هَارُونَ أَخِي • اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي • وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي • كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً • وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا • إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا " [١] .

فاستجاب الله – سبحانه – له رجاءه ودعاءه ، وأشرك معه أخاه هارون في النبوة . وكان فصيح اللسان ، عظيم البيان ، له ملكة قوية على التأثير في السامعين ، وإقناعهم بالحجج القوية .

قال الله – تعالى – : " قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى " [٢] . أي أجبناك إلى جميع ما سألت وأعطيناك الذي طلبت وخشي موسى – عليه السلام – أن يقتله فرعون بالرجل المصري الذي ضربه ضربة يد عادية فأردته قتيلاً . فخرج بسببه من مصر واتجه إلى أرض مدين . فيها السنوات الطوال ، خوفاً من بطش وظلم فرعون وملئه .

---

(١) آيات : ٢٥ – ٣٥ / طه .

(٢) آية ٣٦ / طه .

فطمأنه رب العزة – جلت قدرته – بأنه لن يستطيع أحد أن يمسك أنت وأخوك بسوء ، وكذلك كل من آمن معك . وأن الله سيجعل لهما من القوة والسلطان ما يخيف فرعون في سلطانه وقوته [١] ، وأنهما ومن تبعهما الغالبون .

قال الله – تعالى – : " رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ • وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ • قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [٢]

فاطمأن موسى – عليه السلام – وعلم أنه مؤيد بقدرة الله – تعالى – ، وأنه لا يستطيع بشر أن يناله هو وأخوه ومن آمن معهما بسوء ، وأنهما سينتصران على القوم الظالمين .

وأوحى الله – تعالى – إلى هارون ، وهو بمصر ، وأمره أن يخرج ليلقي موسى ، فقد أُشرك معه في النبوة ، وجعله الله – تعالى – مُعيناً ووزيراً يشد من أزر أخيه موسى – عليهما السلام – [٣] .

قالت السيدة عائشة – رضي الله عنها – أنها سمعت رجلا يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج : أيُّ أخٍ أَمَنُّ على أخيه ؟. فسكت القوم .

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج٥ / ٢٦٩٣ الطبعة (١٣) دار الشروق – مصر ١٩٨٧ .

(٢) آية ٣٣ – ٣٥ / القصص .

(٣) القرطبي : تفسير القرطبي ج٦ / ٤٣٦٦ .

فقالت السيدة عائشة لمن حول هودجها : (هو موسى بن عمران ، حين شفع في أخيه هارون ، فأوحى الله إليه) [١] .

فخرج هارون والتقى بموسى بجانب الطور الأيمن ، واستمع معه إلى تكليف الله لهما بالرسالة ، وأمره لهما بدعوة فرعون إلى عبادة الله وحده ، وترك بني إسرائيل يعبدون ما يريدون ، وأن يرفع عنهم العذاب [٢] .

وأمرهما الله – تعالى – أن يترفقا في دعوة فرعون ، فيقولان له قولاً ليناً ، لأن ذلك أدعى لاستمالة القلوب .

قال – تعالى – : " اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى • فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى • قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى • قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى • فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى " [٣] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٢٨١ ، وقصص الأنبياء ص٣٤٢ .

(٢) محمد جاد المولى وآخرون : قصص القرآن – الطبعة (١٣) مكتبة التراث القاهرة سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

(٣) آيات : ٤٣ – ٤٧ / طه .

موسى يدعو فرعون :

بعد أن أمر الله موسى وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون فيدعوانه باللين والرفق إلى توحيد الله – سبحانه – ، لأن اللين أرفق بالنفس ، وأميل للقلب . لعل ذلك يجعله يتذكر قدرة الله وقوته ، ويخشى عقابه ، إن خالفكما واتبع هواه .

ولما أعربا موسى وهارون عن خوفهما من بطش وجبروت فرعون ورجاله الظالمين . فطمأنهما بأن الله معهما بحفظه ورعايته ، فلن يصل إليهما أذى فرعون وملئه . وأن يدخلا عليه فيعلماه أنهما رسولا رب العالمين ، أرسلهما الله إليه ليؤمن ، ويرسل معهم بني إسرائيل ، ويتركهم يتبعون الطريق المستقيم ، ويرفع عنهم عذابه (١) .

وصل موسى وأهله ومعه أخاه هارون إلى مصر ليلاً ، وتوجه إلى بيته ، وقابل أمه فسرت به بعد غياب السنين ، وطارت من الفرحة حين علمت أن الله جعل ولديها من الأنبياء ، وأنه أرسلهما إلى فرعون وقومه . فأيقنت بوعد الله لها ، حين قال لها : " إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ " (٢) .

وعلى الفور قام موسى وهارون – عليهما السلام – بالذهاب إلى فرعون في نفس الليلة التي وصلا فيها إلى مصر، وعلما أن الوقت

---

(١) اليعقوبي : في تاريخه ج١/٣٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٢٨١ .

(٢) من آية ٧ / القصص .

كان متأخراً إلا أن موسى أصر على الذهاب إلى فرعون ودعوته .

وصل موسى وهارون إلى قصر فرعون وطلبا من البواب أن يأذن لهما بالدخول على فرعون . فقال البواب: وماذا أقول لفرعون ؟ .

فأجابه موسى : قل له جاءك رسول رب العالمين .

ففزع البواب حين سمع ذلك ، لأن فرعون قد أوهمهم بأنه ربهم وإلههم .

فدخل البواب على فرعون فقال له : إن بالباب إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين .

فقال فرعون : أدخلوه . فدخل موسى وهارون .

فقال فرعون لموسى : من أنت ؟ .

قال : أنا رسول رب العالمين . وقد أمرني أن أدعوك إلى عبادته وحده ، وأن تخلع عن الإلحاد والكفر ، وتعلم أن لك معاداً وأنك راجع إلى الله ، فيحاسبك على عملك . وليس بعدها بمستعتب إلا الجنة أو النار .

وحاول موسى إيقاظ الجوانب الإنسانية في فرعون ، لعله يتقي الله ويرجع عن كفره وإلحاده . والمح له أنه يملك مصر ، ويستطيع لو أراد أن يكون له ملك في الجنة ، إذا اتقى الله ، وحرص على رضاه .

استمع فرعون إلى حديث موسى وهو ضجر النفس ، مستهزئاً به، وقد تصوره مجنوناً تجرأ على مقامه السامي . ثم رفع يده وقال : ماذا تريد ؟ .

قال موسى : أريد أن ترسل معنا بني إسرائيل .

فقال فرعون : بأي صفة أرسلهم معك ، وهم عبادي ؟! .

قال موسى : إنهم ليسوا عبادك ، إنك بشر مخلوق مثلهم ، وإنما هم عباد رب العالمين .

ثم تحقق فرعون من موسى ، فأخذ يذكره بما له عليه من أياد بيضاء ، منذ ولاته .

فقال له : ألست موسى الذي جاءنا طفلاً رضيعاً ، لا حول له ولا قوة . وقد ربيناه ، وأطعمناه من طعامنا ، وشرب من شرابنا ، ولبس من ملابسنا .

ثم لفت نظر موسى إلى جريمة القتل التي ارتكبها ، وفر على أثرها من ديار مصر ، يبغى النجاة بنفسه .

فرد عليه موسى رداً مفحماً : إن النعمة التي تمن بها علي من أنك أحسنت إليّ ، وأنا رجل واحد من بني إسرائيل ، وأنت استخدمت الشعب كله في أعمالك وخدماتك . هل نعمتك تقابل ما قام به الشعب بأكمله في خدمتك .

وأما من قتلي المصري ، فأنا لم أرد قتله . وقد فعلت ذلك قبل أن أكلف بالرسالة (١) . وأحمل أمانة التبليغ للناس .

يقول الله – سبحانه – : " قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ • وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ • قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ • فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ " (٢) .

احتداد الحوار بين موسى وفرعون :

سلك فرعون بالحوار طريقاً آخر ، فقال لموسى : أنت تقول : " أنا رسول رب العالمين – وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ " (٣) .

قال موسى: "رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ "(٤) .

فالتفت فرعون لمن حوله ساخراً من كلام موسى وقال لهم : " أَلَا تَسْتَمِعُونَ " (٥).

---

(١) أحمد بهجت : أنبياء الله ص ٢١٠ ، د. محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء ص٢٠١ .
(٢) آيات : ١٨ – ٢١ / الشعراء .
(٣) من آية ٢٣ / الشعراء .
(٤) من آية ٢٤ / الشعراء .
(٥) من آية ٢٥ / الشعراء .

قال موسى غير مبال بسخرية فرعون : " رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ " (١) ، فقال فرعون لمن كان مع موسى : " إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ " (٢) .

لم يلق موسى بالاً باتهام وسخرية فرعون ، واستمر يبين للملأ صفات رب العالمين فقال : " رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ " (٣) .

يقول الله – سبحانه وتعالى – : واصفاً جزءاً من الحوار الذي دار بين موسى – عليه السلام – وفرعون مصر : " قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ " (٤).

وفي سورة طه – عليه السلام – جزءاً من مشهد لقاء موسى بفرعون . يقول الله – تبارك اسمه – : " فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ۝ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا

---

(١) من آية ٢٥ / الشعراء .

(٢) من آية ٢٧ / الشعراء .

(٣) من آية ٢٨ / الشعراء .

(٤) آيات ٢٣ – ٢٨ / الشعراء .

بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى " (١) .

إن فرعون لم يكن سؤاله عن رب السموات والأرض سؤالاً يريد به المعرفة ، بل كان على سبيل التهكم والسخرية .

فما أن سمع موسى يقول : " ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى " . أي الخالق لجميع الأجناس ، والقابض على ناصيتها ، والعليم بها ، والشاهد عليها في جميع الأحوال .

فعمد فرعون إلى سؤال موسى قائلاً : فما بال القرون الأولى لم تعبد إلهك هذا ؟ .

فرد موسى هذه القرون المؤمنة والكافرة علمها محفوظ عند الله في كتاب لا يغيب عنه ، ومُجازٍ كل على عمله (٢) .

ثم لفت موسى نظر فرعون إلى آيات الله في الكون ، وأعلمه أن الله خلق الإنسان من الأرض ، ثم يعيده إليها ، ثم يخرجه منها للبعث والجزاء ، والوقوف بين يدي الله – عز وجل – (٣) .

فقال ربنا : " ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ

---

(١) آيات : ٤٧ – ٥٢ /طه .

(٢) الجلالان : تفسير الجلالين ص٤١٠ .

(٣) نفس المصدر السابق .

مَن السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى • كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى • مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى " (١) .

لم يعجب فرعون هذا الأسلوب العملي الذي يدل على وحدانية الله، وأنه الإله الواحد لهذا الكون ولا إله غيره ، فاتجه إلى التهديد والوعيد لموسى إن عبد غيره ، سيكون مصيره غياهب السجون . فقال له : " لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ " (٢) .

علم موسى – عليه السلام – أن الحجج العقلية لم تعد تنفع مع فرعون ، لأنه يقابلها بالسخرية ، والتكبر ، والاستعلاء ، فعمد إلى إظهار المعجزة (٣) فقال له : " أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ " (٤) .

فرد عليه فرعون قابلاً تحديه " قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " (٥) .

فألقى موسى عصاه في ردهة القصر وظن فرعون أول الأمر أن العصا وقعت من يد موسى لارتباطه حين طالبه بإظهار البرهان على صدقه .

---

(١) آية ٥٣ ، ٥٤ / طه .

(٢) آية ٢٩ / الشعراء .

(٣) الجلالان : تفسير الجلالين ص٤٨٢ .

(٤) من آية ٣٠ / الشعراء .

(٥) آية ٣١ / الشعراء .

وإذا بالعصا تتحول إلى ثعبان كبير مخيف ، يتحـــرك بســـرعة ، واتجه نحو فرعون .

رأى ذلك فأصابه الفزع والخوف ، وانكمش في كرسيه ، ورجـــا موسى أن يبعده عنه [١] .

مد موسى – عليه السلام – يده إلى الثعبان فانقلب في يده عصـــا ، كمـــا كانت من قبل .

ثم اتجه موسى إلى إظهار المعجزة الثانية ، فأدخل يده في جيبـــه وأخرجها فإذا هي بيضاء كالقمر ، جذب نورها الأبصار ، وكل الأنوار التي في القصر تضاءلت [٢] .

رأى الحاضرين ذلك فأثرت فيهم المعجـــزتين ، وأيقـــن الـــبعض صدق ما جاء به موسى وهارون – عليهما السلام – .

ثم أعاد موسى يده إلى جيبه فعادت كما كانت .

وأمر فرعون بنهاية الحوار على أن يُعقد في الغد .

أنصرف موسى وهارون ، وقد ضاقت مسالك القوم أمام فرعون ، وغشيه من الهم ما غشيه ، وسيطر عليه الفزع والخوف على ملكـــه . فأشرك معه قومه في الرأي والمشورة .

---

(١) اليعقوبي : في تاريخه ج١/٣٥ ، الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤٠٦ ، ابن كثير : البدايـــة والنهاية ج١/٢٨٣ .

(٢) الطبري : في تاريخه ج١/٤٠٦ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٥٣ .

وطلب ضرورة عقد اجتماع يضم وزراء وكبار الدولة ، ليتشاوروا ويقرروا ماذا يفعلون في أمر موسى وأخيه .

دعا هامان – رئيس وزراء فرعون إلى عقد الاجتماع ، وحضره الجميع ، ودارت المناقشات .

فقال فرعون : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما . فماذا ترون ؟ .

فقالوا : نحبسهما ، وابعث رجالك في المدائن يأتوك بكل ساحر عليم [١] .

سمع فرعون ذلك منهم ، فصادف الرأي هوى في نفسه ، فوافق عليه .

وظن هو ورجاله أن ما جاء به موسى وأخوه من قبل السحر ، وأنه لا يبطله إلا سحر مثله .

وأرسل إلى كل مدن مصر أن يحضر كل من له مهارة بالسحر . فلما تجمعوا عنده في القصر ، أعلمهم المهمة الملقاة على عاتقهم ، وأنهم مكلفون بإبطال سحر موسى وهزيمته .

---

(١) الجلالان : تفسير الجلالين ص٤٨٢ .

وعندما يتم ذلك يكون هؤلاء السحرة من المقربين من الملك ، ومن جلسائه ، وأصحاب المهن والأعمال المهمة ، علاوة على ما يغدقه عليهم فرعون من الأموال الكثيرة .

حضر موسى في اليوم التالي لمناظرة فرعون ودعوته ، وإقناعه بقبول دعوة الحق والهدى والرشاد .

فلما التقى به لجأ فرعون إلى أسلوب التهديد والوعيد مع نبي الله موسى – عليه السلام – : لكنه لم يعبأ به ولم يعر كلامه أي اهتمام .

فقال فرعون لموسى : أنت ساحر يا موسى ، وقد قررت أن أبطل سحرك ، وأكشف زيفك أمام الجميع .

قال موسى : ومتى الوعد ؟ .

قال فرعون : بعد أيام قلائل تجئ مناسبة طيبة ، هي عيد القوم ، ويوم زينتهم .

يوم أن تتزين الأرض بالخضرة لقدوم الربيع ، يوم شم النسيم ، ويخرج الناس فرحين بهذا اليوم [١] .

قال موسى : سأحضر في هذا الموعد إن شاء الله – تعالى – مبكراً في ضحى ذلك اليوم . وانصرف .

(١) الجلالان : تفسير الجلالين ص٤١٠ ، ٤١١ .

قال الله – تعالى – : " وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى • قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى • فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى • قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى " (١) .

فرعون يستمر في ضلاله وغيه :

بعد أن حاجه موسى بالحجج القوية ؛ والبراهين الساطعة على أنه نبي مرسل من قبل الله ، ورفض فرعون قبول دعوته خوفاً على ملكه، فجمع رجال دولته ثم قال لهم : " يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي " (٢) .

وادعى واهماً أن يستطيع أن يلتقي بإله موسى ليجادله أو لينازله . فأمر رئيس وزرائه هامان أن يبني له صرحاً عالياً ، سلماً في السماء ، ليصعد عليه ليرى إله موسى .

فقام هامان ببناء مرتفع وشيدوه . فصعد عليه فرعون ، ورمى بنشابة نحو السماء ، فرجعت متلطخة بدماء .

فقال فرعون لقومه : قد قتلت إله موسى (٣) .

---

(١) آيات : ٥٦ – ٥٩ / طه .

(٢) آية ٣٨ / القصص .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤٠٥ ، القرطبي : في تفسيره ج٧ / ٥١٧٥ .

وقد ورد ذلك في سورة القصص . يقول الله – تعالى – : " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ " (١) .

توافد السحرة على فرعون :

أرسل فرعون من ينادي في المدائن بأن يأتي إلى قصر فرعون كل ساحر حاذق ، ماهر في عمله ، فبدأت وفود السحرة ترد إلى القصر ، وتجمعوا من كل مكان . يبغون فوز ورضا فرعون عنهم . ويضعون أمامه كل خبرتهم وإمكانياتهم .

وحين تكامل الجمع ، واحتشد السحرة بأعداد غفيرة . قدرها الطبري بخمسة عشر ألف (٢) .

ويروي القرطبي عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال : " إنهم كانوا اثنين وسبعين ساحرا ، مع كل ساحر منهم حبال وعصى " (٣) .

ويذكر القرطبي روايات أخرى منها : وقيل : كانوا اثني عشر ألفاً. وقيل أربع عشرة ألفا (٤) .

(١) آية ٣٨ / القصص .

(٢) تاريخ الرسل ج١/٤٠٧ .

(٣) تفسير القرطبي ج٦ /٤٣٨٧ .

(٤) نفس المصدر السابق .

ويروي ابن كثير عن محمد بن كعب : أنهم كانوا ثمانين ألفـا . وعن القاسم بن أبي برة : كانوا سبعين ألفاً . وعن السـدى : بضـعة وثلاثين ألفاً . وعن أبي ثمامة أنه قال : كان سحرة فرعـون : تسـعة عشر ألفاً .

وقال محمد بن إسحاق : إنهم كانوا خمسة عشر ألفاً .

وقال كعب الأحبار : كانوا اثني عشر ألفاً (١) .

وعلى كل فالعلم عند الله في تقدير العدد الصحيح ، ولكنهم كـانوا كثرة واضحة ملأوا المكان ، وأحدثوا ذعراً لموسى حين خيل إليـه أن حبالهم وعصيهم من سحرهم أنها تسعى .

حين حضر عدد السحرة الهائل وتجمعوا أمام قصر فرعون ، أمر بهم فدخلوا عليه .

ثم أمرهم بالوقوف ، وأخذ يمشي بين صفوفهم يتأمـل وجـوههم ، ويتفحص ملابسهم ، وهو صامت يفكر .

ثم وقف فجأة وقال بأعلى صوته : أيها السحرة نحن نواجه مشـكلة صغيرة . وقد دعوتكم لحلها ، هناك رجل يُسمى موسى ، يـدعي إنـه رسول رب العالمين ، ومعه أخوه هارون . إنه ساحر ماهر قدير .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ / ١٥٨ .

أريد أن تهزموه ، وتبطلوا سحره . إنه ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين .

فرد عليه بعضهم : ليطمئن مولانا الفرعون . فهذه لعبة قديمة ، نجيد فنها .

فقال فرعون : لقد اتفقنا على اللقاء يوم الزينة . سيجتمع الشعب المصري كله ويشاهدكم وأنتم تهزمونه .

فقال السحرة لفرعون : إنا لنا لأجراً إن غلبنا .

قال فرعون : نعم ، لكم أجر وقربى . تنعمون في حماي ، وتسعدون بجواري ، وتنزلون موارد النعيم والترف [١] .

لقاء موسى وسحرة فرعون :

حان وقت اللقاء بين موسى – عليه السلام – وسحرة فرعون ، وجاء يوم عيد شم النسيم ، وخرج الكل يُشاهد تلك المناورة .

وكان المكان واسعاً ومكشوفاً إلا من ظله صغيرة وضعت لفرعون تقيه حرارة الشمس .

وجاء السحرة بأعداد ضخمة قدرها العلماء بالآلاف المؤلفة – كما مر – ومشى هؤلاء بخطى ثابتة ، واثقين من أنفسهم .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤٠٧ .

وقد اتفقوا فيما بينهم على بذل كل ما في وسعهم لإبطال سحر موسى – كما يزعمون ، لينالوا التكريم والتشريف من فرعون الذي وعدهم بذلك .

وكان قد شاع خبر إفحام موسى لفرعون وكبار رجاله ، حين توجه إليه لدعوته ، وعجز الكل ، وخرست الألسن أمام المنطق المبين، والحجة الدامغة .

وعرف الجميع أن فرعون طلب إنهاء اللقاء ، وإعطائه مهلة ليدبر أمره ، وينظر ماذا يفعل في أمر موسى وهارون . ولذا فقد تاقت نفوس المصريين ، وكل سكان مصر إلى حضور تلك المناظرة .

والكل يتمنى من صميم قلبه أن يهزم موسى ، فرعون ورجاله . فقد عانوا من حكمه أشد المعاناه ، وذاقوا الذل والهوان ، وتمنوا الخلاص منه .

وها هي ساعة الخلاص قد حانت ، ووجدوا في موسى مخلصاً لهم مما حلّ بهم من الظلم والطغيان .

ولذلك احتشد الجميع ، وضاق المكان بهم ، على الرغم من سعته وبسطته .

حضر السحرة مجتمعين ومعهم حبالهم وعصيهم ، التي صنعوها من جلود البقر ، مُجوفة ، ووضعوا فيها الزئبق [١] .

- وابتدأت المناظرة ، والكل مشرئب إليها وإلى معرفة نتائجها ووقائعها .

فقال السحرة لموسى : إما أن تبدأ أنت أم نكون نحن البادئين .

فرد عليهم موسي واثقاً بنصرة الله وتأييده له ، وأن ما يفعله هؤلاء لا يزيد عن كونه وهم وخيالات سحر بها السحرة أعين الناس ، وهذا لا يقف لحظه واحده أمام سلطان الحق وقوته . فقال لهم : ألقوا .

فألقي السحرة كل ما تحويه جعبهم من عصي وحبال وقد حمي فيها الزئبق وتحرك ، فشب الحبال والعصي [٢] . وَخُيِّلَ للحاضرين أنها حيات وثعابين تسعي وتتحرك . وضج المكان بالفرح والسرور ، واعتقد فرعون وجنوده أن السحرة نجحوا فيما صنعوا ، وأن موسي مهما بلغ أمره ، واشتد خطره ، فلن يستطيع أن يقاوم هذا السحر العظيم .

رأي موسي – عليه السلام – ما فعله السحرة من انقلاب العصي إلي حيات ، فأوجس في نفسه خيفه علي الناس أن يفتنوا بسحرهم ، ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه . فثبته الله – تعالي – أمام هذا الجمع الزاخر . وأوحي إليه أن : لا تخف فإنك أنت المنصور ، وإن ما فعلوه ليس إلا خداع

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٣٥ .

(٢) نفس المصدر السابق .

وتمويه (١) لا يثبت أمام الحق . يقول الله – تعالى – : " لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ " (٢) .

ألقى موسى عصاه فانقلب إلى ثعبان كبير ، ابتلـع كـل الحيـات والثعابين ، في سرعة عجيبة ، وتلاشى الباطل أمام قوة الحـق . ثـم أخذها موسى فإذا هي عصاه في يده كما كانت (٣) .

فأصيب الجميع بدهشة كبيرة ، وعظم الخطب ، واشتد الكـرب ، وأدرك السحرة أن موسى مؤيد بقوة الله – سبحانه وتعالى – ، وأن ما جاء به ليس سحر ولا شعوذة ولا زوراً ولا بهتان ، وإنما هي آية مـن آيات الله الباهرة ، أيد الله بها نبيه موسى ، لتكون برهان على صدقه . فأعلنوا إيمانهم صراحة أمام الملأ.

وخروا ساجدين يقولون : " آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ " (٤) .

فاشتاط فرعون غضباً . فهؤلاء السحرة الذين عقد عليهم الآمـال في الانتصار على موسى وهارون ، إذ بهـم يصـلون إلـى الحقيقـة الكبرى، ويدخلون في الإيمان ، ويؤمنوا برب العالمين . ويخيبوا أمـل فرعون فيهم .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج١٥٨/٣ .

(٢) آية ٦٨ ، ٦٩ / طه .

(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج٣٥/١ ، الطبري : تاريخ الرسل ج٤٠٩/١ .

(٤) آية ٧٠ / طه .

فانقلب على السحرة ، وتوعدهم وهددهم بقوله : " إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ " (١) .

لقد اتفقتم معه ضدي ، ودبرتم هذا الأمر ، ولكن كيف يكون موسى كبير السحرة ومعلمهم السحر ، وهو يعلم علم اليقين أنه لم يجمعهم ، ولا علم له باجتماعهم ، وإنما الذي استدعاهم هو فرعون نفسه من البلاد ، ليبطلوا دعوى موسى – عليه السلام – (٢) . فهذا تصرف المغلوب يلتمس لنفسه العذر .

ثم أراد أن يستر هزيمته ، ويستعيد هيبته فقال متوعداً السحرة " فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى " (٣) .

لم يلتفت السحرة إلى تهديد فرعون لهم ، وإلى عقابه الشديد ، الذي ينتظرهم ، فقد ثبتوا على الإيمان ، وصرخوا في وجهه مُتحدين بطشه وجبروته " قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى " (٤) .

روى ابن كثير عن سعيد بن المسيب – رضي الله عنه – أنه قال : (لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة ، تُهيّأ لهم وتزخرف

(١) من آية ٧١/طه .

(٢) ابن كثير : قصص الأنبياء ص٣٥٤ .

(٣) آية ٧١ / طه .

(٤) آيات : ٧١-٧٣ / طه .

لقدومهم . ولهذا لم يلتفوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده ، بل صدعوا بالحق في وجهه) [١] .

ولقد نفذ فرعون ما هددهم به ، فصلبهم وقطّع أيديهم وأرجلهم ، وقتلهم شر قتلة .

ومع ذلك لم يثنهم عن الإيمان بالله ، فماتوا شهداء أبراراً – رضوان الله عليهم أجمعين – .

قال عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – : (كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا من آخره شهداء بررة) [٢] .

وقد آمن بالله وحده ، وصدّق برسالة موسى – عليه السلام – عند إيمان السحرة ستمائة ألف [٣].

إصرار فرعون على كفره وعناده :

على الرغم من وضوح نبوة موسى – عليه السلام – ، وتأييد الله – سبحانه وتعالى – له بالآيات والمعجزات الكبرى . وأنه مرسل من عند الله ، لدعوة فرعون وقومه ، واعتناق السحرة الإيمان ، ودخول غيرهم في الإيمان ، كتموا إيمانهم خوفاً من فرعون .

---

(١) البداية والنهاية ج١/٢٨٩ .

(٢) الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٥٧ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٣/١٥٨ ، وقصص الأنبياء ص٣٥٧ .

(٣) القرطبي : في تفسيره ج٤ /٢٧٩١ .

ظهرت الحقيقة واضحة للعيان ، ومع ذلك فلم يتعظ فرعون ، ويكف عن كفره وعناده ، ويؤمن بدعوة موسى - عليه السلام - ولاسيما بعد أن رأى من الآيات البينات ، بل أصر على عناده ، وتمادى في إلحاده.

وإن الذي شجعه على ذلك كبار القوم وأشرافهم ، حين طلبوا منه أن يضع لموسى حداً ، وألا يتركه وقومه يفسدون في الأرض .

لقي ذلك الطلب ترحيباً من فرعون ، فأعلن أنه سينزل لموسى ومن يتبعونه اشد العذاب والنكال ، حتى يكونوا عبرة وعظة لمن يتجرأ على مقام فرعون السامي .

ووعد قومه بأن يقتل قوم موسى ، ويستحي نساءهم ، معتزاً بما له عليهم من القهر والغلبة والسلطان .

وأنذر موسى وقومه بأن ينزل بهم أقسى العذاب ، إذا ظلوا على طريقتهم ، ولم يرجعوا عن ملتهم .

ولما لم يرجع موسى وقومه عن دين الحق ، قام فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، وترك نسائهم بوحشية وقسوة، وبأعداد غفيرة [1].

فضج هؤلاء بالشكوى إلى موسى ، طالبين منه أن يفعل شيئاً ، يرفع عنهم ما حل بهم من البلاء .

فطلب منهم موسى - عليه السلام - أن يصبروا ويلجأوا إلى الله ، الذي يكشف السوء ، ويجيب المضطر إذا دعاه ، ويورث الأرض لمن يشاء

(١) القرطبي : في تفسيره ج٤/٢٧٩٢ .

من عباده ، ويجعل العاقبة للمتقين .

فلما اشتد بهم الظلم ، وكثرت آلامهم ومتاعبهم النفسية ، قالوا يا موسى : لقد أوذينا قبل مجيئك إلينا ، ولا يزال الأذى يلاحقنا بعد مجيئك .

فبين لهم موسى – عليه السلام – أن الله جاعل بعد الضيق فرجاً ومخرجاً، وأن مع العسر يسراً ، وبشرهم بالنصر القريب [١] .

قال – تعالى – : "وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ • قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ • قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ " [٢] .

رجل مؤمن من آل فرعون يحذره :

ظل فرعون وكبار رجال دولته يذيقون بني إسرائيل التنكيل والهوان . ثم قرر فرعون أن يقتل موسى ، ليستريح من متاعبه وآلامه التي سببها له ، والتي طيرت النوم من عينيه .

---

(١) القرطبي : مصدر سابق ج٤ /٢٧٩٢ ، ٢٧٩٣ ، ابن الأثير : الكامل ج١/١٤٢ .

(٢) آيات : ١٢٧ – ١٢٩ / الأعراف .

فشاء الحق – تبارك وتعالى – أن يؤمن من آل فرعون الجاحدين، رجل يسمو بعقيدته ، يتصدى لفرعون وقومه ناصحاً ومحذراً .

فقال لهم : لم تقتلون رجلا يريد لكم كريم الحياة وسعادتها . وقد رأيتم على يديه الآيات البينات . فإن كان كاذباً فلن يضيركم كذبه ، لأنه يحمل أثمه وحده . وإن يكن صادقاً ، فالخزي والنكال عليكم .

الم تتعظوا بما أصاب الظالمين قبلكم من قوم نوح وعاد وثمود . والذين من بعدهم .

ما لكم تحيدون عن الحق ، وتتمسكون بالباطل . وقد وضح الحق، وظهر لكم ، وأنتم تغمضون عيونكم عنه (١) .

ولما لم يهتموا بدعوته ، ويستمعوا إلى نصيحته تركهم ، وَفَوَّضَ أمره إلى الله – عز وجل – .

فوقاه الله – سبحانه وتعالى – شرهم ومكرهم ، وأنزل عذابه على فرعون وقومه .

قال الله – تعالى – : " وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ • يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٢٩٢ .

فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ● وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ● مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ " [1] .

ثم يقول – جل شأنه – : " وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ● تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ● لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ● فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ● فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ " [2] .

ومع أن نصيحة مؤمن آل فرعون كانت خالصة ، ويُراد بها الخير والسعادة لفرعون وقومه ، إلا أن فرعون لم يأخذ بها ، ولم يُغير من نفسه ، ويُنزل من غروره وكبريائه . بل تمادي في العناد والطغيان . وأخذ يُباهي بملكه العظيم ، وبقصوره الواسعة ، ويوازن بين ما هو فيه من نعيم ، وبين موسى – عليه السلام – .

يقول الله – تعالى – : " وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ● أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ

---

(١) آيات : ٢٨ – ٣١ / غافر .

(٢) آيات : ٤١ – ٤٥ / غافر .

هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ " (١) .

يقصد موسى – عليه السلام – لما كانت في لسانه من لكنة ، من اثر الجمرة التي أخذها وهو صغير في قصر فرعون ، ووضعها على لسانه ، فسببت له عقدة ، هي التي طلب من الله – تعالى – أن يحلها ، حين كلفه الله بالرسالة ، بقوله : " وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي " (٢)

ويقول – جلت قدرته وتعالت مشيئته – : " فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ " (٣) .

ويا ليت فرعون توقف عند المقارنة بينه وبين موسى – عليه السلام – في النعيم ، بل تجاوز كل الحدود ، وطغى وكفر . يقول الله – تعالى : " فَحَشَرَ فَنَادَى ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۝ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى " (٤).

---

(١) آية ٥١ ، ٥٢ / الزخرف .
(٢) آية ٢٧ ، ٢٨ / طه .
(٣) آية ٥٣ ، ٥٤ / الزخرف .
(٤) من آية ٢٣ – ٢٦ / النازعات .

ابتلاء آل فرعون بالآيات :

لما عتا فرعون وقومه عن أمر ربهم ، وانصـــرفوا عـــن دعـــوة موسى – عليه السلام – ، وبالغوا في إيذاء بني إسرائيل ، أن أمر الله – تعالى – موسى أن يعلنهم بما ينتظرهم من غضب الله وعقابه لهم .

وهذه النذر التي سبقت إغراق فرعون وقومه ، تشمل : الجـــدب ، ونقص الثمرات ، والطوفـــان ، والجـــراد ، والقمـــل ، والضـــفادع ، والدم [1] .

وكانوا عندما يُصابوا بواحدة منها ، يهرعون إلى موسى – عليه السلام – يطلبون منه أن يدعوا الله – تعالى – ليكشف ما حلّ بهم مـــن بـــلاء ، ويعدوه بالإيمان ، وعدم إيذاء أتباعه المؤمنين .

فكان يدعو ربه ويسأله – جل في علاه – أن يكشف عنهم ما نزل بهم ، فإذا كشف عنهم عادوا إلى طغيانهم ، وغدروا بعهدهم ، وتمردوا على الله .

وهذه الابتلاءات هي :

١- الجدب والقحط .

أصابهم الجدب والقحط ، وحلّ ببلادهم ، نتيجة نقص ماء النيل فر زراعة الأرض ، مما ترتب عليه نقص المال وهلاك الأنفس .

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٣٥ .

وقد عبر القرآن الكريم عند الجدب والقحط بالسنين . فقال - تعالى - : " وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ " (١) . أي سني الجوع ، بسبب قلة الزرع (٢) .

٢- نقص الثمرات :

قلة الثمار من الأشجار . يروي ابن كثير عن رجاء من حيوة قوله: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة (٣) .

٣- الطوفان :

وهو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار . أو هو إغراق النيل لأراضيهم ، فأضر بالزرع ، وأعاق سير الناس إلى أعمالهم ، والمشي من مناكب الأرض سعياً لتحصيل الرزق (٤) .

٤- الجراد :

وهو حيوان خطير يأتي على الأرض المنزرعة فيحولها إلى جرداء ، كأن لم تغن بالأمس .

---

(١) من آية ١٣٠ / الأعراف .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٢/٢٣٩ .
(٣) المصدر السابق ج٢/٢٣٩ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج١/١٤٢ .

وقد أرسله الله – تبارك وتعالى – على آل فرعون بشكل غير معهود ، فكان من الكثرة ما يحجب أشعة الشمس . وينزل على الزرع والثمر ، فلا يُبقي منه شيئاً [١] .

٥- القمل :

هو حشرة صغيرة انتشرت في أجسامهم وبين ملابسهم ، فأقضت مضاجعهم ، ولم تمكنهم من النوم والراحة ، وبذلك جعلت حياتهم جحيماً لا يطاق .

وقيل : القمل هو السوس الذي يفسد الحبوب التي يقومون بتخزينها للأكل [٢] . أو الحشرة التي تصيب الزرع فتأكله وتتلفه كحشرة البرسيم التي تُصيبه في بداية خروجه من الأرض فتفسده .

٦- الضفادع :

هي حيوانات تعيش في الماء ، أرسلهم الله – سبحانه وتعالى – على قوم فرعون بكثرة . فكانت تسقط في طعامهم ، وأوانيهم وتقفر على فراشهم وملابسهم . فكان الرجل إذا جلس يجلس في الضفادع ، وإذا فتح فاه بكلام تسرع واحده منهن فتدخل فيه .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤١٠ ، ابن كثير : البداية ج١/٢٩٨ .

(٢) الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٦٢ .

وبذلك نغصت عليهم كل حياتهم ، وجعلت الدنيا تسود في عيونهم [١] .

٧- **الدم :**

جعل الله – تبارك اسمه – ماءهم دماً ، فلا يستقون من بئر ولا نهر ، إلا انقلب إلى دم في الحال .

بينما كان بنو إسرائيل لم ينالهم شيئاً من ذلك [٢] ، فإذا قامت المرأة منهن بملء دلوها ماء من أي مياه ، خرج الدلو بماء عادية . أما المرأة أو الرجل من قوم فرعون لو ملأ من نفس المكان فإنه يتحول الماء إلى دم . وإذا صبت المرأة من بني إسرائيل ماء من جرتها في فم المرأة الفرعونية ، نزل الماء دما [٣] .

٨- **اليد :**

وهي من معجزات سيدنا موسى – عليه السلام – إذ كان يدخل يده في جيبه ، فتخرج بيضاء لها نور كنور الشمس ، ثم يدخلها مرة ثانية في فتحة جيبه ، فتعود إلى ما كانت عليه من قبل .

---

(١) القرطبي : في تفسيره ج٤/٢٨٠٠ ، ابن كثير : البداية ج١/٢٩٨ .

(٢) ابن كثير : في تفسيره ج٢/٢٤١ ، والبداية ج١/٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٣) نفس المصدرين السابقين .

وهي التي أدخلت الزعر والفزع إلى قلب فرعون حين رآها ، ورأى أنها جذبت كل أنوار القصر ، وتضاءلت كل هذه الأنوار أمامها . [١].

٩- العصا :

وهي معجزة من معجزات سيدنا موسى - عليه السلام - تنقلب إلى حية، حين يلقيها موسى من يده على الأرض ، فتدخل الهلع والرعب في قلوب الناظرين .

وحين رآها فرعون على هذه الصورة ، ووجدها ثعباناً يتحرك نحوه ، طار عقله ، وجن جنونه ، وفقد صوابه ، وتوسل إلى موسى أن يمنع خطرها عنه [٢] .

هذه الآيات التسع أرسلها الله - تعالى - إلى فرعون وقومه لعلهم يتعظون ويعتبرون ، ويؤمنون بالحق - جل في علاه - ، ويخلعوا ما يعبدون من دونه ، ويصدقوا برسالة موسى - عليه السلام - .

غير أنهم كانوا عندما يشاهدوا آية يظهروا الندم والأسف ، ويسرعون إلى موسى يطلبون منه أن يدعو ربه ليكشف عنهم العذاب .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤٠٦ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٥٣ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٣٥ ، الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤٠٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٢٨٣ .

فإذا رُفع عنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من العناد والإصرار على الطغيان [١] .

روي المؤرخون عن محمد بن إسحاق أنه قال : " إن آيات الله تتابعت على آل فرعون . فأرسل الله عليهم الطوفان ، وهو الماء ففاض على وجه الأرض ، ثم ركد ، لا يقدرون على أن يخرجوا ، ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً .

وعند ذلك قالوا يا موسى : " **ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** " [٢] .

فدعا موسى ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر . حتى كان يأكل مسامير الأبواب من الحديد . فقالوا مثل ما قالوا .

فأرسل الله عليهم القمل حتى غلب على البيوت والأطعمة . ومنعهم النوم .

فلما جهدهم . قالوا مثل ما كانوا يقولون . فدعا موسى ربه فكشف عنهم .

فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا . أرسل الله عليهم : الضفادع ،

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٣٥ .

(٢) آية ١٣٤ / الأعراف .

فملأت البيوت والأطعمة والآنية . فلم يكشف أحداً ثوباً ولا طعامـاً إلا وجد فيه الضفادع .

فلما جهدهم ذلك قالوا مثل ما قالوا . فدعا موسى ربـه . فكشـف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا .

فأرسل عليهم الدم ، حتى صارت مياه آل فرعون دماً ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمـاً عبيطـا[1] – أي طريا[2] .

وكانت واحدة من تلك الآيات والنذر تكفي لردعهم ، لـو فكـروا بعقولهم ، واهتدوا ببصائرهم . ولكن ماذا تغني النذر عن قوم سـخروا من الحق ظلماً وجحوداً ، وتمادوا في الغي والضلال ، فحـق علـيهم العذاب .

يقول الله – تعالى – : "وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّـنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ◌ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِـبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ وَلَكِـنَّ أَكْثَـرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ◌ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ◌ فَأَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّـفَادِعَ وَالـدَّمَ آيَـاتٍ مُّفَصَّـلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ " [3].

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤١٧ ، ٤١٨ ، ابن كثير : البداية ج١/٢٩٩ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ج٣/ ١٣٥٩ .

(٣) آية ١٣٠ – ١٣٣ / الأعراف .

ويقول – تبارك اسمه – : " وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَـاتٍ بَيِّنَـاتٍ فَسَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَـونُ إِنِّي لَأَظُنُّـكَ يَـا مُوسَـى مَسْحُوراً " [١] .

وذكر الجلالان هذه الآيات بأنها : اليد ، والعصـا ، والطوفـان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم أو الطمس – طمـس أمـوالهم حجارة ، ونقص الثمرات [٢] .

وكانت تأتي الآية أكبر من أختها لعلهم يرجعـون عـن كفـرهم وضلالهم ، فيهرعون مسرعين إلى موسى طالبين من أن يدعو ربـه ، ليكشف عنهم ما هم فيه ، ويتعهدوا له بالإيمان . ولما يكشف الله عنهم العذاب ، ينكثون عهدهم مع نبيهم .

يقول الله – سبحانه وتعالى – : " فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْـهَا يَضْحَكُونَ ۝ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَـا لَمُهْتَدُونَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ " [٣] .

---

(١) آية ١٠١ / الإسراء .

(٢) تفسير الجلالين ص٣٧٧ ، سيد قطب : في ظلال القرآن ج٤ / ٢٢٥٢ .

(٣) آية ٤٧ – ٥٠ / الزخرف .

خروج موسى وقومه من مصر :

رأى موسى – عليه السلام – أن فرعون تمادى في كفره وعناده ، وقد تبعه بنو إسرائيل ، ولم تنفع معهم الآيات والنذر ، وهي كثيرة – وقد ألمحنا إليها – . فدعا موسى على فرعون وملئه ، وأَمَّنَ عليه أخوه هارون [١] .

وكانت الدعوى هي قوله : " رَبَّنَا إِنَّكَ أَتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ . رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ۝ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ " [٢] .

فاستجاب الله دعاء نبيه موسى – عليه السلام – ومسخ أموالهم من حلى ذهب وفضة وغيره ودنانير ودراهم حجارة [٣] .

ثم أوحى الله – تعالى – إلي موسى – عليه السلام – أن يخرج من مصر ببني إسرائيل ليلاً ، ويتوجه بهم إلى أرض فلسطين .

فأعد موسى العدة للخروج ، وكان معه عشرين وستمائة ألف مقاتل غير الذرية [٤] . خرج بهم موسى من مصر ليلاً ، وسار في طريق

(١) الجلالان : تفسير الجلالين ص٢٧٩ .

(٢) آية ٨٨ ، ٨٩ / يونس .

(٣) الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ابن كثير : البداية ج٣٠٣/١ .

(٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج٣٦/١ ، الطبري : تاريخ الرسل ج٤١٤/١ ، ابن كثير : البداية ج٣٠٤/١ .

البحر الأحمر على خليج السويس ، وجدوا في السير، خشية أن يلحق بهم فرعون في جنوده ، فيحول بينهم وبين ما يريدون .

استيقظ فرعون فلم يجد بني إسرائيل وموسى ، وقد خلت منهم مصر . فأعد جيشاً كبيراً يزيد على ستمائة ألف ومليون جندي ، مجهزين بالعدد والعتاد ، حتى كان في خيوله مائة ألف فارس [١] .

وأسرع الجند في السير حتى يلحق بموسى ومن معه ، ولحقهم في اليوم الثاني بعد طلوع الشمس .

وتراءى الجمعان ، فشعر بنو إسرائيل بالخطر ، وتملكهم الرعب ، وظنوا أنهم هالكون . فالبحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم – فقالوا لموسى – عليه السلام – (**إنا لمدركون**) .

فطمأنهم نبي الله موسى ، ما سكن من روعهم ، وأزال خوفهم بقوله : " **كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** " [٢] .

وتقدم الصفوف ، ونظر إلى البحر ، وهو يتلاطم بأمواجه . فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه فانفلق بقدرة من يقول للشيء كن فيكون ، فكان كل فرق كالطور العظيم ، ووقف ماء البحر السيّال ، وغدا قائماً مثل الجبال ، ويبس الطريق وسط الماء [٣] .

---

(١) الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٧٠ ، ابن كثير : البداية ج٣٠٤/١ .

(٢) آية ٦٢ / الشعراء .

(٣) الجلالان : تفسير الجلالين ص٤٨٤ .

فرأى بنو إسرائيل هذه الآية الكبرى ، وعبروا مع نبـيهم موسى مسرعين مستبشرين بها ، فلما جاوزه وخرج آخر واحـد منهم إلى الشاطئ الآخر . كان فرعون وجنوده قد وصلوا إلى البحر .

فأراد موسى – عليه السلام – أن يضرب البحر مرة ثانية ليعود البحر كما كان ، حتى لا يعبر فرعون وجنده وراءهم . فأوحى الله – سبحانه وتعالى – إليه أن يترك البحر على حاله لا يغيره " وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ "[١] رهواً أي ساكناً [٢] .

فلما رأى فرعون وجنده بأعينهم هذا المنظر العجيب ، وبـدل أن يعتبر فرعون بهذه الآية ويرجع عن ضلاله ، بل تمادى في الضلال وقال لمن استخفهم فأطاعوه ، وعلى الباطل تابعوه : " انظـروا كيـف انحسر البحر لي ، لأدرك عبادي الآبقين من يدي ، الخـارجين على طاعتي وعبادتي ، لأردهم إلى مملكتي مقهورين مدحورين " [٣] .

وتقدم فرعون أمام جيشه وعبر البحر ، فتابعوه ليلحـق بموسى وبمن معه على الضفة الأخرى .

ولما كانوا جميعهم في البحر ، أمر الله – سبحانه – موسى – عليه السلام – أن يضرب البحر بعصاه . فضربه . فانطبق عليهم البحر ، وعادت أمواجه هائجة كما كان ، فلم ينج منهم إنسان [٤] .

(١) آية ٢٤ / الدخان .

(٢) الجلالان : تفسير الجلالين ص٦٥٨ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤١٥ ، ابن كثير : البداية ج١/٣٠٦ .

(٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٣٦ .

وأما فرعون فأخذت الأمواج ترفعه وتخفضه . فلما أيقن الهلاك رفع صوته وأشار بإصبعه قائلاً : " آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ " (١) .

فأجابه المولى – عز وجل – بقوله : " آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ " (٢) .

فلم ينفعه إيمان ولا توبة ، بل هلك مع الهالكين إلى نار الجحيم .

وهذه نهاية كل ظالم متكبر متجبر ، يبغي في الأرض فساداً ، ويظلم عباد الله .

روى ابن كثير بسنده عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال : (لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته قائلاً : " آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل " . فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله غضبه ، فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمه) (٣) أي يدس الطين في فيه ، خشية أن يقولها ثانية فتحل له مغفرة الله – تعالى – .

ولما أغرق فرعون وازهقت روحه ، أمر الله – تعالى – أمواج البحر فقذفته إلى الشاطئ جسداً هامداً لا حراك فيه ، ليرى من بقي من

---

(١) آية ٩٠/ يونس .

(٢) آية ٩١ / يونس .

(٣) البداية والنهاية ج١/٣٠٧ ، ٣٠٨ .

أنصاره وأتباعه مصيره الأليم ، وليكون عبرة لمن طغى وتجبر .

قال ربنا – جلت قدرته وتعالت عظمته – : "**فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً**" (١) .

وكان نجاة موسى وقومه وهلاك فرعون وقومه في يوم عاشوراء – العاشر من شهر الله المحرم – ، فصامه موسى وقومه شكراً لله على نجاتهم ، وهلاك عدوهم .

ثم صار صيام يوم عاشوراء سنة في بني إسرائيل . وهو يوم عيد عندهم . روى البخاري عن أبي موسى الأشعري أنه قال : كان يوم عاشوراء عيداً عند اليهود (٢) .

ولما ظهر الإسلام وهاجر الرسول – ﷺ – والمسلمون من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وجد – ﷺ – اليهود يصومون يوم عاشوراء . فسألهم عن سبب صيامه .

فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون .

فقال الرسول – ﷺ – :" نحن أحق بموسى منكم ، وأمر بصيامه ".

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال:(إن النبي – ﷺ – لما قدم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء

---

(١) آية ٩٢ / يونس .

(٢) البخاري : صحيح البخاري ج٣ / ٣٥٤ كتاب الصيام ، باب صيام يوم عاشوراء .

فقال : ما هذا ؟. قالوا : هذا يوم صالح . هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم . فصامه موسى .

قال : فأنا أحق بموسى منكم ، فصامه وأمر بصيامه) (١) .

بنو إسرائيل في سيناء :

بعد أن عبر موسى وبنو إسرائيل البحر الأبيض المتوسط ، ونزلوا أرض سيناء ، توالت عليهم النعم ، وهي معجزات تملأ القلوب إيماناً بالله – عز وجل – ويقيناً بقدرته وعظمته .

فحين اشتد عليهم الحر ، ولم يجدوا في صحراء سيناء أشجاراً يتظللون بظلها، وشكوا إلى موسى معاناتهم من قسوة الحر فدعا موسى – عليه السلام – ربه جل في علاه فساق إليهم الغمام يظللهم ، ويقيهم شدة الحر، حتى إذا ذهبت حدة الحرارة وهدأ الجو وذهب الغمام . ثم يعود إليهم في حاجتهم إليه (٢) .

ولما عطشوا وبلغ بهم العطش كل مبلغ ، ولم يجدوا ماء يشربون منه ، ويسقون أنعامهم . شكوا إلى نبي الله موسى – عليه السلام – متألمين لما أصابهم .

فطلب موسى من الله – سبحانه وتعالى – السقاء . فأمر أن يضرب

---

(١) البخاري : صحيح البخاري . ج٣ / ٣٥٤ ، كتاب الصيام ، باب صيام يوم عاشوراء .
(٢) ابن كثير : البداية ج١/٣١٧ .

بعصاه الحجر . فانفجرت منه اثنا عشر عينا ، لكل سبط منهم عين يشربون منها [١] .

قال الله – تعالى – : " وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ " [٢] .

وهذه العيون الاثنى عشر تقع في سيناء بالقرب من مدينة السويس. وتُسمى (عيون موسى) [٣] .

وحين نفد طعامهم ، وبلغ بهم الجوع مبلغاً كبيراً ، أرسل الله لهم المن والسلوى ، رزقاً حسناً ، وطعاماً شهياً ، يحصلون عليه دون جهد أو مشقة .

والمن هو مادة تلصق بخشب الأشجار ، لها طعم حلو المذاق . يشبه العسل الأبيض ، وهي لينة ، سهلة الهضم .

والسلوى هو طائر سماني كبير [٤] . فيأخذ كل إنسان حاجته منه بيسر وسهولة .

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٣٦ ، الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤٢٦، ٤٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ج١/١٥٠ .

(٢) آية ٦٠ / البقرة .

(٣) د/ محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء ص٢٢١ .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ج١/١٤٩ ، ١٥٠ ، ابن كثير : البداية ج١/٩٥ -٩٧ .

يقول الحق – تبارك اسـمه – : " وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۝ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَـا إِلَى مُوسَـى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنـاً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغَمَـامَ وَأَنْزَلْنَـا عَلَـيْهِمُ الْمَـنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَـهُمْ يَظْلِمُونَ " (١).

بنو إسرائيل يطلبون طعاماً آخر :

ورغم هذا الإكرام ، وكثرة الإنعام ، وتلك الحفاوة ببني إسرائيل ، إلا أنه تحركت في نفوسهم التواءاتها المريضة . فقالوا لموسى – عليه السلام – إنهم سئموا هذا الطعام ، واشتاقت نفوسهم إلى القثـاء ، والبصـل ، والثوم ، والفول ، والعدس ، وهي أطعمة مصرية . وطلبـوا منـه أن يدعوا ربه – سبحانه – ، ليخرج لهم هذه الأطعمة من الأرض .

فذكرهم موسى بظلمهم لأنفسهم ، وحنينهم لأيام هوانهم في مصر ، وكيف يبطرون على خير الطعام وأكرمه ، ويريدون بدله طعاماً أدنـى منه وأسوأ . وأبى أن يجيبهم إلى هذه المسألة (٢) .

يقول الله – تعالى – : " وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَـإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ " (٣) .

---

(١) آية ١٥٩، ١٦٠/ الأعراف .

(٢) ابن كثير : البداية ج١/٣١٨ .

(٣) من آية ٦١ / البقرة .

موسى يسير ببني إسرائيل تجاه بيت المقدس :

سار موسى – عليه السلام – بقومه في اتجاه بيت المقـدس بفلسـطين ، وحين اقتربوا منها وجدوا فيها قوماً جبارين ، وهم مـن الكنعـانيين ، ومن بقايا الحيثانيين .

وقد دأب هؤلاء على الظلم والاسـتبداد ، وطغـوا فـي الأرض ، وأكثروا فيها الفساد .

فأصدر موسى أمره إلى قومه بالدخول علـى هـؤلاء الطغـاة ، ومقاتلتهم ، وإجلائهم عن بيت المقدس ، وتخليصه منهم .

فلم يلب قومه نداءه ، وينفذوا أمره بالدخول والهجوم عليهم حتـى يخلصوا الناس من شرهم وبلائهم . بل تقاعسوا وتقاعدوا عن الجهاد ، وجبنوا لقاء الأعداء .

ولعل السبب في ذلك أنهم ألفوا حياة الذل والهوان ، التـي عاشـوا فيها طويلاً في مصر تحت حكم فرعون ، فأفقدتهم نخـوة الشـهامة ، وقتلت فيهم روح القتال ودرأ الظلم . ومالوا إلى الراحة والخمول .

ولهذا اعتذروا عن الجهاد بضعفهم وقوة أعدائهم . ثم قالوا لموسى – عليه السلام – : "فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ " (١) .

---

(١) ٢٤ / المائدة .

وكان من بين بني إسرائيل البالغ عددهم (٦٢٠) ألفاً رجلان فقط هما الذين انضما إلى موسى وهارون واستعد للقتال . وهما : يوشع بن نون – فتى موسى – ، وكلاب بن يوفنه [١] وحاولا أن يقنعا قومهما بدخول الأرض وقتال الأعداء بقولهما : (إن مجرد دخولكم من الباب سيجعل النصر لكم) . ولكنهم كانوا يرتعشوا من داخلهم خوفاً ورعباً لما سمعوه عن قوة عدوهم .

ويبين المؤرخون سبب جبن هؤلاء وخوفهم من مقاتلة الأعداء : أن موسى – عليه السلام – كان قبل أن يطلب من بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة ، أرسل من قبله اثني عشر رجلا يأتونه بالأخبار .

فلما ذهبوا ودخلوها رأوا من ضخامة أجسام أولئك القوم ما هالهم وأفزعهم . فلما عادوا أخبروا بني إسرائيل بما رأوا فضعفت نفوسهم ، وخارت قواهم ، ولم يعد لديهم طاقة للقتال [٢] .

وكان من اثر ذلك أن حَرَّم الله عليهم دخول الأرض المقدسة ، وكتب عليهم التيه في البرية أربعين سنة ، يسيرون ويحلون ، ويرتحلون ويذهبون ، ثم يرجعون إلى مكانهم الذي خرجوا منه [٣] .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١ / ٤٣٠ ، ابن كثير : البداية ج١/٣١٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١/١٤٩ ، ابن كثير : مصدر سابق ج١/٣١٢ ، ٣١٣ .

(٣) المصدر السابق الثاني ج١/٣١٢ .

وكان ذلك عقوبة من الله – تعالى – لهم ، حتى انقرض هذا الجيل الذليل ، وولد جيل آخر منهم ، تربى في البادية وألف العزة والشهامة والكرامة ، ليحمل راية الجهاد ، وينشر الدين .

قال الله – تبارك اسمه – : " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ العَالَمِينَ ۞ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۞ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۞ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ الفَاسِقِينَ ۞ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ " (١) .

---

(١) آيات : ٢٠ – ٢٦ / المائدة .

نزول التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ

أوحى الله – سبحانه وتعالى – لنبيه موسى – عليه السلام – أن يصعد على جبل الطور بسيناء المصرية ، وأن يمكث عليه وحدة ثلاثين ليلة ، لتزداد نفسه صفاء ، ويكمل استعداده لتلقي الرسالة ، فصامها موسى – عليه السلام – ، ثم شعر بخلوف فمه ، فكره أن يكلم الله – تعالى – برائحة فم الصائم . فأستاك بعود من شجرة ، ليطيب ريح فمه . فأمره الله أن يصوم عشرا أخرى [١] .

لأن خلوف – رائحة – فم الصائم عند الله – تعالى – أطيب وأفضل من ريح المسك الفوّاح .

وذكر المؤرخون أن الثلاثين ليلة هي شهر ذي القعدة ، والعشر هي الأولى من ذي الحجة ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة . ثم كلم الله موسى في يوم النحر [٢].

وكان موسى قبل أن يذهب لميقات ربه ، جعل أخاه هارون خليفة في بني إسرائيل ، وأوصاه بالإصلاح ، وأن لا يتبع سبيل المفسدين .

وهذه الوصية لم يكن هارون يجهلها ، لأنه نبي مع موسى إلى بني إسرائيل ، ومأمور من قبل الله بالإصلاح ، ولكنها من باب التذكير والتثبيت .

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٣٧ ، ابن الأثير : الكامل ج١/١٤٥ .

(٢) القرطبي : في تفسيره ج٤ / ٢٨٠٤ ، ابن كثير : البداية ج١/٣١٩ .

وحين جاء الوقت الذي حدده الله – تعالى – لنبيه موسى – عليه السلام – ، كلمه الله – تعالى – من وراء حجاب . وأنزل عليه التوراة في ألـواح مخصوصة ، عددها عشرة ألواح ، كتبت بيد القدرة الإلهيـة ، وفيهـا هدي ونور وتفصيل كل شيء .

وتشمل الألواح عشرة وصايا هي :

١-الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له .

٢-النهي عن الحلف بالله كذباً .

٣-الأمر بالمحافظة على السبت ، أي تفرغ يوم في الأسبوع للعبادة .

٤-الأمر بإكرام الأب والأم .

٥-معرفة أن الله وحده هو الذي يُعطي ويمنع .

٦-لا تقتل .

٧-لا تزن .

٨-لا تسرق .

٩-لا تشهد شهادة زور .

١٠-لا تمدنّ عينيك إلى بيت صاحبك أو امرأته أو عبده أو ثـوره أو حماره [1] .

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٣٧ ، ابن كثير : البداية ج١/٣١٦ ، أحمد بهجت أنبياء الله ص٢٤٣ .

وذكر بعض العلماء أن هذه الوصايا قد تضمنتها آيتان من كتـاب الله – عز وجل – وهما :

" قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " (١) .

موسى يطلب رؤية ربه :

بعد أن كلم الله موسى مباشرة دون الملك الموكل بالوحي (جبريل – عليه السلام – وسمع موسى كلام الله – عز وجل – ، اشتاق إلـى رؤيتـه الكريمة . فسأل الله الرؤيا بقوله : " **رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** " (٢) .

فأجابه الله – تعالى – بقوله : " **لن تراني** " . فليس هناك من يقـوى على رؤيتي ، لعظم جلالي .

---

(١) آية ١٥١ ، ١٥٢ / الأنعام .

(٢) من آية ١٤٣ / الأعراف .

وعلق الله – سبحانه – الرؤيا على استقرار الجبل . فقــال " وَلَكِن انْظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي " (١) .

فقد اختار الله – تعالى – لموسى من مخلوقاته الشيء القوى الثابت الراسخ الشامخ ، وهو الجبل . أيثبت عندما يتجلى الله – تعالى – عليه بنوره ، إن الجبل حين تجلى له الله ساخ في الأرض من جلال الأنوار الإلهية .

ولما رأى موسى أن الجبل إندك وانهار في الأرض ، خر مغشــياً عليه . فلما أفاق قال لربه : سبحانك تقدست وتنزهت ، إن أحــدا مــن الكائنات لا يقوى على أن يصمد أمام نور جلالك وبهائك وســلطانك . تبت إليك وأنا أول المؤمنين بذلك .

فقبل الله – تعالى – توبته ، وأخبره بأنه اصطفاه على ناس زمانه، وجعله نبياً ورسولاً لهم ، وأن يشكر الله على هذه النعمة الكبرى .

ومن نعم الله على موسى وعلى بنــي إســرائيل أن نــزل عليــه الألواح. وكتب فيها من المواعظ وتفصيل الأحكام ما يهدي ويرشد إلى صراط العزيز الحميد .

وأمر الله – تعالى – موسى – عليه السلام – أن يأخذ ما في الألواح بقوة

---

(١) من آية ١٤٣ / الأعراف .

وعزيمة ، فإن أوامر الله ونواهيه ، ومواعظه ، شرعت لتنفيذ وتطبيق ويُعمل بها .

- كما أمره الله – تعالى – أن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسن ما في الألواح من مواعظ وأحكام [١] ، ليكون جزاء وفاقاً كما كرمهم الله ، حيث أتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : " وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۞ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ۞ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ۞ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ " [٢] .

---

(١) الشيخ عبد الحميد كشك : في رحاب التفسير ج٩/١٣٨٩ -١٣٩١ نشر المكتب المصري الحديث القاهرة سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

(٢) آيات : ١٤٣ – ١٤٥ / الأعراف .

بنو إسرائيل والعجل

حين ذهب موسى لميقات ربه ، وقضى أربعين ليلة بعيدا عن قومه ، هؤلاء استيغبوه ، ووسوس لهم الشيطان أعمالهم فضلهم عن السبيل ، فنسوا تعاليم موسى - عليه السلام - ، ولم يلتفتوا إلى نصح هارون - عليه السلام - لهم بالتمسك بشرائع الله وعبادته وحده . وعبدوا العجل .

وكانت عبادة العجل ضمن العبادات المنتشرة في مصر عند قدماء المصريين ، وهي نوع من عبادة البقر . ورأى بنو إسرائيل هذه العبادة في مصر سنوات طويلة ، قبل أن يفروا من فرعون ، وعاشوا في جوها ، وألفوها .

ومرت عليهم معجزات الله - تعالى - فصادفت نفوساً تالفة الأمل. إن كلمات الله لم تعدهم إلى الحق ، وإن المعجزات الحسية لم تقنعهم بصدق الكلمات ، فظلوا داخل أعماقهم من عبدة الأوثان .

ولما عبروا البحر مع موسى إلى أرض سيناء ، شاهدوا قوماً يعبدون العجل ، فتاقت نفوسهم إلى تلك العبادة الفاسدة " قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ " (١) .

---

(١) من آية ١٣٨ / الأعراف .

فنهرهم موسى بقوله : " إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ " [١] ، فتركوا ذلك مع أن في نفوسهم حنين إلى عبادة الأصنام [٢] .

ولما ذهب موسى لميقات ربه ، انتهز ألسامري [٣] فرصة غياب موسى عن قومه ، وميل بني إسرائيل إلى عبادة الأصنام ، فأخذ حليا ثم احتفر حفرة وقذف الحلي فيها ، وأوقد عليها النار ، وصنع منها عجلا جسداً ، له خوار ، أي فتحة في أنفه ، وأخرى في دبره ، يدخل الهواء من إحداها ويخرج من الثانية ، فيحدث صوتاً له خوار مثل خوار البقرة .

وقيل : هو عجل صحيح ، له جسد وروح ، يتحرك ويمشي ، وله خوار كسائر البقر ، وأنه أخفى الذهب الذي أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون استعارة للتحلي والتزين به في العيد . ولما هلك فرعون وقومه صار ذلك الحلي مملوكاً لهم .

فقال هارون : إن هذه الأموال غنمية لا تحل لكم . اجمعوها . فجمعوها ، وحفر لها حفرة ووضعها فيها لحين عودة موسى [٤] .

---

(١) من آية ١٣٨ / الأعراف .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١/١٤٤ .

(٣) ألسامري : هو رجل يسمى موسى ألسامري من قرية بَاجَرْمى من أعمال . وهو من بني إسرائيل . وكان نَحَّاتاً أو صائغاً ، أظهر إسلامه ، وهو في داخله يعشق عبادة البقر – أنظر الطبري : تاريخ الرسل ج١/ ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١/١٤٥ ، ابن كثير : قصص الأنبياء ص٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١/١٤٥ .

ولما وضع الحلي في الحفرة أشعل ألسامري عليها النار ، وقال سأصنع لكم إلهاً تعبدونه . وسرق الذهب وأتي بعجل اشتراه دون أن يعرف أحد .

وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي وتركه هنا وذهب يطلبه .

فلقي ذلك الكلام ترحيباً من بني إسرائيل فعبدوا العجل ، وأحبوه حباً شديداً .

ويقال : إنه أخذ ألسامري قبضة من أثر فرس جبريل - عليه السلام - يوم هلاك فرعون وقومه في البحر . واحتفظ بها .

ولما أمر هارون بجمع الحلي والجواهر لأنها لا تحل لهم ، وأمر بوضعها في حفرة ، حتى يعود موسى ، ليرى رأيه فيها . فجمع الناس ما لديهم . وجاء ألسامري بملء كفيه من التراب الذي أخذه من أثر حافر الفرس فوضعه في الحفرة ، وهارون يحسبه حُلياً . وقال ألسامري : كن عجلاً جسداً له خوار . فكان .

ويقول المؤرخون : إن الفرس يُسمى فرس الحياة ، وعندما يضع قدمه على شيء إلا دبت فيه الحياة [1] .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/ ٤٢٥ ، الثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٨٦ ، ابن الأثير : الكامل ج١/١٤٥ ، ابن كثير قصص الأنبياء ص٤٠٧ .

وكان ما فعله ألسامري فتنة كبيرة في بني إسرائيل انقسموا على أثرها فريقين : فريق الأغلبية عبدوا العجل ومالت نفوسهم إلى عبادته .

وفريق أقلية : ثبت على إيمانه وانضم إلى هارون .

وحاول هارون أن يثني فريق الضلال عن ضلالتهم ، وأن يفهمهم أن ربهم ورب موسى هو الله وحده لا شريك له . غير أنه لم يجد آذاناً صاغية ، وقلوبا واعية .

وخشي هارون – عليه السلام – أن يحارب الضالين بمن معه من المؤمنين فيحدث في بني إسرائيل تحزباً وتقاسماً .

وفي النهاية استقر به الرأي أن يتركهم حتى يعود موسى – عليه السلام – وقال هارون للفئة الضالة : " يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي " (١) .

فردوا عليه قائلين: " لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى "(٢).

وقد أعلم الله – سبحانه وتعالى – موسى – عليه السلام – بضلال قومه وعبادتهم للعجل . بقوله : " فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ " (٣) .

---

(١) آية ٩٠ / طه .

(٢) آية ٩١ / طه .

(٣) آية ٨٥ / طه .

فرجع موسى – عليه السلام – من الميقات بعد أربعين يوماً من مفارقة قومه ، وهو غضبان آسفاً على ما وصل إليه حال قومه .

ولما وصل موسى قومه وجدهم عاكفين على عبادة العجل ، وهم يصيحون ويرقصون حول العجل .

وحين أبصروه توقفوا وساد الصمت في المكان ، ووضع موسى الألواح التي أنزلها الله عليه بشدة لما تملكه من الأسى والألم ، ثم التفت إلى أخيه هارون فمد يديه وأمسكه من شعر رأسه ولحيته وجذبه نحوه [١] .

وقال له : " يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي " [٢] .

فأوضح له هارون الحقيقة ، وأعلمه أنه بذل غاية الجهد لإرشادهم ومنعهم من الانقياد وراء هذا الشيطان الأثيم ، ولكنهم عصوه واستضعفوه وكادوا يقتلونه [٣].

وبين له أنه ترك قتال الضالين بمن معه من المؤمنين ، حتى لا يحدث بينهم أحزاباً . فيلوم عليه هذا التفريق ، ويقول له : لماذا لم تنتظر حتى أعود .

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٣٨ .

(٢) آية ٩٢ ، ٩٣ /طه .

(٣) القرطبي : في تفسيره ج٦ / ٤٤١٢ ، ٤٤١٣ .

وهذا المعنى تصوره الآية الكريمة : " **إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي** " (١) .

وطلب هارون من أخيه موسى أن يترك رأسه ولحيته ، حتى لا يشمت به الأعداء ، ويستخفوا به ، فهو لم يرض عن ظلمهم .

" **قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** " (٢) .

بعد هذا الحوار بين موسى وهارون – عليهما السلام – أدرك موسى أن أخاه لم يكن مقصراً في نصح قومه ، وأنه بذل كل ما في وسعه لردهم إلى الإسلام ، وترك عبادة العجل ، ولكنهم أصروا به وتمسكوا (٣) .

فالتفت موسى إلى قومه يوبخهم ويعنفهم على سلوكهم المعوج ، وضلالهم بعد أن رأوا الآيات الكبرى ، وبعد أن مَنَّ الله – تعالى – عليهم بالنصر على فرعون وقومه ، وأظهر لهم الحق واضحاً كالشمس تتلألأ ضياء ، ونوراً في وضح النهار . فقال لهم : " **يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي** " (٤) .

---

(١) من الآية ٩٤ / طه .

(٢) من آية ١٥٠ / الأعراف .

(٣) ابن كثير : قصص الأنبياء ص٤٠٨ .

(٤) طه / ٨٦ .

ووضح موسى – عليه السلام – أن الذين عبدوا العجل من دون الله – تعالى – ، سينالهم غضب من ربهم ، ولهم الذلة في الحياة الدنيا جزاء افترائهم . بقوله : " إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ " (١) .

ثم تحدث موسى مع ألسامري ، الرأس المدبرة للفتنة ووجه له سؤالاً ، وهو ما زال غاضباً لم يهدأ .

ما الذي حملك على ما صنعت ؟.

فقال ألسامري : رأيت جبريل يركب فرسه ، فلا تضع قدمها على شيء إلا سرت فيه الحياة . فأخذت حفنة من التراب ، الذي سار عليه ، وألقيتها على الذهب ، فصار عجلاً جسداً له خوار .

وهذا ما سولت به نفسي (٢) .

يقول الله – سبحانه وتعالى – : " قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ۝ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي " (٣) .

فتوعده موسى بالأمراض الخطيرة في الدنيا ، حتى إنه لا يطيق أن يمسه إنسان ، فيقول لكل من يلقاه : لا مساس . وإن الناس ينفرون

(١) آية ١٥٢ / الأعراف .

(٢) ابن كثير : قصص الأنبياء ص٤٠٩ .

(٣) آية ٩٥ ، ٩٦ / طه .

منه لمرضه الشديد المنفر . وأما في الآخرة فله سوء العذاب .

لقد عاش ألسامري منبوذاً محتقراً ، لا يلمس شيئاً ، ولا يمس أحداً، ولا يقترب منه مخلوق . وهذه عقوبة في الدنيا . وأما في الآخرة فهي أشد وأنكى [١].

" قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ " [٢] .

والتفت موسى – عليه السلام – إلى العجل – معبود بني إسرائيل – فقام إليه وألقاه في النار أمام عيون الجميع ، ليبين لهم أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ، ثم ذر رماده في مياه البحر الأبيض المتوسط [٣] .

فقال موسى مخاطباً ألسامري : " وَأنظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً " [٤] .

وبعد أن أحرق موسى العجل ونسف رماده في ماء البحر إظهاراً لعجزه وذلته أمام الذين قدسوه وعبدوه [٥] . رفع موسى صوته عالياً

---

(١) أحمد بهجت : أنبياء الله ص٢٥٣ .

(٢) من آية ٩٧ / طه .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤٢٤ .

(٤) من آية ٩٧ / طه .

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١/٤٠ .

مخاطباً بني إسرائيل : " إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا " (١) .

ثم حكم على الذين عبدوا العجل بأنهم ظلموا أنفسهم ، وأنه لا سبيل إلى توبتهم إلا أن يقتلوا أنفسهم .

قال الله – تعالى – : " وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ " (٢) .

روي ابن كثير عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال (أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم ، وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعبدوه فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة فجعل يقتل بعضهم بعضا ، فانجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة ، ومن بقى كانت له توبة)(٣) .

---

(١) آية ٩٨ / طه .

(٢) آية ٥٤ / البقرة .

(٣) تفسير ابن كثير ج١/٩٢ وانظر كذلك الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤٢٨ ، والثعالبي : قصص الأنبياء ص٢٩٠ ، ٢٩١ .

وبعد ذلك سكت عن موسى الغضب فأخذ الألواح ، واستأنف دعوته إلى الله – عز وجل – . قال سبحانه وتعالى – : " وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ " (١) .

وقرأ موسى الألواح على قومه ، وأمرهم أن يأخذوا ما فيها بقوة وعزم . غير أنهم قالوا : اقرأها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها .

فرد عليهم موسى : بل اقبلوها بما فيها .

فرجعوا مراراً .

فأمر الله – تعالى – الملائكة فرفعت جبل الطور على رؤوسهم ، حتى صار كأنه غمامة فوقهم . فقال لهم موسى أنظروا ، فنظروا فوجدوا الجبل فوق رؤوسهم فأصيبوا بالفزع .

فقال لهم موسى : إن لم تقبلوها بما فيها سقط ذلك الجبل عليكم . فقبلوها . وأمروا بالسجود فوضعوا خدودهم على الأرض وراحوا ينظرون إلى الجبل فوقهم هلعاً ورعباً (٢) .

---

(١) آية ١٥٤ / الأعراف .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١/١٤٧ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٢/٢٦٠ ، ٢٦١ ، وقصص الأنبياء ص٤١٩ .

يقول الحق – تبارك اسمه – : " وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (١) .

(١) آية ١٧١ / الأعراف .

قوم موسى يطلبون رؤية الله – تعالى –

كان قوم موسى – عليه السلام – قد ندموا على ما فرط منهم من عبادة العجل ، وطلبوا من موسى أن يتوبوا عما اقترفوه .

فاختار موسى – عليه السلام – سبعين رجلاً من علمائهم [١] . وقال لهم: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه التوبة على من تركتم من قومكم . صوموا وتطهروا ، وطهروا ثيابكم .

خرج موسى بهؤلاء السبعين المختارين لميقات حدده الله – تعالى – له . ودنا موسى من جبل الطور بسيناء فإذا عمود الغمام يتغشى الجبل كله .

دخل موسى في الغمام ، وقال للقوم : ادنوا . فدنوا .

وكلم الله – تعالى – موسى . وكان موسى إذا كلم الله ، وقع على جبهته نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه أو يطيق احتماله . وضرب الحجاب على موسى وهو يكلم ربه ، وسمع الحاضرون الكلام .

لم يكتف هؤلاء بما استمعوا إليه من تلك المعجزة ، بل طلبوا رؤية الله – سبحانه – .

---

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء ص٤١١ .

فأرشدهم موسى إلى سفه هذا الطلب ، وحذرهم من عاقبته ، ولكنهم تمادوا فيه . فأخذتهم رجفة مدمرة ، صعقت أرواحهم على أثرها .

قال الله – تعالى – : " **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون** " (١) .

وحين أصيب القوم بالصاعقة التي أزهقت أرواحهم ، قام موسى – عليه السلام – يدعو ربه ويناشده أن يرد إليهم أرواحهم .

فاستجاب الله – تعالى – له ، ورد أرواحهم إلى أجسادهم برهاناً على عظمته الباهرة ، وليعرفوا مدى فضل الله عليهم فيقومون بشكره على نعمائه التي لا تحصى ولا تعد .

يقول الله – تعالى – : " **وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ ● وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** " (٢) .

---

(١) آية ٥٥ ، ٥٦ / البقرة .

(٢) آية ١٥٥ ، ١٥٦ / الأعراف .

ألواح التوراة تبشر برسالة سيدنا محمد ـ ﷺ ـ

قد بشرت التوراة برسالة سيدنا محمد – ﷺ – وبفضل الأمة الإسلامية على سائر الأمم . ولما قرأ موسى – عليه السلام – هذا الفضل وذاك التكريم لأمة النبي محمد – ﷺ – تمنى أن يكون منها .

يروي ابن كثير بسنده عن قتادة أنه قال : إن موسى قال لربه : يا رب إني أجد في الألواح أمة هي خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر .

رب أجعلها أمتي .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها . وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه .

وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً ما لم يعط أحداً من الأمم . رب اجعلهم أمتي .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فضول الضلالة . فاجعلهم أمتي .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ، ويؤجرون عليها ، وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق أحدهم بصـــدقة فقبلت منه ، بعث الله عليها ناراً فأكلتها ، وإن ردت عليه تركت تأكلها السباع والطير . وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم .

رب : فاجعلهم أمتي .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب فإني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم علمها كتبت له عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

رب اجعلهم أمتي .

قال : تلك أمة أحمد .

قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة هم المشـــفعون ، المشـــفوع لهم. رب فأجعلهم أمتي .

قال : تلك أمة أحمد [1] .

---

(١) قصص الأنبياء ص٤١٣ ، ٤١٤ ، والبداية والنهاية ج٣٢٧/١ ، ٣٢٨ .

بنو إسرائيل والبقرة

كان بنو إسرائيل قوم موسى - عليه السلام - من أكثر الناس جدالاً ، وتعنتاً ، وتشدداً . وقد آذوا نبيهم كثيراً فصبر ابتغاء مرضاة الله - عز وجل - .

وكان الرسول - ﷺ - حين كان قومه يؤذونه في الله فيقول : (يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر) [١] .

ومن أنواع الإيذاءات التي آذاها بنو إسرائيل لموسى - عليه السلام - أنهم اتهموه بمرض جلدي كالبرص أو أُدْرَة . وهي كبر في الخصيتين ، ولهذا زعموا أنه يستتر من الناس عند الاستحمام ، حتى لا يروا عيوبه.

فأراد الله - سبحانه - أن يبرئه فذهب يوماً إلى البحر ليستحم ، ووضع ثوبه على حجر . فانطلق الحجر بثوبه ، وهو يجري وراءه ويقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر . وظل الحجر يجري بالثوب حتى وصل إلى جمع كبير من الناس ، فرأوا موسى وهو عريان ، ولم يروا في جسده أي عيب مما اتهموه به .

وبهذا فقد برأه الله - تعالى - مما قالوا عنه [٢] .

---

(١) البخاري : في صحيحه ج٥ / ٣٧٥ كتاب بدء الخلق .

(٢) الجلالان : تفسير الجلالين ص٥٦١ .

يروي البخاريَ بسنده عن أبي هريرة - ﷺ - قال رسـول الله - ﷺ - : (إن موسى كان رجلا حييا ، لا يرى من جلده شيء ، استحياء منه . فآذاه من آذاه من بني إسرائيل . فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده . إما برص ، وإما أُدْرَةُ - كبر الخصيتين - وإما آفة . وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى . فخلا يوما وحـده ، فوضـع ثيابه على الحجر ، ثم اغتسل . فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقـول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى انتهى إلى ملأ مـن بنـي إسـرائيل ، فرأوه عُرْيَاناً أحسن ما خلق الله ، وابرأه الله مما يقولون . وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً . فذلك قوله " **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها**" [1].

قصة البقرة :

تتلخص في أن هناك رجل من بني إسرائيل ، كان ثرياً ، وليس له وارث سوى أبناء أخ له .

وكان هؤلاء الأبناء يتمنون موته ، ليحصلوا علـى الإرث منـه . ولعل الذي دفعهم إلى ذلك أنه كان بخيلاً معهم ، حرمهم من نعمـة الله عليه . وجد فقرهم وحاجتهم ، ومع ذلك شحت نفسه عن مساعدتهـم ،

(١) صحيح البخاري ج٥ / ٣٧٤ كتاب بدء الخلق . والآية رقم ٦٩ من سورة الأحزاب .

ولو فعل ذلك لأحبوه ، وتمنوا له السلامة وطول العمر . وكانوا عونـا له على قضاء مصالحه . لأنها النفس الأمارة بالسوء .

قام أحد أبناء أخيه بقتله ، ثم ألقى جثته في طريـق عـام . وفـي الصباح وجد الناس الرجل مقتولا ، وسارع أهله بالبحث عن الجاني .

ولما لم يصلوا إلى معرفته ذهبوا إلى موسى – عليه السلام – ليسأل ربـه عن معرفة القاتل .

فدعا موسى ربه – تعالى – . فـأمره أن يـأمرهم بـذبح بقـرة ، ويضربوا القتيل بجزء منها كاللسان أو الذيل أو نحو ذلك . عندها تعود إليه الحياة ، فيقوم ويخبر عن قاتله [(١)] .

فأخبرهم موسى بأمر الله – سبحانه – فلم يصدقوه ، بل قالوا لـه : يا موسى نسألك عن معرفة القاتل فتسخر منا وتقول : اذبحوا بقرة !.

فأجابهم – عليه السلام – بأنه لم يهزأ بهم ، ولم يقـل لهـم إلا صـدقا . واستعاذ بالله أن يكون من الجاهلين [(٢)] .

فطلبوا من موسى – عليه السلام – أن يسأل ربه عن البقرة ، أهي بقرة عادية ، أم أنها تنفرد بمزية خاصة .

(١) ابن الأثير : الكامل ج١ /١٤٨ .

(٢) الجلالان : تفسير الجلالين ص١٤ .

فدعا موسى ربه ، فيزاد التشدد عليهم بأنها بقرة وسط ، لا كبيرة ولا صغيرة .

فقالوا يا موسى : ادعُ لنا ربك يبين لنا ما لون البقرة .

فيسأل موسى ربه ، ويحوثهم عن لون البقرة المطلوبة ، بأنها صفراء ، فاقع لونها تسر الناظرين . وهكذا حددت باللون الأصفر المشرب بحمرة .

فرجعوا إلى موسى – عليه السلام – مرواغين متعنتين أن يسأل ربه : إن البقرة تشابه علينا .

فأخبرهم موسى بأنها ليست معدة لحرث الأرض ، ولا تسقي الزرع ، سليمة من العيون ، صفراء خالصة الصفرة ، ليس فيها لون غيره .

وبعد ذلك بحثوا عن بقرة بتلك الأوصاف المذكورة ، ولو أنهم لم يراعوا ويتشددوا ، لكان أي بقرة ذبحوها حين أخبرهم نبيهم موسى – عليه السلام – لكفت . لكنهم تشددوا فشدد الله عليهم كما يقول عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – [١] .

(١) القرطبي : في تفسيره ج١ / ٤٨٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٣٣٢ ، وقصص الأنبياء ص٤٢١ .

ولم يجدوا تلك البقرة إلا عند يتيم ، كان والده من الصالحين ، وترك له تلك البقرة ، فأخذوا يعرضون عليه من السعر حتى وافق بوزنها ذهباً . ثم أخذوها ، وذبحوها ، وضربوا القتيل بجزء منها ولعل يكون الذيل أو اللسان ، فأحيا الله – تعالى – القتيل . فسأله موسى عن قاتله . فأنبأ عنه ، ثم مات في الحال [١] .

يقول ربنا – عز وجل – : " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَن أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ ● قَالُوا أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ● قَالُوا أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ● قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَةَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ● قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ● وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجُ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ● فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " [٢] .

---

(١) القرطبي : في تفسيره ج١/٤٨٢، ابن كثير : البداية ج١/٣٣١ ، وقصص الأنبياء ص٤٢٠-٤٢٢ .

(٢) آيات : ٦٧ – ٧٣ / البقرة .

موسى وقارون

كان قارون من قوم موسى ، وابن عمه ، فهو قارون بن يصـــهب بن قاهث . ويصهب هذا أخوا عمران والد موسى - عليه السلام - (١) .

وكان قارون صاحب صوت حسن حين يقرأ التوراة (٢) . غير أنه أبطن الكفر وأظهر الإيمان (٣) .

وقد أنعم الله على قارون بأن رزقه أموالاً كثيرة ، وكنوزاً عديدة ، حتى إن مفاتيح كنوزه كانت من كثرتها ، وهي المصنوعة من الجلود ، تحمل على ستين بغلا . كل مفتاح منها لباب كنز (٤) .

وبني داراً عظيمة وصفحها بالـــذهب ، وجعـــل أبوابهـــا الـــذهب الخالص (٥) .

وهذه الأموال الكثيرة أضلت قارون ، وجعلته يتعالى ويتكبر على النس ، ويفتخر بما عنده من الكنوز . فأطال ثوبه شبرا ، ترفعاً علـــى قومه ، وأحاط نفسه بهالة من الفخر والخيلاء .

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص٤٤ ، الطبري : تاريخ الرسل ج١ / ٤٤٤ ، ابن كثير : قصص الأنبياء ص٤٤٩ .

(٢) ابن كثير : البداية ج٣٤٨/١ .

(٣) ابن كثير : قصص الأنبياء ص٤٥١ .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل ج٤٤٥/١ .

(٥) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج٣٦/١ .

قدم له النصيحة عقلاء قومه المؤمنون من بني إسرائيل بأن لا يفرح ، ولا يبطر النعمة ، ولا يتكبر على غيره ، ويعمل للآخرة كما يعمل للدنيا ، ويحسن إلى غيره من المحتاجين والفقراء ، ويخرج زكاة أمواله .

فقابل نصيحتهم بسخرية وقال : إن هذا المال أوتيته بعلمي وخبرتي . وكان أعلم بني إسرائيل بالتوراة بعد موسى وهارون - عليهما السلام – [١] .

وقال أنا لو لم أستحق هذا المال ، ولم أكن أهلا له ، ما أعطاني الله إياه [٢].

ونسي قارون أن الله – تعالى – قد أهلك من كان قبله من القرون الأولى مَنْ هم اشد منه قوة ومالا ، وأكثر علماً ، وأولاداً ورجالاً . وأهلكهم بكثرة ذنوبهم وضلالهم وبغيهم في الأرض الفساد .

ولم يعر قارون اهتماماً لنصيحة المخلصين له من قومه . وضرب بها عرض الحائط ، مغتراً بماله ، وجاهه ، وسلطانه .

وفي يوم خرج على قومه في زينة وتجمل من ملابس ، ومراكب، وخدم ، وحشم ، فلما رآه مَنْ يحب الدنيا ، تمنى أن يكون له مثل ما كان لقارون من المال والزينة .

---

(١) الجلالان : تفسير الجلالين ص٥١٨ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج٤٤٦/١ .

فسمع العلماء مقاله وتمنى هؤلاء فزجروهم بقـولهم : إن ثـواب ونعيم الآخرة أفضل وأعظم مما ترون . وهو عند الله خيـر وأبقـى . فاصبروا إن العاقبة للمتقين [١] .

إيذاء قارون لموسى :

قد استبد بقارون الكبرياء والغرور ، فاتخذ إلهه هـواه ، وصـار يبغي في الأرض فسادا ، وأطلق لنفسه العنان في لذاتـه وشـهواته . وضرب بالمثل العالية ، والأخلاق الفاضلة ، والقيم والمبادئ الإنسـانية عرض الحائط .

وأما قصته مع نبي الله موسى – عليه السلام – فقد كان أساسـها الحمـق والغرور ، فقد عز عليه وهو يختال بين الزينـة والمـال . وظـن أن كنوزه قد ذللت له الصعاب ، وأخضعت له الرقاب ، وصيرته صاحب رأي وكلمة مسموعة . عز عليه وهو في هذه الصورة أن يلتف الناس حول موسى ويتركوه .

وحين طالبه موسى – عليه السلام – بزكاة أمواله ، بخلـت نفسـه عـن أدائها. ودبر مكيدة لموسى ، وهي أنه اتفق مع امرأة غانيـة علـى أن تقول في الملأ أن موسى قد ارتكب معها جريمة الزنا . ونظير ذلك أن يعطيها مبلغاً كبيراً من المال .

---

(١) الجلالان : مصدر سابق ص٥١٨ ، ٥١٩ .

وافقت المرأة وسال لعابها للمبلغ المرصود ، ومـــاذا يضــيرها ، وهي قد باعت شرفها ودينها منذ زمن .

فجاءت في الصباح وأعلنت أمام جمع كبير مـــن النـــاس ، وفـــي حضور قارون بالتهمة الباطلة . وأحضروا موسى وأعلمـــوه الخبـــر ، فصلى ركعتين ، واتجه إلى الله وسأله أن يبرئ ساحته من تلك التهمـــة الكاذبة . ثم أقبل على المرأة واســـتحلفها بـــالله أن تقـــول الصـــدق . فارتعدت المرأة ونطقت أمام الجميع أن نبي الله موســـى بـــرئ ، وأن الذي حرضها وأغراها بالمال هو قارون [١] .

وهكذا فقد برأ الله – تعالى – نبيه من الزور والبهتان ، ومن كيـــد قارون وأعوان السوء ، ورده إلى نحورهم ، وإن الباطل ليس له قرار، مهما كان أمره لا يلبث أن ينهار .

وكان جزاء غرور وتكبر وافتراء قـــارون أن عاقبـــه الله عقابـــاً شديداً، بأن خسف به وبداره وبأمواله وكنـــوزه الأرض . ولـــم تنفعـــه أمواله ولا خدمه ولا حشمه .

ولما حلّ بقارون من الخسف ، وذهاب الأموال ، وخراب الديار ، وإهلاك النفس والأهل والعقار ، ندم مَنْ كان تمنى أن يـــؤتي مثلـــه . وشكروا الله – تعالى – على أنه لم يعطهم مالاً مثل قارون ، فيكون

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٤٤٧ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج١/٣٧ .

جزاؤهم مثله الخسف (١) .

قال الله – تعالى – : " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ● وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ● قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ● فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ● وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ● فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ● وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ● تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ " (٢) .

---

(١) الطبري : مصدر سابق ج١ / ٤٤٣ – ٤٥٢ ، ابن كثير : البداية ج١/٣٤٨ – ٣٥١ ، وقصص الأنبياء ص٤٤٩ – ٤٥٤ .

(٢) آيات : ٧٦ – ٨٣ / القصص .

وفي قصة قارون من العظة والعبرة لأصحاب الأموال والسلطان والجاه ، ألا يغتروا بما أنعم الله عليهم ، ولا يجعلون ذلك سببا للتعالي والتكبر على العباد ، والبغي في الأرض بغير الحق . بل يعملوا للآخرة ، ويعطوا حق الفقراء من أموالهم ، ويراقبوا ربهم ويعملوا ما فيه للخير للناس .

فالمال والجاه والنفوذ فتنة وعلى العاقل أن لا يفتتن بها ، بل يجعله نصب عينه إنما أعطاه الله ذلك ، ليكون عادلاً إذا حكم ، صادقاً إذا تلكم، وفياً إذا وعد ، محباً الخير للناس " **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** " (١) .

---

(١) آية ٣٧ / ق .

موسى والخضر [1]

وقف النبي موسى – عليه السلام – يخطب للناس في بني إسرائيل ، ويذكرهم بأيام الله ، ونعمائه وبلائه ، حتى فاضت العيون ، ورقت القلوب واثر في السامعين .

ولما فرغ من خطبته جاءه رجل فسأله ولم يكن فارق المجلس بعد: هل تعلم أحداً أعلم منك ؟ .

قال : لا .

فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى إليه إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك . أذهب إليه وتعلم منه العلم .

فقال موسى : يا رب فكيف لي به ؟ .

قال : تأخذ معك حوتاً في مِكْتَل – قفه – فحينما فقدت الحوت فهو هناك .

انطلق موسى ومعه فتاه يوشع بن نون إلى مجمع البحرين لمقابلة العبد الصالح . وأخذا معهما الحوت في المِكْتَل . وسار حتى بلغا الصخرة . فجلس يستريحان من عناء السفر ، فغلبهما النوم فناما ،

(١) سُمي الخضر خضرا لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء – البخاري – في صحيحه ج٥ / ٣٧٣ كتاب بدء الخلق .

واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه وسقط في البحر ، واتخذ سبيله في البحر سربا [١] .

فلما استيقظ نسي يوشع أن يخبره حبر الحوت ، فانطلقا يستأنفا السير بقية يومهما وليلتهما . حتى جاء الغد كان الجهد بلغ منهما كل مبلغ ، فجلس يستريحان . فقال موسى لفتاه : " آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً " [٢] .

فقال له فتاه إني نسيت أن أخبرك خبر الحوت ، لقد نسيناه عند الصخرة التي آوينا إليها نستريح مما حل بنا من التعب. قال – تعالى – " أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً " [٣] .

فقال موسى : " ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً " [٤] .

فرجع موسى وفتاه يوشع على آثار سيرهما حتى بلغ الصخرة ، فوجدا رجلاً مسجي بثوب . فألقى عليه موسى السلام ، ورد عليه الخضر تحيته بأحسن منها . ثم سأله : من أنت ؟

قال : أنا موسى بن عمران .

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٣٦٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١/٣٣٤ ، الجلالان : تفسير الجلالين ص٣٩٠ .

(٢) آية ٦١ / الكهف .

(٣) آية ٦٣ / الكهف .

(٤) آية ٦٤ / الكهف .

قال له : موسى بني إسرائيل .

قال : نعم [١] .

فقال له موسى : " هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً " [٢] . هل تقبلني على أن أكون تابعاً لك في مقام العلم . موسى - عليه السلام - يتواضع كل التواضع ويقول للخضر بأدب ورجاء : أتقبلني تابعاً لك ، لأتعلم العلم الذي علمك إياه الله - سبحانه وتعالى - .

فرد عليه الخضر : " إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً " [٣] . ويؤكد كلامه بقوله : " وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً " [٤] .

يا موسى إنك لن تصبر على أشياء عجيبة تراها مني ، وكيف تصبر عليها وأنت لم تعرف عنها شيئا من قبل .

فقال موسى: " سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً " [٥]. يا خضر سأصبر بإذن الله - تعالى - وأكون مطيعا لأمرك .

فاشترط عليه الخضر شرطاً بقوله : " فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً " [٦] .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٣٦٧ .

(٢) آية ٦٦ / الكهف .

(٣) آية ٦٧ / الكهف .

(٤) آية ٦٨ / الكهف .

(٥) آية ٦٩ / الكهف .

(٦) آية ٧٠ / الكهف .

يا موسى إن أردت أن تتبعني وتصاحبني فلا تسألني عــن شـــيء تراه حتى أحدثك عنه بخبره [١] .

وافق موسى على شرط الخضر ، واتفقا الطرفــان ، وقبــل كــل منهما شرط الآخر .

وبينما هما يجلسان على شاطئ البحر انتظاراً للسفينة التي تحملهما إلى الشاطئ الآخر ، وإذ بعصفور صغير يهوى على ســطح المـــاء ، ويرتشف بمنقاره قطرة .

فيقول الخضر لموسى : أنظر إلى هذا العصفور الذي أخذ قطـــرة من الماء ، إن علمي وعلمك وعلم الكائنات وعلم الجميع بالنسبة إلـــى علم الله ، لا تساوي هذه القطرة التي أخذها العصفور بمنقاره [٢].

وما هي إلا لحظات حتى جاءت السفينة وركبا فيها . وبمجـــرد أن انطلقت السفينة تجري في الماء بأمان الله ، وإذا بالخضر يتناول معولا ويضرب به أرض السفينة ، فينزع منها لوحاً خشبياً .

شيء عجيب السفينة نُزع منها اللوح الخشبي ومع ذلك فـــلا المـــاء يدخلها ، ولا السفينة تغوص في أعماق الماء .

---

(١) الجلالان : تفسير الجلالين ص ٣٩٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٣٧٢ بتصرف ، ابن كثير : البداية ج١/٣٣٥ .

لم يطق موسى صبراً على هذا الفعل . فقال للخضر : " أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً " (١) .

فأجابه الخضر قائلاً : " أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً " (٢) .

قال موسى معتذراً عن سؤاله : " لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً " (٣) .

ما الذي نساه موسى ؟ . خرق السفينة ، أم الشرط بينه وبين الخضر . إن خرق السفينة ظاهر أمام العين ، ولا يمكن أن يُنسى . أما الذي نساه موسى فهو شرط الاتفاق ، بأن لا يسأل الخضر عن شيء يراه من الأمور الغريبة والعجيبة حتى يخبره هو. فاعتذر موسى عن نسيانه .

ووصلت السفينة إلى الشاطئ الآخر في أمان الله ورعايته ، وبمجرد أن نزلا من السفينة ، وإذ بالخضر يرى غلاماً صغيراً ، فيأخذ برأسه فيقتله بيده (٤) .

رأى موسى ذلك فجن جنونه واعترض على هذا الفعل بشدة قائلاً: " أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً " (٥) .

(١) من آية ٧١ / الكهف .

(٢) آية ٧٢ / الكهف .

(٣) آية ٧٣ / الكهف .

(٤) ابن كثير : البداية ج٣٣٧/١ ، الجلالان : تفسير الجلالين ص٣٩١ .

(٥) آية ٧٤ / الكهف .

يا خضر لقد قتلت نفساً بريئة بدون ذنب ارتكبته ، لقد جئت بفعل تنكره الشرائع السماوية " [١] .

فرد عليه الخضر بهدوء أعصاب ، وبطول بال " أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً " [٢] .

فأجابه موسى معتذراً : " قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً " [٣] .

فقبل الخضر اعتذاره . ومن حق العالم أن يكون سمحاً ، يقبل اعتذار تلاميذه ، ويلتمس لهم العذر .

فانطلقا يسيران حتى بلغ قرية دخلاها ، وقد أثر فيهما الجوع تأثيراً كبيراً ، فطلبا من أهلها الطعام والشراب والضيافة ، فرفضوا ، لبخلهم الشديد ، ونفوسهم الشحيحة .

رأى الخضر في القرية جداراً مائلاً ، كاد أن يسقط على الأرض ، فأقام الجدار ، وأصلح من شأنه .

فتعجب موسى وقال للخضر : قوم رفضوا أن يعطونا الطعام والشراب ، وأبوا أن يضيفونا . وأنت تقيم لهم جدارهم المائل بدون أجر [٤] .

(١) الطبري : تاريخ الرسل ج١ /٣٧٤ .

(٢) آية ٧٥ / الكهف .

(٣) آية ٧٦ / الكهف .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل ج١/٣٧٥ .

قال الخضر : " هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ " (١) . تعالى أخبرك بالأشياء التي رايتها ، ولم تستطع أن تصبر عليها ، حتى أعلمك بها " سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً " (٢) .

يقول الرسول - ﷺ - : " يرحمني الله ويرحم أخي موسى لو لم يقل للعبد الصالح إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني لرأى منه العجب العجيب " أو كما قال :

" أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً " (٣) . السفينة التي عبتها بخلع لوح خشبي من أرضيتها ، كانت لمساكين مقعدين عن العمل ، وهي مصدر رزقهم . فعبتها بهذا العمل حتى لا يأخذها الملك الجبار ، الذي كان وراءهم يُصادر كل سفينة صالحة للعمل . فحين يراها على هذا العيب يتركها لهؤلاء المساكين .

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ٥ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً " (٤) .

---

(١) من آية ٧٨ / الكهف .

(٢) من آية ٧٨ / الكهف .

(٣) آية ٧٩ / الكهف .

(٤) آية ٨٠ ، ٨١ / الكهف .

الغلام الذي قتلته يا موسى كان أبواه مؤمنين صالحين ، وعلم الله – تعالى – أن الغلام لو كبر ، لحمل والديه على الطغيان والكفر . فأراد ربك أن يقتل الغلام ، ليبقى والده على الإيمان والصلاح ، وأن يعوضهما عنه ولداً خيراً منه .

وقيل : إن الولد كان كافراً ، وإن كبر ربما يحمل والده على دينه لفرط محبتهما له [(١)] .

" وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً " [(٢)] .

الجدار الذي أقمته يا موسى في القرية التي أبى أهلها أن يضيفونا ، كان في أرض مملوكة لغلامين يتيمين ، وتحته كنز لهما ، فأقمت الجدار وأصلحته حتى يبقى الكنز مدفونا تحته ، لحين بلوغ الصغيرين سن الرشد ، فيستخرجا هذا الكنز وينتفعان به . لأن أبوهما كان صالحين ، وصلاح الآباء ينفع الأبناء .

وإني يا موسى لم أفعل هذه الأفعال التي شاهدتها من أمري ، وإنما بوحي من الله – سبحانه وتعالى – .

---

(١) الثعالبي : قصص الأنبياء ص٣١٢ ، الجلالان : تفسير الجلالين ص٣٩٢ .

(٢) آية ٨٢ / الكهف .

يا موسى لمتني على خرق السفينة ، وخفت أن تغرق بنا ، ونسيت أن الذي حفظك من الغرق ، يوم أن ألقتك أمك في الماء وأنت طفلاً رضيعاً . إن الذي حفظك يومها هو الذي حفظ السفينة من الغرق .

يا موسى لمتني على قتلي الغلام ، ونسيت أنك قتلت رجلاً من المصريين ، وقلت : رب ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر لك .

يا موسى لمتني على أنني أقمت الجدار بغير أجر ، ونسيت أنك سقيت الغنم لبنات شعيب بدون أجر [(١)] .

وفاة هارون وموسى – عليهما السلام ـ :

بعد جهاد متواصل ، وكفاح طويل بذلاه موسى وهارون – عليهما السلام – في نشر رسالة الله التي كلفهما بها ، ودعوة بني إسرائيل إلى توحيد الله – عز وجل – ، والإخلاص في القول والعمل ، والتمسك بأوامر الله ، والبعد عما نهاهم عنه ، وكل ما هو مدون في ألواح التوراة هدى ونوراً وموعظة ، وذكرى للمؤمنين .

وقد أديا الرسالة ، وبلغا الأمانة ، وبعد ذلك كانت النهاية وهي محتومة لا مفر منها لأحد . فقد توفى هارون قبل موسى بثلاث سنوات. ودفن في التيه من أرض سيناء المصرية [(٢)] .

---

(١) الثعالبي : قصص الأنبياء ص٣١٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١/١٥١ .

وبعد ثلاث سنوات توفي موسى – عليه السلام – [١] ، ودفن كـذلك فـي أرض التيه من سيناء . وكان يبلغ من العمر عشرين ومائة عاماً [٢] .

وكان هارون – عليه السلام – أكبر من موسى بثلاث سنوات ، لأنه ولد في عام العفو ، الذي أصدره فرعون بذبح المواليـد الـذكور عامـاً ، وتركهم عاماً آخر . وعاش موسى بعد وفاة هارون – عليهما السلام – ثلاث سنوات . وبذلك يكون عمرهما مساوياً ، وهو عشـرين ومائـة عاماً.

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص٤٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١ / ١٥٢ .

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- كتب الحديث الشريف .

إبراهيم البيجوري : فضيلة الشيخ .

٣- شرح البيجوري على الجوهرة - طبعة المطابع الأميرية - القاهرة .

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني - المتوفى سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢ م .

٤- الكامل في التاريخ - الجزء الأول - تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي - نشر دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

أحمد بهجت - الكاتب الإسلامي .

٥- أنبياء الله - الطبعة (٢٩) - دار الشروق - مصر سنة ٢٠٠٣ .

الأزرقي : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد المتوفى سنة ٢٤١هـ.

٦- أخبار مكة وما فيها من الآثار - جزءان في مجلد - تحقيق رشدي الصالح ملحسن - نشر دار الأندلس - بيروت .

الاصطخري : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي – المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري .

٧- المسالك والممالك : تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني – مراجعة محمد شفيق غربال – طبعة وزارة الثقافة مصر ١٩٦١م .

البكري : عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عمر .

٨- معجم ما استعجم – أربعة أجزاء في مجلدين – تحقيق مصطفى السقا – طبعة بيروت .

الثعالبي : أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧هـ .

٩- قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس – تحقيق محمد سيد – نشر دار الفجر للتراث – القاهرة .

الجلالان : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي ، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي .

١٠- تفسير الجلالان – طبعة دار المعرفة – بيروت.

ابن سعد: محمد سعد – كاتب الواقدي المتوفى سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٤م.

١١- الطبقات الكبرى – تحقيق د. حمزة النشرتي والشيخ / عبد الحفيظ فرغلي و د . عبد الحميد مصطفى – نشر المكتبة القيمة – مصر .

سيد قطب – فضيلة الشيخ الشهيد .

١٢- في ظلال القرآن – الطبعة (١٣) – دار الشروق مصر ١٩٨٧م.

السيد محمد يونس – دكتور :

١٣- العرب وظهور الإسلام – نشر دار والي الإسلامية – مصر ١٩٩٧م .

١٤- الفتوحات وأثرها في نشر الإسلام – دار والي الإسلامية – المنصورة ١٩٩٢م.

الطبري : محمد بن جرير – المتوفى سنة ٣١٠هـ .

١٥- تاريخ الرسل والملوك – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . نشر دار المعارف – مصر .

عبد الحميد كشك – فضيلة الداعية .

١٦- في رحاب التفسير – نشر المكتب المصري – مصر سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

عبد الوهاب النجار – فضيلة الشيخ :

١٧- قصص الأنبياء – الطبعة (٣) نشر مكتبة دار التراث القاهرة .

أبو الفداء : عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن شاهنشاه – المتوفى سنة ٧٣٢هـ .

١٨- المختصر في أخبار البشر – ٤ أجزاء في مجلدين – تحقيق محمود ديوب – نشر دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

القاضي عياض : أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي – المتوفى سنة ٥٤٤هـ .

١٩- الشفا بتعريف حقوق المصطفى – تحقيق علي محمد البجاوي – طبعة الحلبي – القاهرة .

القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري المتوفى سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٢م .

٢٠- تفسير القرطبي – طبعة دار الغد العربي – مصر سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م .

ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم – المتوفى سنة ٢٧٦هـ /٨٨٩م.

٢١- المعارف – تحقيق د. ثروت عكاشة – طبعة دار المعارف مصر سنة ١٩٨١م .

ابن كثير : عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر المتوفى سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م .

٢٢- البداية والنهاية – طبعة دار الغد العربي – مصر سنة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

٢٣- تفسير القرآن العظيم – طبعة دار التراث العربي – مصر .

٢٤- قصص الأنبياء – نشر دار المعرفة – مصر سنة ١٩٩٣م .

محمد الطيب النجار – دكتور :

٢٥- تاريخ الأنبياء – الطبعة (٣) دار الاعتصام – مصر سنة ١٩٨١م.

محمد علي الصابوني – فضيلة الشيخ .

٢٦- النبوة والأنبياء – طبعة دار الغزالي – مكة المكرمة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

محمد جاد المولى .

٢٧- قصص القرآن – بالاشتراك مع محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي والسيد شحاته – الطبعة .(١٣) دار التراث – القاهرة سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

المسعودي : أبو الحسن على بن الحسين على المتوفى سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م .

٢٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – نشر المكتبة الإسلامية – بيروت .

ياقوت : أبو عبد الله يا قوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المتوفى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م .

٢٩- معجم البلدان – ٥أجزاء – طبعة دار صادر بيروت سنة ١٩٧٧م.

اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح – المتوفى سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧م .

٣٠- تاريخ اليعقوبي – جزءان – طبعة دار صادر بيروت .

فهرست الموضوعات

رقم الإيداع : ٧٤٠٥ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولي : I . S. B. N

977 – 224 – 473 - X